جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية من خلال مصنفات أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ/869م)

إعداد
رناد سليمان نعيم مساعيد

إشراف
د. عدنان ملحم

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2021م

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية
في الدولة العباسية من خلال مصنفات أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ/869م)

إعداد

رناد سليمان نعيم مساعيد

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2021/09/21 م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:	**التوقيع**
1. د.عدنان ملحم / مشرفاً رئيساً	.....
2. د. جلال سلامة / ممتحناً خارجياً	.....
3. د. محمد الخطيب / ممتحناً داخلياً	.....

الإهداء

أهدي بحثي !!!! إلى من ؟؟؟

إلى ذاتي إلى معاناتي إلى ألمي....

إلى من جرع الكأس فارغاً ليسقيني قطرة حب

إلى من أزال الأشواك عن دربي ليمهد لي طريقي

إلى من وضعني على الشط وانتظر وصولي على الجهة المقابلة

أبي وعمي

الشكر والتقدير

بعد حمد الله وشكره، لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور عدنان محمد ملحم الذي تحمل عناء الإشراف على الرسالة، وكان مثالاً في العطاء العلمي والإنساني اللامحدود.

والشكر موصول إلى أساتذة قسم التاريخ الدكتور محمد الخطيب، والدكتور عامر القبج، والدكتور أمين أبو بكر.

والشكر الجزيل لكل العاملين في مكتبة جامعة النجاح الوطنية، وأخص بالذكر روح المرحوم الأستاذ فايز سلوم "أبو مازن"، والأستاذ عبد الله نصر "أبو محمد"، والاستاذ عبد الحي

ولا يفوتني أن أشكر كل من قدم لي المساعدة من أهلي، وكل من وقف إلى جانبي في أصعب الأوقات.

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية من خلال مصنفات أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ/869م)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه، حيث أن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمـــي أو بحث لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**اسم الطالب:** رشاد سليمان نعيم مساعد
Signature:	**التوقيع:** رشاد مساعد
Date:	**التاريخ:** 21-9-2021

فهرس المحتويات

الرقم	الموضوع	الصفحة
	الإهداء	ج
	الشكر والتقدير	د
	الإقرار	هـ
	فهرس المحتويات	و
	الرموزر والمختصرات	ط
	الملخص	ي
	المقدمة	1
	الفصل الاول: سيرة الجاحظ ونشاته العلمية	**3**
.1	اسمه ونسبه	4
.2	ولادته	7
.3	اسرته	7
.4	صفاته الخلقية والاخلاقية	8
.5	سيرته العلمية	11
.6	شيوخه	14
.7	تلاميذه	15
.8	ميوله المذهبية	17
.9	علاقته بالسلطة الحاكمة	19
.10	مؤلفاته	24
.11	وفاته	34
	الفصل الثاني:طبقات المجتمع وعناصره وطوائفه الدينية	**37**
أ.	طبقات المجتمع	38
.1	الطبقة الخاصة	52
.2	الطبقة العامة	65
.3	الغلمان	76
ب.	عناصر السكان	77
.1	العرب	78

الرقم	الموضوع	الصفحة
.2	الفرس	85
.3	الترك	90
.4	الزنج	95
.5	الهنود	98
.6	السندي	99
ج.	الطوائف الدينية	99
.1	النصارى	100
.2	اليهود	104
.3	المجوس	106
	الفصل الثالث: الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية	**108**
أ.	الظواهر الاجتماعية	109
.1	البخل	110
.2	السرقة والقراصنة	116
.3	العيابون	119
.4	اللواط والزنا	121
.5	الإخصاء	122
ب.	العادات الاجتماعية	124
.1	الزواج	125
.2	الأطعمة	128
.3	الأزياء والملابس	137
.4	شرب الخمر	148
.5	مجالس الطرب	149
.6	الألعاب	152
ج.	الأحوال الاجتماعية	153
.1	الأمراض والاوبئة	153
.2	التعليم	160
.3	الأعياد والمناسبات	165
	الفصل الرابع: الحياة الاقتصادية في الدولة العباسية	**168**

الرقم	الموضوع	الصفحة
	الفكر الاقتصادي عند الجاحظ	169
.1	الزراعة	172
.2	الصناعة	176
.3	المهن والحرف	179
.4	الصيارفة	182
.5	التجارة	184
.6	الأسواق	193
.7	العملات المالية	194
.8	الصكوك والمعاهدات	196
.9	الموازين والمكاييل	197
.10	الأسعار	198
.11	الضرائب	202
.12	النفقات	202
	نتائج الدراسة	**204**
	قائمة المصادر والمراجع	**205**
	Abstract	**b**

قائمة المختصرات والرموز

أولاً: المختصرات

أشير إلى المصادر والمراجع في الهوامش حسب النمط الآتي:

يشار للمصدر كالتالي: اسم العائلة، والكلمة الأولى من اسم كتابه، ثم الصفحة، مثال:

الجاحظ، الحيوان ج1، ص5.

يشار للمرجع كالتالي: اسم العائلة، والاسم الأول، والكلمة الأولى، الجزء أن وجد، ثم الصفحة، مثلاً:

الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص1.

ثانيا: الرموز

م. ن: نفس المصدر.	ج: جزء.
ص: صفحة.	ط: طبعة.
ع: عدد.	مج: مجلد.
م: ميلادي.	ت: توفي.
(ب. ط): لا إشارة إلى الطبعة.	(ب. ت): لا إشارة إلى تاريخ النشر.
(ب. م): لا إشارة إلى مكان نشر.	(ب. ن): لا إشارة إلى الناشر.
تح: تحقيق.	

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العباسية من خلال مصنفات أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ/869م)

إعداد

رناد سليمان نعيم مساعيد

إشراف

د. عدنان ملحم

الملخص

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقير الليثي والمكنى بأبي عثمان، ولُقب بالجاحظ، ولد في البصرة عام (160هـ- 776م)، وتوفي عام (ت255هـ- 869م)، عاش يتيما فقيرا، فتولت والدته رعايته في ظروف معيشية صعبة.

اهتم منذ صغره بالقراءة، وعرف بسعيه المستمر للتعلم وحضور حلقات العلم في المساجد، فعمل بائعا للسمك والخبز نهارا وطالب علم في الكتاتيب ومجالس الشعراء ليلا.واعتبر من كتاب العصر العباسي، فكان موسوعة تمشي على قدمين كما وصفة أدباء عصرة.

تتلمذ الجاحظ على ايدي عدد من العلماء والمحدثين والفقهاء والقراء، وصنف حوالي ثلاثمائة وستين كتابا وقيل أكثر، وأشهرها الحيوان والبخلاء والرسائل والبيان والتبيين. وكان مجلسه يزدحم بالجلساء والمستمعين والنقاد، كما اشتهر بشغفه بالفكاهة، وظهر ذلك في كتاباته التي لا تخلو من الهزل والسخرية.

وأقام علاقات جيدة مع الخلفاء العباسيين ووزرائهم، فكان رئيسا لديوان الرسائل زمن هارون الرشيد (ت 173هـ- 809م)، وربطته علاقة صداقة مع المعتصم بالله (ت 227هـ- 842م).

أشارت المصادر الى صفات الجاحظ الخَلقية والتي كان لها دور بارز في مسار حياته الاجتماعية، فكان ذميم الخلقة، قصير القامة، صغير الرأس، رقيق العنق، صغير الاذنين، اسود اللون، حتى شبه بالشيطان في بشاعته، ومع ذلك أجمع علماء عصره وادباءه بأنه على قدر كبير من الذكاء والفطنة ورقة الحس وصدق الفراسة وخفة الروح، ولكن في الوقت نفسه وجهت له

العديد من الانتقادات والتهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية، إذ اتهم بالكذب ووضع الحـــديث، ولم يكن محل ثقة علماء الجرح والتعديل بحجة تركه للصلاة.واعتناقه مذهب المعتزلة، فأصـــبح من قاداتها ومنظريها المركزيين ثم انشق عنها، وأنشأ فرقة خاصة اطلق عليها اسم الجاحظيـــة، ثم لم يلبث أن اعتزل هذا المذهب في عهد المتوكل وعاد إلى المذهب السني.

ضمت مصادره معلومات دقيقة وبارزة عن طبيعة المجتمع العباسي وطبقاته وطوائفه، فتحـــدث عن الطبقة الخاصة التي ضمت الخلفاء والوزراء والكتاب والحجاب والقضاة والتجار، والطبقة العامة التي اطلق عليها اسم " السوقة" لأن الخليفة يسوقهم كما يريد. كما عرفوا باسم أصـــحاب الإهانات وأبناء الأنذال والسفل والسقاط، والتي تشكلت من مختلف الأجناس والفئات التي ضمتها الدولة العباسية من عرب وترك وأكراد.

و تحدث الجاحظ عن عناصر السكان من عرب وعجم، والذين كان لهـــم تـــأثير فـــي البيئـــة الاجتماعية للدولة العباسية، وقد اعتبر العرب أساس المجتمع وأصحاب الدولة. وكان ميالاً لهـــم ومدافع عنهم، وقد تصدى لظاهرة الشعوبية التي ظهرت في بداية القرن الثالث للهجرة، والتاسع الميلادي وهم متعصبون على العرب مفضلون العجم عليهم. وتناول في حديثه أهل الذمة مـــن اليهود والنصارى ووضح مكانتهم، فمنهم فراشون وكتاباً للخلفاء والسلاطين وأطباء للأشـــراف ومنهم العطارون والصيارفة.

ويقدم الجاحظ في مؤلفاته صورة عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي من حيث العـــادات والتقاليد في الزواج والطلاق، والاطعمة واللباس، وشرب الخمر. وتطرق للحديث عن الالعـــاب ومجالس اللهو والطرب والتي حظيت بمكانة خاصة في المجتمع العباسي بشكل عام وقصـــور الخلفاء بشكل خاص.وتحدث عن عادات الناس في أعيادهم الدينية فـــي يـــوم الجمعـــة وشـــهر رمضان وعيد الفطر وعيد الاضحى والنيروز.

استعرض الجاحظ بعض الظواهر الاجتماعية التي برزت في العصر العباسي كظاهرة البخـــل والتي كتب عنها كتاب أسماه" البخلاء"، وظاهرة السرقة والقرصنة والتي ألف فيها كتابا أســـماه "حيل اللصوص" لكن هذا الكتاب مفقوداً، كما تطرق للحديث عن العيابون الـــذين وجـــدوا فـــي

مجتمع البصرة بخاصة والمجتمع العراقي بعامة.وظاهرة اللواط والزنا والاخصاء وأثرها على المجتمع آنذاك.

تناول الجاحظ في كتاباته الناحية الصحية والحياة العامة للإنسان، فتناول الامراض والأوبئة المنتشرة في عصره وطرق علاجها، كما اهتم بالحديث عن التعليم مبتدئا بذكر صفات الكتاب وإبراز اهميته ورفعة قدره، وذكر أنواع المعارف وضروب المعلمين ومحاولته رفع الظلم الذي لحق بهم جراء تحامل بعض المعاصرين عليهم وتحقيرهم.

واستعرض الجاحظ في مؤلفاته مسألة الفكر الاقتصادي كونها من المسائل المهمة التي تحاكي المجتمع العباسي، واهتم بمجال الزراعة واصناف الاراضي وطرق الري وأشهر المحاصيل. وتحدث عن الصناع والصناعة، والصناعات المعدنية واستخراج الجواهر وصناعة النسيج، وقدم صورة واضحة عن المهن المختلفة الأخرى كبيع الرقيق والحياكة والصيد والمهن الخدماتية، وكذلك تحدث عن التجارة والتي الف فيها كتاب " التبصر في التجارة" "ورسالة في مدح عمل التجار وذم عمل السلطان" بالإضافة إلى حديثه عن الصيرفة والاسواق والنقود وأنواعها.

المقدمة

زخر التاريخ العربي الإسلامي خلال عصوره بعدد كبير من الأعلام الذين كانت لهم إسهامات عظيمة في شتى مجالات العلوم والمعارف الحياتية فكان الجاحظ من بين هذه الشخصيات فهو العلامة والأديب والخبير في العصر العباسي، إذ تميز بسعة العلم والأدب والمعرفة بشتى صنوف العلوم الدينية واللغوية والفلسفية والكلامية، وشاهداً على مخرجات الثقافات الفارسية واليونانية والهندية.

واعتبر الجاحظ صاحب الأساليب البحثية القائمة على البحث والتدقيق والشك والنقد والتجربة والمعاينة، ووصف بأنه ذو عقل راجح، ونظر صائب، وذات أسلوب سهل عذب متنوع دقيق، فكان يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة ولا يزال يولدّه حتى لا يترك فيه قولاً لقائل.

وعاش هذا العالم في خضم مجتمع متعدد الأجناس واللغات والعادات والتقاليد، والمفاهيم والتجارب، ومجتمع ينبض بالحيوية والنشاط في مجالات عدّه، وسعى في مسيرته العلمية إلى الاندماج مع فسيفساء هذا المجتمع، ونقل صورة حية إلى مصنفاته الرائعة.

وتفرد الجاحظ بميزه مختلفة عن باقي أعلام عصره، لاتخاذه المجتمع مادة لمؤلفاته، فكان أول من وجه نظره نحو دراسته، لذلك احتوت مصادره على معلومات زاخرة عن الحياة، وتجلياتها من الزوايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية والإدارية.لذلك هدفت الدراسة إلى تسليط الضوء على مكانة الجاحظ بين أدباء عصره أولاً، وتناول الحياه الاجتماعية والاقتصادية في الصورة والهيكل الذي قدمه لنا ثانياً.

وفي إثناء البحث واجهت الباحثة عدة صعوبات، منها على سبيل المثال المفردات اللغوية والبلاغية للجاحظ التي تتطلب التعمق في استيعاب المفردات، واستخدامه كلمات ومفردات دخيلة بعيدة عن اللغة العربية.

اقتضت طبيعة البحث ان يكون في اربعة فصول، تناول الفصل الأول نشأة الجاحظ وحياته العلمية، من حيث اسمه ونسبه، ومكانته العلمية، وميولاته المذهبية، وعلاقته بالسلطة الحاكمة، ومصنفاته ووفاته.

اما الفصل الثاني فقد تناول طبقات المجتمع وطوائفه في الدولة العباسية، وعناصر سكانها، وطوائفها الدينية والشعوبية.

واستعرض الفصل الثالث الحياة الاجتماعية في الدولة من حيث العادات والتقاليد والظواهر والاحوال الاجتماعية وطرقهم في الأطعمة والاشربة، والأزياء، والخمر ومجالس اللهو والطرب، والأمراض، والتعليم، والاعياد الدينية.

ووقف الفصل الاخير على الحياة الاقتصادية في الدولة العباسية، من خلال الزراعة، والصناعة، والحرف، والتجارة، والأسواق، والعملات والمكاييل والأوزان وأسعار السلع والضرائب.

الفصل الاول

سيرة الجاحظ ونشاته العلمية

الفصل الاول

سيرة الجاحظ ونشاته العلمية

1. حياته ونشأته

هو ابو عثمان[1]، عمرو بن بحر[2]، بن محبوب[3]، الفقيمي[4]، الليثي[5]، الكناني[6] بالنسب وليس بالموالاة[7]. وقد اختلف المؤرخون في نسبه حيث أشار بعضهم إلى أنّه مولى عمرو بن قلع الكناني[8].

وأما عن سبب تسميته بالجاحظ فكان ثمة جحوظ في حدقتيه لذا لقب بالحدقي، وهو لقب أقل ذيوعاً وشهرة[9]، إلا أنه اشتهر وعرف بالجاحظ[10]، لما في عينيه من جحوظ[11]، والراجح أن

---

[1] ابن النديم، الفهرست، ص291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص212. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص431. الحموي، معجم، ج8، ص74. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص470. اليافعي، مراة، ج2، ص162. السيوطي، بغية، ص365. ابن العماد، شذرات، ج2، ص121. انظر ايضا:الحاجري، طه، الجاحظ، ص 79.

[2] ابن النديم، الفهرست، ص291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص212. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص431. ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص93. الحموي، معجم، ج8، ص74. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص470. اليافعي، مراة، ج2، ص162. السيوطي، بغية، ص365. ابن العماد، شذرات، ج2، ص121..

[3] ابن النديم، الفهرست، ص291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص212. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص431. ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص93. الحموي، معجم، ج8، ص 74. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص470. السيوطي، بغية، ص 365.

[4] ابن النديم، الفهرست، ص 291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص213. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 433. الحموي، معجم، ج8، ص 74. أنظر ايضا: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 70.

[5] ابن خلكان، وفيات، ج3، ص470. اليافعي، مراة، ج2، ص162.

[6] ابن النديم، الفهرست، ص291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص213. اليافعي، مراة، ج2، ص 162. الحموي، معجم، ج8، ص74. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص 470.

[7] انظر: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 87.

[8] ابن النديم، الفهرست، ص 291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص 213. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 433. الحموي، معجم، ج8، ص74. انظر ايضا: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 79.

[9] الحموي، معجم، ج8، ص85. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص471. ابن شاكر، عيون، ص 427، ابن كثير، البداية، ج11، ص 19.

[10] ابن النديم، الفهرست، ص291. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص 470. اليافعي، مراة، ج2، ص 162.

[11] ابن خلكان، وفيات، ج3، ص471. ابن شاكر، عيون، ص 426-427. اليافعي، مراة، ج2، ص 162 ابن كثير، البداية، ج11، ص19. انظر ايضا: ضيف، شوقي، العصر، ص 587.

طلابه هم من أطلقوا عليه هذا اللقب[1]، الذي لم يرض عنه فكان يجهد نفسه ليرسخ في أذهان الناس بأن اسمه عمرو، وهو الاسم المحبب والمفضل لديه، كنيته أبو عثمان الكنية التي كان فخوراً بها[2].

اختلفت الروايات حول أصل الجاحظ، فأشار البعض بأنه يعود إلى بني كنانه بن خزيمة، وهي من بطن مضر ؛ ولهذه القبيلة يعود [3]، وقيل ايضاً بأنه مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني[4]، في حين يرده البعض إلى أصول إفريقية مستندين في ذلك الى أن جده فزارة كان زنجياً أسوداً؛ لذلك شكك البعض في عروبته وطعنوا فيه بقولهم [5].

قال عمرو مفاخراً نحن قوم من العرب

قلت في طاعة لربك أبليت هذا النسب[6].

ومن الواضح أن جده محبوباً ولد ونشأ وعاش في بيئة عربية خالصة، إذ عملت هذه البيئة على صهر الجاحظ إن كان أصله حبشياً كما يزعم خصومه، فثقافته عربية، كما أن الذين وصفوا الجاحظ من معاصريه لم يصفوه بالرق ولا بأنه مولى لأحد.

وأكد الجاحظ نسبه إلى كنانه من خلال رسالة التربيع والتدوير، عندما خاطب فيها أحمد بن عبد الوهاب، " والله لإن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة " [7]، وقال أيضاً:" أنا رجل من بني كنانة

---

[1] انظر: بلات، شارل، الجاحظ، ص 99

[2] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 16.

[3] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 475

[4] ابن النديم، الفهرست، ص 291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص 213. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 433. الحموي، معجم، ج8، ص74. انظر ايضا: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 79.

[5] انظر: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 86.

[6] الحموي، معجم، مج 8، ج 15، ص 83.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 98.

وللخلافة قرابة ولي فيها شفعة وهم بعد جنس وعصبة فأقل ما اصطنع أن اكترث لي منه (النبيذ) أن أطلب الملك وأقل ما يضعون بي أن أنفي الأرض"[1].

ويرجح بعض الباحثين بأنّ الجاحظ عربي الدم والنسب، حيث كرّس جهده وحياته لخدمة العرب والعروبة ونفى ما يدور حوله من شكوك من خلال دفاعه عنهم موضحاً فضائل العرب على غيرهم من الأمم فقال في كتابه الحيوان " ولكني أخذت بآداب وجود أهل دعوتي وملّتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب "[2].

وقد دافع الجاحظ في مؤلفاته ورسائله عن العروبة والإسلام؛ فجاءت رسائله "الرد على النصارى" "والرد على المشبه" وغيرها، لتثبت بأنه وقف بالمرصاد لكل طامع وطاعن في الدين، فقال متفاخراً بقريش والعرب:" لم يكن لعبد المطلب في قريش نظيره وكما انه ليس للعرب في الناس نظير " [3]، وقال أيضاً:" وأعلم أنك لن تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دين ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصباً ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم وتوقد نار الشنان وقلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة " [4].كما قال:" ليس ادعى الى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه اشرق منك وهو مقر انه صارشريفاً بعتقك إياه"[5].

ويظهر مما سبق أن الجاحظ يدافع عن الاسلام بقوة، ضد محاولات الطعن فيه بأسلوب علمي رصين مما يدل على سعة إطلاعه وثقافته الواسعة.

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 111-128.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 7.

[3] م. ن، ج 1، ص 37.

[4] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 29-30.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 6-23.

2. ولادته

اختلف المؤرخون في تحديد سنة ميلاده بدقه فبعض المصادر ذكرت أنه ولد سنة (150هـ/ 767م) [1]، وورد عنه أنه ولد فيها أيضاً " أنا أسن من أبي نواس بسنه ولدت في أول سنة خمسين ومائه وولد في اخرها " [2]، وقيل كان مولده سنة 159هـ[3]، بينما جاء في غيرها انه ولده في عام (160هـ/776هـ)[4] في مدينة البصرة[5]، في خلافة المهدي وتوفي في خلافة المهتدي بالله، وهو بذلك يكون قد عاش ذروة ازدهار الثقافة العربية والإسلامية [6].

3. أسرته

عاش الجاحظ يتيماً إذ توفي والده وهو صغير فتولت والدته رعايته في ظروف معيشيه صعبة حالت دون تفرده لطلب العلم أو الزواج [7]، فاضطر لكسب قوته ومواجهة أعباء الحياة مبكراً[8].

واجهت أمه مصاعب في الإنفاق عليه، فذكر أنها جاءت ذات يوم بطبق عليه كراريس فقال:ما هذا؟ فقالت: هذا الذي تجيء به فخرج مغتماً وجلس في الجامع، ويونس بن عمران(ت300هـ، وهو من علماء الكلام وأصحاب النظام، الا انه لم يكن معتزلياً) جالس فرآه مغتماً فقال له: ما شأنك؟ فحدثة الحديث فأدخله المنزل وقرب إليه الطعام وأعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره وحمله الحمالون الى بيته، فأنكرت الام ذلك قالت من أين لك هذا؟ قال: من الكراريس التي قدمتها اليّ "[9].

---

[1] الحموي، معجم، ج8، ص 74. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، احمد، عصر، ص 421. البغدادي، اسماعيل، هدية، مج1، ص 802.

[2] الحموي، معجم، ج 15، ص 74.

[3] انظر، الحاجري، طه، الجاحظ، ص 89.

[4] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 17. المفجر، جمعة، أسلوب الجاحظ، مجلة فكر وإبداع، ج94، ص 111.

[5] البغدادي، تاريخ، ج12، ص 213. ابن العماد، شذرات، ج2، ص 121.

[6] أنظر: سلام، عبد الستار، الجاحظ، دار العلوم، ع 1، 45.

[7] انظر: المفجر، جمعة، أسلوب الجاحظ، مجلة فكر وإبداع، ج(94)، ص 111.

[8] الحموي، معجم، ج 6، ص 74

[9] ابن المرتضى، المنية والأمل، ص 38-39.

لم تشر المصادر التي ترجمت له إلى زواجه، كما أن الجاحظ نفسه لم يشر الى ذلك في مؤلفاته، ورجح بعض الباحثين إلى أن امتناع الجاحظ عن الزواج ربما يعود إلى بشاعة منظرة، وأعاد بعضهم سبب ذلك إلى رغبيه في الابتعاد عن قيود الزواج ومشاغل الأولاد للتفرغ للعلم والدراسة [1]، في حين انفرد ابن شاكر الكتبي بقوله أنه له ولد قبيح المنظر من إحدى جواريه [2].

4. صفاته الخلقية والخُلقية

كان لصفات الجاحظ الخلقية دوراً بارزاً في مسار حياته الاجتماعية، فقد عرف بأنه ذميم الخلقة، فكان قصير القامة، صغير الرأس، رقيق العنق، صغير الأذنين، أسود اللون إلى درجة أنّة شبه بالشيطان لشدة بشاعته[3]، فقيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه إليه بسر من رأى (مدينة سامراء) ليؤدب ولده فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم[4]. إذ انه مع فضائله مشوه الخلق [5]. وإلى جانب ذلك فقد امتاز بالدعابة والمجانة والاستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضعية، ومع ذلك كان لطيف الروح ذكي الفؤاد صادق المواساة [6].

وعلى الرغم من دمامة وجهه وبشاعة منظره فقد امتاز الجاحظ بخفة الروح وسرعة الخاطر فعرف عنه ذو نفسية متفائلة مستبشرة لا تكترث بالمظاهر والقشور بمقدار ما يقيم وزنا للأصالة والحقائق الخالدة، لقد كان الجاحظ يسقط الطرافة ويتبع النكتة حتى إذا استقامت له بل وحتى انعقدت على نفسه أطلقها ضحكة عريضة ساخرة[7] .

رسم تاريخ الأدب القديم للجاحظ صورة ليس فيها شيء من الأناقة فهو خلد ذكره بأسلوبه الكتابي الناصع الطريف، ثم جاء الأدب الشعبي فاستغل فكرة ميل الجاحظ للدعابة والتهكم ليجعل منه

---

[1] انظر: المفجر، جمعة، اسلوب الجاحظ، مجلة فكر وابداع، ج(94)، ص 111.

[2] ابن شاكر، عيون، ص 427.

[3] ابن شاكر، عيون، ص 426. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 19.

[4] ابن شاكر، عيون، ص162.

[5] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 471.

[6] انظر: الزيات، أحمد، تاريخ، ص 231.

[7] م. ن. ص 231.

بطل هذا الأسلوب أو راوياً للنوادر المستملحة كما استغل هـذا الأدب الشـعبي شـكله ليغـذي موضوع القبح حتى نسب إليه دون حياء اعترافه بقبحه وله أخبار كثيرة طريفة ونثر طائل ونظم ضعيف فمن أخباره ونوادره قال أتيت منزل صديق "لي فطرقت الباب فخرجت إلـي جاريـة سنديه فقلت قولي لسيدك الجاحظ بالباب فقالت: أقول الجاحد بالباب على لغتها فقلت: لا قـولي الحدقي فقالت أقول الحلقي فقلت لا تفولي شيئا ورجعت. وقال ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيت أحدهما في العسكر وكانت طويلة القامة وكنت على طعام فأردت أن أمازحها، فقلت انزلي كلي معنا فقالت: إصعد أنت حتى ترى الدنيا[1].

أما الأخرى، فقال:" أتتني وأنا على باب داري فقالت لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي، فقمت معها الى ان أتت بي الى صائغ يهودي فقالت له مثل هذا ؛ وانصرفت، فسالت الصـائغ عـن قولها، فقال: أمرتني أن أنقش لها على الفص (خاتم) صورة شيطان، فقلت ما رأيـت الشـيطان فأتت بك"[2].

ويذكر أن سخرية الجاحظ لطيفة خفيفة غير جارحة أو ثقيلة يقبلها الإنسان ولا يمجهـا الـذوق الفني أو الاجتماعي إن من يقرأ كتاب البخلاء لا يتمالك من الضحك وهو يسمع نوادره الطريفة وأخبارهم العجيبة، وكذلك من يتصفح رسالة التربيع والتدوير يبقى في ضحك متواصل من هيئة أحد الاشخاص الذي ادعى العلم ولم يجب على أي سؤال من أسئلة الجاحظ[3].

و أجمع علماء وأدباء عصرة بأنه على قدر كبير من الذكاء والحفظ وسرعة الخـاطر والفطنـة ورقة الحس وصدق الفراسة وخفة الروح حيث شاع ذكره وعلا قدره[4]. ووصف بأنه مرهـف الحس متفتح البصيرة يأخذ كل ما يسمع ويبصره في حياته اليومية، فهو يسمع بأذنه ما يجول في خواطر البحريين ويشاهد بعينه ما يقومون به فكانت هذه الأمور تثير مداركه وتشحذ مشـاعرة،

---

[1] ابن نباته، سرح، ص 248-249.

[2] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 73.

[3] انظر: عباس، عرفه، سخرية، ص 102-105.

[4] الحموي، معجم، ج16، ص 74. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 20. انظر ايضا: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 93.

فهو يأخذ الأمور ويحللها ويدرسها، ليجعل منها موضوعات له فيدرس طبائع الناس والحيوان ويربط ما سمعه وشاهده بتلك الطبائع [1].

وأما مجلسه فكان يزدحم بالجلساء والمستمعين والنقاد، كما اشتهر بشغفه بالفكاهة، فكتاباته على اختلاف مواضيعها لا تخلو من الهزل والسخرية، فهو يخلط بين الجد والهزل، وقال " للضحك موضع وله مقدار فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر ولم يعيبوا المزح إلا بقدر " [2]، وفي الوقت نفسه كان ذا جلدٍ وصرامةٍ وقدرة على الكلام، وكان ذا رأي جيد، وله أساليبه ومذاهبه وآراؤه في الأدب واللغة، ومنتقداً جارحاً عندما وصل الأمر للشعوبية (إحدى الطوائف التي ظهرت في العصر العباسي، المنتقدة للعرب والعروبه) الحاقدة على العرب [3].

تميزت سخرية الجاحظ بأنها تصدر عن نفس مرحة متفائلة بالحياة وطبيعة لا تعرف الحقد واللؤم ومزاج يميل إلى الإعتزال فيخلط الجد بالهزل ويتوسط بين متطرفين التقصير والإفراط على سنة صاحب المنطق والمعتزلة، موضحاً بأن للضحك والمزح مقدار محدد حتى لا يُعاب من الناس [4]، فقال:" نحن نعوذ بالله أن نجعل المرح في الجملة كالجد في الجملة بل نزعم أن بعض المزاح خير من بعض الجد وعامة الجد خير من عامة المزح " [5]، ولكن سخريته سرعان ما تحولت الى نقد لاذع وتجريح وغمز ولمز حين تعلق الأمر بالشعوبية المتسترة تحت شعار أهل التسوية لتحريك المؤامرات ضد العرب وظهور القوة الفارسية [6].

ومما قيل في وصف الجاحظ وحسنه في الفصاحة بأنه أحد شقي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف والبليغ لم يقصر نظمه عن نثره ولم يزر كلامه بشعره فهو في كلامه بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبادات وكلامه مسموع وليس من الكلام المصنوع[7].

---

[1] انظر: نوفل، سيد، أبو عثمان، مجلة الهلال، ع 9، ص 31.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 29-30.

[3] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 28-29.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 29-30.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 96.

[6] الجاحظ، البيان، ج 3، ص29.

[7] الهمذاني، مقامات بديع، ص 75-76.

5. سيرته العلمية

حظي الجاحظ بمكانة بارزة وكبيرة عند علماء اللغة، فقط كان قدوة لهم، لما يتمتع به من آراء قيمّة في الجوانب اللغوية المختلفة، فقد اهتم منذ نعومة أظفاره بالقراءة وعرف بسعيه المستمر للتعلم وحضور حلقات العلم في المساجد، فضجرت والدته التي كانت ترغب بأن يتجه للعمل في التجارة للخروج من دائرة الفقر التي عاشتها إلا أنه عمل وتعلم في الوقت ذاته وقد اجمعت المصادر على أنه عمل بائعاً للسمك والخبز في أسواق البصرة نهاراَ، وطالب علمٍ في الكتاتيب والمساجد ومجالس الشعراء ليلاَ [1]، حتى تنامت قدراته العلمية وأصبح من اهل الصنعة حيث أدرك أهمية البوادي وأنها المنهل الصافي للغة والبلاغة والفصاحة فقصد أعرابها وأخذ منهم مما عجل دخوله الى عالم التأليف والتصنيف، وساعده في ذلك ذكاءه وصبره في طلب العلم على أيدي أدباء العلم والأدب آنذاك[2].

وحقق الجاحظ موقعاً علمياً رفيعاً بين معاصريه وذلك لما امتاز به من حس الكلام وروعة التصنيف من الناس المتفتح الضمير المنكشف أطواء النفس لا ينطوي على خبيئة تتعقد كل ما بينهما من اختلافات لكأنه صديق له منذ زمن طويل وإن اختلفت مذاهبهما وتفاوتت مناحي حياة كل منهما[3].

وكان لشغف الجاحظ وحبّه للغة والأدب دورٌ كبير في مغادرته مسقط رأسه البصرة قاصدا بغداد عاصمة العالم الإسلامي آنذاك وحاضرة السياسة والاقتصاد والعلم وشتى انواع الفنون، فكانت محطة هامه في حياته حيث قصدها لاستكمال تحصيله العلمي [4]، وفيها اطلع على الثقافات المختلفة كالفارسية والسريانية واليونانية والهندية وقراءة الكثير من المصنفات التي ترجمت إلى اللغة العربية، ما جعله واسع الثقافة والعلم إذ جمع مختلف صنوفها في زمانه[5].

---

[1] الحموي، معجم الادباء، ج16، ص 74.

[2] ابن شاكر، عيون، ص 422.

[3] انظر: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 37. عباس، عرفة، سخرية، ص 38.

[4] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص433. انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 19.

[5] انظر: عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج4، ع1، ص46.

وأخذ نجم الجاحظ يرتقي ويسمو في عالم العلم والمعرفة حتى أضحى بحراً في علوم اللغة والكلام[1]، وعلوم الدين ومذاهب المخالفين وفي الآداب والاخلاق وكلام الجد والهزل [2]، وشتى أصناف المعرفة الاخرى ويرجع ذلك الى حبه للبحث والدراسة حتى قيل لم يقع تحت يده كتاباً إلا استوفى قراءته، فكان ذلك سبباً لبراعته في تأليف كتب تتلاءم مع العصر الذي عاش فيه [3]، وقيل بان كتبه تلقح العقول وتشحذ الأذهان [4]، حيث اشتهر بمقولته:" اذا لم يكن القرطاس صافياً، والمداد نامياً، والقلم مؤاتياً، والقلب خالياً، فلا عليك أن تكون كاتباً " [5].

وتفرد الجاحظ من بين أدباء عصره في الإندماج في الحياة العامة والإستفادة منها ما استطاع، إذ تنوعت موضوعات كتبه تنوعاً طال الإنسان والحيوان والنبات، فقد كان لاندماجه مع المجتمع واختلاطه بكافة فئاته ومجالسته للأدباء والشعراء وملوك وأمراء عصره أثراً واضحاً في تنمية معرفته وازدياد تجاربه.

عدَّ الجاحظ من أكبر كتاب العصر العباسي، واعتبر موسوعة تمشي على قدمين، وكأنه دائرة معارف وقته،و اتضح نبوغه وإبداعه في كتب السياسة والتاريخ والجند والقضاء والهجاء واللغة والنبات والحيوان فهو مرآة ومثال صادق لعصره، هذا العصر الذي شهد تطورا مماثلا في مجال التصنيف والتأليف وتزاوج الثقافات واتساع نطاق الترجمة من شتى الثقافات إلى اللغة العربية، ويبدو هذا جلياً في مؤلفاته التي غلب عليها جانب العقل فكانت تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً، إلى جانب تنوعها وشموليتها وخروجها عن المألوف الى تصانيف في حقول جديدة تناول فيها الشرائح الاجتماعية[6].

---

[1] انظر: عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج(4)، ع(1)، ص46.

[2] الحموي، معجم الادباء، ج16، ص 76. ابن كثير، البداية، ج11، ص 19.

[3] الحموي، معجم، ج8، ص 75. الذهبي، سير، ج11، ص 527. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، احمد، عصر، ص 421. انظر ايضا: عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج4، ع1، ص46.

[4] الحموي، معجم، ج8، ص 76.

[5] انظر: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع3–4، ص 209.

[6] الحموي، معجم، ج(8)، ص 103. ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 473. اليافعي، مراة، ج(2)، ص 164. انظر ايضا، الصالح، ابراهيم، الجاحظ، مجلة الوعي الاسلامي، مج(1)، ع(1)، ص56.

تميزت مؤلفات الجاحظ بخروجها عن المألوف من حيث الموضوع والأسلوب إذ يربط أقوال الفلاسفة بأقوال الأدباء وهذا أدى الى تناول الشعراء كلام المتكلمين في أقوالهم وأشعارهم [1]. وزادت مكانته عندما تصدى للتيارات الجارفة كالشعوبية، مفنداً مزاعمهم دفاعاً عن الإسلام والعروبة مصنفاً كتاب خاص بالشعوبية [2].

وقد وصفه ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء، بأنه حبيب القلوب مزاج الارواح، شيخ الأدب، لسان العرب وكتبه رياض زاهره، ورسائله افنان مثمرة، الخلفاء تعرفة والأمراء تصافيه وتنادمه والعلماء تأخذ عنه والخاصة سلم به والعامة تحبه، فهو جمع بين اللسان والعلم وبين الفطنة والعلم وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم طال عمره، وفشت حكمته، وظهرت خلته ووطئ الرجال عقبه وتهادوا ادبه وافتخروا بالانتساب اليه [3].

ومع ذلك فقد وُجّه للجاحظ العديد من الانتقادات والتهم بسبب الخلافات الدينية والمذهبية، فاتهم بالكذب ووضع الحديث [4]، ولم يكن محل ثقة علماء الجرح والتعديل بحجة تركه الصلاة [5]، إلى حدّ اعتبره المؤرخون ماجناً في الدين[6]، واحداً من أشهر أئمة البدع والضلال [7]. بينما اعتبره البعض أغزر المؤلفين إنتاجاً في علوم الأدب والشعر والديانات والعقائد والمذاهب الفلسفية وغيرها، واستطاع أن يترك للأجيال الكثير من الآراء في مختلف الظواهر اللغوية والنحوية والصوتية، حفلت بها المكتبة العربية ولا تزال حتى وقتنا الحالي.

---

[1] ابن شاكر، عيون، ص 423.

[2] انظر: بروكلمان، كارل، تاريخ، ج(3)، ص 108.

[3] الحموي، معجم الادباء، ج8، ص 103.

[4] ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 441. الذهبي، سير، ج(11)، ص 529. ابن حجر، لسان، ج(4)، ص 356.

[5] البغدادي، تاريخ، ج(12)، ص 217. ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 441. الذهبي، الجرح، ج(3)، ص 247. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج (9)، ع(3، 4)، ص 215.

[6] الذهبي، سير، ج(11)، ص527.

[7] الذهبي، العبر، ج(1)، ص 247. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 19. ابن حجر، لسان، ج(4)، ص 355.

6. شيوخه

حرص الجاحظ على طلب العلم، فلم تقتصر معارفه على قراءة الكتب، بل تتلمذ على يد نخبة من العلماء والمفكرين، تأثر بهم وأخذ عن معظم معاصريه شتى أصناف المعرفة كان لها أثر بالغ على شخصيته وأفكاره الأدبية التي انعكست على مؤلفاته في كافة المجالات، وقد ذكر المؤرخون بعضاً من الأساتذة الذين نقل عنهم معارفه إذ تعلم اللغة والأدب والشعر والرواية على يد أبي عبيدة، معمر بن المثنى التيمي وهو أديب ولغوي، إخباري، ولد ومات في البصرة (ت 210هـ/825م) [1]، حيث روى عنه الأشعار والأخبار والنسب والطبيعيات[2]، وأخذ عن ابي زيد وهو سعيد بن اوس بن ثابت الخزرجي الأنصاري، وهو لغوي من أئمة الأدب، بصري، (ت 215هـ/ 830م) حيث أخذ عنه الغريب واللغة والنوادر، واعتبر من الثقات في رواته[3]وأخذ النحو عن ابي الحسن سعيد بن مسعدة البلخي الاخفش وهو احد نحاة البصرة، (ت 215هـ/830م) [4]، ودرس المنطق في علم الكلام على يد شيخ الاعتزال أبي هذيل العلاف وهو، محمد بن الهذيل بن عبد الله، من علماء الكلام، وشيخ معتزلة البصرة (ت 255هـ/840م)[5]، وشيخه أبو إسحاق النظام إبراهيم بن سيار بن هانئ الضبعي، بصري، من علماء الفلسفة وعلم الكلام (ت231هـ/845م)[6]، وأعاد المؤرخون شهرة الجاحظ الى اتساع علمه وتبحره في شتى المجالات، فيقول ياقوت:" كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام،

---

[1] الحموي، معجم، ج 8، ص 74–75. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، أحمد، عصر، ص421. جبر، جميل، الجاحظ، ص 19.

[2] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص328.

[3] ابن خلكان، وفيات، ج 2، ص 120–121. الحموي، معجم، ج 8، ص 74–75. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، أحمد، عصر، ص421. جبر، جميل، الجاحظ، ص 19.

[4] الحموي، معجم، ج8، ص 74–75. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، أحمد، عصر، ص421. جبر، جميل، الجاحظ، ص 19.

[5] انظر: ضيف، شوقي، العصر، ص 588.

[6] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 433. ابن الجوزي، المنتظم، ج12، ص 93–94. الحموي، معجم، ج8، ص75. ابن خلكان، وفيات، ج3، ص471. ابن شاكر، عيون، ص 422. اليافعي، مراة، ج2، ص 162. ابن العماد، شذرات، ج2، ص 121. انظر ايضا: رفاعي، احمد، عصر، ص 421. البغدادي، هدية، مج1، ص 802. جبر، جميل، الجاحظ، ص 19. الجاحظ، ترجمة الجاحظ، مجلة مجمع العلمي العربي –سوريا، مج9، ع 3، 4، ص205

وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا"[1]، وأخذ عن حجاج بن محمد الأعور المعروف بالمصيصي وهو محدث وفقيه ترمذي الأصل سكن بغداد (ت 206هـ/821م)، وأبي يوسف، يعقوب بن إبراهيم القاضي هو فقيه ومحدث، كوفي المولد، بغدادي الوفاة (ت 182هـ/798م)[2]، وأبو معن، ثمامة بن الأشرس النميري، أديب من علماء الكلام بصري، أحد أكبر زعماء المعتزلة، سكن بغداد (ت255هـ/ 840 م)[3]. كما تتلمذ على يدي الأصمعي أبو سعيد عبد الملك بن قريب الباهلي (ت 216ه/ 831م)، حيث اتصل به وأخذ عنه الأشعار والاخبار والنوادر والمعارف الطبيعية من الحيوانات وقد روى عنه أكثر من مئة مرة في كتابه الحيوان [4].

يتضح مما سبق أوجه العلوم والدراسة التي توجه إليها الجاحظ، واعتبر أساتذته من أحكم الأساتذة في الأدب والأخبار واللغة والحكمة، وهم أصحاب الثقافة الراقية، كما اهتم بالعلوم النظرية التي من أهمها المسائل الدينية حتى أصبح صاحب مذهب [5].

7. تلاميذه

اشتهر الجاحظ في البصرة والكوفة وبغداد وجميع عواصم العالم الإسلامي وبين العلماء والأدباء والمفكرين، وقام برحلات إلى مختلف الحواضر الإسلامية لطلب العلم والبحث فزار دمشق وأنطاكية ومصر[6].

إن أصالة الجاحظ ونبوغه وإبداعاته في الثقافة العربية في شتى أنواع المعارف، جعلت الدارسين يتسابقون للأخذ من علمه وفكره ما استطاعوا، إذ شكلت مؤلفاته مصدراً هاماً لكتاب زمانه ومن

---

[1] الحموي، معجم، ج 15، ص 75-76.

[2] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة الجاحظ، مجلة مجمع العلمي العربي –سوريا، مج9، ع 3، 4، ص203.

[3] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. الذهبي، سير، ج11، ص526. ابن العماد، شذرات، ج2، ص 121. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة الجاحظ، مجلة مجمع العلمي العربي –سوريا، مج9، ع 3، 4، ص203.

[4] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 170-176.

[5] علي، محمد كرد، امراء، ج 1، ص 317.

[6] أمين، محمد، ضحى الاسلام، ج1، ص 409

عاصرهم، ونقل عنه كثير من أصحاب العلم، فذكر من تلاميذه أبو سعيد الحسن بن علي بن زكريا العدوي وهو محدث، بصري، اقام في بغداد (ت 262هـ/ 875م) [1]، وابي بكر عبدالله بن ابي داوود السجستاني إمام اهل الحديث في زمانه، محدث البصرة، أقام في بغداد (ت 275هـ/ 888م) [2]، ابو محمد يموت بن المزرع البصري أديب وشاعر ولغوي وإخباري، ابن أخت الجاحظ، مات في دمشق (ت 304هـ/916 م) [3]، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد الازدي عالم البلاغة والنحو البصري وأقام في بغداد (ت 286هـ/898م)[4]، وأبو عبد الله محمد بن القاسم، الملقب بأبي العيناء فهو شاعر عباسي من الأهواز وأقام في البصرة (ت 283هـ/ 896م)[5]، وأبي دُلَف هاشم بن محمد الهاشمي الخزاعي، شاعر وأديب بصري (ت 312هـ/ 924م)[6]، وأبو خلف سلام بن يزيد، أديب سافر من الأندلس إلى البصرة وأخذ العلم عن الجاحظ (ب.ت)، وسلام بن يزيد، وقد اتى من الأندلس ليأخذ العلم منه [7].وهناك أبا حسن محمد بن عمر البحيري الذي تتلمذ على يد الجاحظ لمدة عشرين سنه.....[8]. ويلاحظ أن معظم أصولهم يعود إلى البصرة، وتنوعت معارفهم بين الحديث والفقة والفلسفة وعلم الكلام.

لقد عمت شهرة الجاحظ وبلغت الآفاق مما جعل الجميع يسعون ملتمسين علمه ومعرفته فمحمد الحسن بن عمر البحيري الذي تتلمذ على يد الجاحظ مدة عشرين عاماً، كان قد سمع به وهو

---

[1] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع3، 4، ص 203.

[2] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. ابن حجر، لسان، ج4، ص 355. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع 3، 4، ص 203.

[3] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. الذهبي، سير، ج11، ص 526. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع3، 4، ص 203.

[4] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع3، 4، ص 203.

[5] ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع3–4، ص 203.

[6] البغدادي، تاريخ، ج12، ص 213. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 431. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع(3، 4)، ص 203

[7] الحموي، معجم، ج15، ص104–105. انظر ايضا: الجاحظ، ترجمة، مجلة مجمع العلمي العربي – سوريا، مج9، ع(3، 4)، ص 203.

[8] الحموي، معجم الأدباء، ج 16، ص 106.

ببلاد الأندلس فقصده الى بغداد ولم يجده، فسار إليه الى سر من رأى فلم يجده، فلحق بـــه إلـــى البصرة، وذلك لعلمة وشهرته التي وصلت لجميع البلاد، فقال:" سألت عـــن منزلـــه فأرشـــدت ودخلت إليه فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحيه غيره ودهشت فقلت أيكـــم أبو عثمان، فرقع يده وحركها في وجهي، وقال من أين؟ فقلت من الأندلس، فقال طينة حمقاء، ما الإسم؟ قلت سلام، فقال: اسم كلب القراد، فقال ابن من؟ فقلت ابن يزيد فقال بحق ما صرت؟ ابو من.؟ فقلت أبو خلف، فقال: كنيته قرد زبيدة، ما جئت تطلب؟ فقلت العلم فقال: ارجع بوقت فإنك لا تصلح، فقلت له: ما انصفتني فقد اشتملت على خصال أربع جفاء البادية وبعد الشقة وغـــرة الحداثة ودهشة الداخل فقال: فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحيه غيري، كان يجب أن تعرفني بها، فقال أقمت علي عشرين سنه"[1].

8. ميوله المذهبية

إن المتأمل للتراث التاريخي والأدبي عبر الأزمان، يجد أن الكتابات التاريخيـــة قـــد امتـــازت بميزات عديدة تعكس البيئة التي نشأت وترعرعت فيها، لذا فكل أديب كان يتبع منهجاً مســـتقلاً خاصاً به، فقد أجمعت المصادر بأن الجاحظ قد بدأت شهرته في فضاء العلم والمعرفة أديباَ ثـــم اصبح زعيماَ للمعتزلة [2]، إذ انتقل من الأدب واللغة وموضوعاته في الحيـــوان والنبـــات إلـــى الأفكار الدينية والتصدي للزنادقة من الموالي (الفرس) الذين حقدوا على الإسلام والمسلمين وأخذ يدافع عن الدين والعقيدة، مقدماً لخصومه الأدلة والبراهين القاطعة، دون أن يخشـــى منـــاظرة العلماء والأدباء والمتكلمين، مستخدماَ الطرق والمنطق نفسه الذي يسيرون عليه للـــرد علـــيهم والتصدي لهم[3].

---

[1] التنوخي، نشوار المحاضرة، ج 8، ص 119-204.

[2] البغدادي، تاريخ، ج(12) نص 213. ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص433. الذهبي، سير، ج(11)، ص 527 – العبر ج(1)، ص 359. ابن شاكر، عيون، ص 422. انظر ايضا: رفاعي، أحمد، عصر، ص 422. جميل، جبر، الجاحظ، ص 146.

[3] انظر: عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج(4)، ع(1)، ص 48.

منع الخليفة العباسي هارون الرشيد (وهو أبو جعفر هارون بن المهدي تولى الحكم سنة 170هـ، وتوفي سنة 193هـ/809 م) [1]، الجدال في أمور الدين، مهدداً بمعاقبة أهل الكلام، ولكن الأمر اختلف عند وصول المأمون (وهو أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد، تولى الحكم سنة 198هـ، وتوفي سنة 218هـ)[2]، فقرب رجال العلم والأدب والفن إلى مجلسه، للمناقشة في أمور الدين [3]. فعبر الجاحظ عن موقف المأمون بقوله: " هذه نعمت الله على الانسان"، داعياً الى إطلاق العنان لمن يأتي بعدهم، للمناقشة والمداولة والمناظرة، لأخذ العبرة، كما أخذوها من خلال مناقشاتهم [4].

أما عن موقفه من المعتزلة فقد انفرد عن مبادئها بأمورعديدة، فأسس فرقة خاصة أطلق عليها اسم" الجاحظية"، مازجاً آرائه وآراء متكلمي عصره بآراء الفلاسفة اليونان[5]. وقام بتقسيمها إلى طبقات، لكل منها شأن خطير، ومن شده تعلقة بالإعتزال، قال: "لولا المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا كلام المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل"[6].

ويمكن القول أن عصره كان عصر حرية الفكر والمناظرات بين الفرق الدينية المختلفة، واعتبر الجاحظ خير مثال لهذه الحرية سواء في الدين أو العلم أو الأدب، إذ ظهر ذلك عبر آرائه النقدية وحججه بمختلف المسائل العلمية.

---

[1] الذهبي، سير، ج 9، ص 286.

[2] م. ن، ج 10، ص 272.

[3] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 10-11.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص 116. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 10-11.

[5] ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 471. اليافعي، مراة، ج(2)، ص 162. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 19. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 121. انظر ايضا: رفاعي، احمد، عصر، ص 423. جبر، جميل، الجاحظ، ص 12. عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج(3)، ع(1)، ص 48. الدقر، عبد الغني، اعتزال، مجلة المجمع العلمي العربي – سوريا، مج(28)، ج(4)، ص 585 –586.

[6] ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 471. اليافعي، مراة، ج(2)، ص 162. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 19. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 121. انظر ايضا: رفاعي، احمد، عصر، ص 423. جبر، جميل، الجاحظ، ص 12. عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج(3)، ع(1)، ص 48. الدقر، عبد الغني، اعتزال، مجلة المجمع العلمي العربي – سوريا، مج(28)، ج(4)، ص 585 –586.

9. علاقته بالسلطة الحاكمة

اهتم الخلفاء العباسيون اهتماماً كبيراً وواسعاً بشؤون الثقافة والأدب والعلم، كما اهتموا برعاية الأدباء والعلماء، فلا عجب أن نجد الجاحظ يبحث لنفسه عن مكانة مرموقة لدى السلطة الحاكمة، لذا بدأ يتردد على قصور العباسيين وهو في البصرة، وبلغت علاقته درجه قوية مع الخلفاء والأمراء، إذ وصل مجده في عصر الخليفة عبد الله المأمون، فأقام حياة المترفين وأحبه الولاة والأعيان وأغدقوا عليه العطايا والمنح، فقام بتدوين الرسائل والكتب التي تؤيد مذاهبهم وتنتقد اراء مخالفيهم في كثير من المسائل الدينية [1].

اعتلت منزلة الجاحظ عند الخليفة عبد الله المأمون الذّي قُدّره لفكره واعتزاله وسعة ثقافته، فصنف له كتاب "الإمامة "، الذي يُعّتبر من أشهر كتبه التي اعجب بها [2]، وأصبح أكثر الخلفاء قراءة لمصنفاته إذ استطاع الجاحظ بهذه الرسائل والكتب أن يحقق كل ما كان يطمح إليه من مكانة أدبية وأخذ مكاناً في مجلس الخليفة المأمون ودعيّ للحضور في المناسبات الرسمية كغيره من الشخصيات البارزة والاعتبارية [3].

ومن شدة اعجاب المأمون به عينّه على ديوان الرسائل الذي لم يشغله طويلاَ وتركه بعد فتره زمنية قصيرة، ويقال أن سهل بن هارون هو من أبعده عن المنصب لشدته وحزمه، بقوله:" أن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب"[4].بينما ذكرت مصادر أخرى أن الجاحظ هو من ترك الديوان، لإعتقاده بأن الوظيفة لا تلائمه وأن وظيفته الأساسية هي التأليف والكتابة الأدبية، مما جعل المأمون يقر له راتباً رسمياً لاستمرار وجوده في الديوان [5].

---

[1] الذهبي، سير، ج(11)، ص 528-529.

[2] ابن النديم، الفهرست، ص292. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 19. الصالح، ابراهيم، الجاحظ، مجلة الوعي الاسلامي، مج(1)، ع(1)، ص 56.

[3] الاصفهاني، الاغاني، ج 10، ص 116.

[4] الحموي، معجم، ج16، ص79. ابن حجر، لسان، ج4، ص 355. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 19. الصالح، إبراهيم، الجاحظ، مجلة الوعي الإسلامي، مج1، ع1، ص 56.

[5] انظر: بروكلمان، كارل، تاريخ، ج3، ص 107. ضيف، شوقي، العصر، ص 590.

استمرت صلة الجاحظ بالسلطة العباسيّة فبلغ في عهد المعتصم بالله ((وهو أبو اسحاق، محمد بم هارون الرشيد، ت 227 هـ/م) [1]، كل ما كان يطمح إليه من مجد ونفوذ وسلطان، إذ بدأ بالتواصل مع رجالات الدولة وخص علاقاته وتواجده في البلاط العباسي على نحو ما كان سابقاَ، وبلغ ما كان يطمح اليه من سلطة ونفوذ، ويعتبر ابن الزيات (وهو ابو جعفر، محمد بن عبد الملك ابن أبان، ت 233 هـ/847م)[2]، وزير المعتصم من أهم الشخصيات التي تقرب منها، فأصبح ذا حظوة شديدة عند الخليفة ورجال دولته فهم جميعاً يقدرون فضله وأدبه ومعرفته الواسعة الشاملة لجميع المعارف، كما أعجبوا بإخلاصه الشديد للخلافة وما طبع عليه من لطف المعشر وحسن السمر وطيب النادرة، فكانوا يعجبون بحديثه ويقدرون بلاغته حق قدرها.

ويعتبر ابن الزيات أشد الناس حباً له وإعجاباً به فآثره بوفاته وإخلاصه، فقيل كان يحب أن يكون الجاحظ معه يحادثه ويؤاكله [3]، وقال أبو العيناء:" كان الجاحظ يأكل مع ابن الزيات فجاؤوا بفالوذج (نوع من أنواع الحلوى)، فآثر الوزير الجاحظ بأن يأكل معه منه، فأسرع أبو عثمان في الأكل حتى نظف ما بين يده فقال له الوزير: تقشعت سماؤك قبل سماء الناس يا ابا عثمان، فردّ عليه لأن غيمها كان رقيقا "[4].

وفي هذه الفترة ألف الجاحظ كتاب الحيوان وقدمه له [5]، ورافقه فيما بعد الى مدينه سامراء، عندما اتخذها المعتصم بالله مقاما له ومقرا لخلافته [6].إلا أن هناك ما يبين تراجع علاقته معه لسبب غير واضح فكتب له " أعانك الله من سوء الغضب وعصمك من صرف الهوى وصرف ما أعارك من القوة الى حب الإنصاف ورجح في قلبك إيثار الأناة"[7].

---

[1] بروكلمان، كارل، تاريخ، ج 10، ص 290.

[2] الذهبي، سير، ج 11، ص 172.

[3] ابن الانباري، ص 132–135. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 437

[4] ابن الأنباري، ص 132–135. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص 437

[5] الذهبي، سير، ج11، ص 528–529.

[6] م. ن، ج11، ص 529.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 379.

زادت علاقته بالخليفة المعتصم وصنف له العديد من الرسائل، مثل " صناعات القواد "، إذ ذكر في مقدمتها بأنه دخل على أمير المؤمنين المعتصم بالله ووجه إليه نصيحة تعلم أولاده جميع أنواع الأدب والمعرفة، دون التفرد بشيء واحد [1].

وفي عهد الخليفة المعتصم ألف الجاحظ رسالته الموسومة " فضل هاشم على عبد شمس" عام 226هـ، وأهداها له[2]. وعندما جلس المتوكل وهو(ابو الفضل، جعفر بن المعتصم بالله، ت 247هـ/ 861م)[3]، على عرش الخلافة (232–247هـ)، وبعد أشهر من خلافته قتل وزيره ابن الزيات (عام 233هـ / م)، ورفع منزلة ابي دؤاد (وهو القاضي احمد بن فرج بن ابي داوود الايادي (ت 240هـ/ 854م))[4]، وعلى أثر نكبة المتوكل لوزيره ابن الزيات الذي كان الجاحظ مقربا اليه هرب أبو عثمان إلى البصرة لشدة علاقته مع ابن الزيات، فسئل عن سبب هربه، فقال:" خفت أن اكون ثاني اثنين إذ هما في التنور"[5]. وبعد مقتل ابن الزيات، تقرب الجاحظ من القاضي احمد ابي دؤواد الإيادي (ت 240هـ–854م) الذي أعجب به، لكن دون أن يمنحه ثقته بقوله: " لا أثق بدينه، وإنما بطرفه"[6]، علماً بأنه صنف له كتاب " البيان والتبيين"[7]، وبعد وفاة القاضي لازم الجاحظ الوليد وتقرّب منه [8].

وأقام الجاحظ كذلك علاقة مع الفتح بن خاقان (وهو أبو محمد التركي، ت 247هـ/861م)[9] وزير المتوكل، الذي كان يثني عليه عند الخليفة، وطلب منه عام (235هـ)، تصنيف رسالة

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 379.

[2] م. ن، ص 407–464.

[3] الذهبي، سير، ج 12، ص 30.

[4] م. ن، ج 11، ص 169.

[5] الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 76.

[6] البغدادي، تاريخ، ج12، ص 218. ابن عساكر، تاريخ، ج45، ص437–438. الحموي، معجم، ج16، ص 76. ابن شاكر، عيون، ص429–430. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 22.

[7] الحموي، معجم، ج16، ص 106. الذهبي، سير، ج11، ص 529. ابن شاكر، عيون، ص 423. ابن حجر، لسان، ج4، ص 357. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 22.

[8] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 22.

[9] م. ن، ص 82.

"للرد على النصارى"[1]، بقوله ذلك في رسالة إلى الجاحظ " إن أمير المؤمنين يجديك ويهش عن ذكرك ولولا عظمتك في نفسه لعلمك ومعرفتك لحال بينك وبين بعدك عن مجلسه ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه، ولقد كان ألقى الى من هذا عنوانه فزدتك في نفسه زيادة كف بها عن تجشيمك من عرف لي هذه الحال واعتقد هذه المنية على كتاب (الرد على النصارى) وافرغ منه وعجل به إليّ، وكن ممن جدا به على نفسه وتنال مشاهرتك قد استطلقته لما مضى واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة وهذا ما لم تحلم به نفسك وقد قرأت رسالتك في (بصيرة غنام) ولولا إني أزيد في مخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام"[2]. كما قدم كتاب "الزرع والنخل" إلى إبراهيم بن العباس الصولي (ت 243هـ/857م)[3]، وامتاز أيضاً بعلاقة جيدة مع محمد بن ابراهيم، ذاهباً معه الى مدينة السلام، وإلى " سر من راى"، لاهين في الغناء[4].

عاش الجاحظ مترفاً فلم يكن بحاجة لأحد لمساعدته إذ دخل عليه صديقاً، وقال له:" الك بالبصرة ضيعة؟ فتبسم وقال: إنما أنا وجاريةٌ، وجاريةٌ تخدمها وخادِمٌ وحمارٌ، أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسةَ آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين الى ابن أبي دُؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن عباس اصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار"[5].

ويقال أن الجاحظ لشدة تقربه من السلطة ورجال الدولة وإعجابهم به كان يطمح للوصول الى الخلافة، فقد دخل عليه بعض الأدباء سائلاً إياه عن حاله، فقال:" حالي أن الوزير يتكلم برأيي، وينفذ أمري ويواتر الخليفة الصلاة إليَ وآكل من لحم الطير وأسمنها، وألبس من الثياب أفخرها،

---

[1] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 22 –23. الجاحظ، ترجمه، مجلة مجمع العلمي العربي –سوريا، مج9، ع(3، 4)، ص205.

[2] الحموي، معجم الادباء،، ج16، ص 99–100.

[3] الحموي، معجم الادباء، ج16، ص 106. الذهبي، سير، ج11، ص 529. ابن حجر، لسان، ج4، ص 357.

[4] ابن خلكان، وفيات، ج3، ص 471.

[5] الحموي، معجم، ج 16، ص 106.

وأجلس على ألين الطري، وأتكئ على هذا، ثم أصبر حتى يأتني الفرج "، فقال له الرجل:" الفرج ما أنت فيه "، فبيّن له بأنه يسعى للوصول الى درجة الخلافة [1].

ومن الواضح أن الجاحظ قضى معظم عمره بالبصرة موفور الكرامة محبوباً من خلائق الله سيما رؤساء الموالي وأعيان الهاشمية والعثمانية بالعطايا والمنح مقابل ما يصنفه لهم من كتب ورسائل يعتمدون فيها على تشييع ونشر مذاهبهم ومعتقداتهم، ونقض اقوال مخالفيهم، اذ تمتع بمهارة وقدرة في التلاعب بعقولهم [2].

يتضح من مؤلفات الجاحظ ورسائله أن هناك تناقض في ارائه وميوله، فهناك ما يؤكد تقربه من الخلفاء ووزرائهم، وعمق علاقاته بهم، في حين هناك ما أكد انه ليس من مؤيدي الدولة، ففي رسالة " المعاش والمعاد "، التي أرسلها إلى ابن الزيات، قدم له بعض النصائح ودعاه إلى إشاعة العدل بين الناس [3]، وفي الوقت نفسه، وجدت روايات تبين بأنه كباقي أفراد البلاط، وليس من مؤيدي الدولة العباسية، فكتب رسالته " الجد والهزل " معاتبا فيها ابن أبي داؤود، لإبعاده إياه عن مجلسه لحقده وكرهه له، فجاءت تلك الرسالة استعطافاً له، ليكفّ حقده عنه، وإنه من عامة الشعب وليس من الخاصة [4].

ووصف الجاحظ كذلك بأنه كثير الانتقاد في رسائله حيث انتقد في رسالته " النابتة " للخليفة الأموي معاوية بن ابي سفيان، لاتباعه النظام الوراثي في الحكم، وابتعاده عن الشورى، موضحاً بأن خلافته اشتملت على الفسق والضلال، لاختياره الولاة حسب القرابة والهوى وليس على السنن والشرائع الدينية، مؤكداً أحقية علي بن ابي طالب في الخلافة الراشدة، ويبدو أن هذه الرسالة جاءت إرضاءً وتقرباً للعباسيين، الذين لم تخل رسائله من انتقادهم أيضاً[5].

---

[1] البغدادي، تاريخ، ج(12)، ص 219. ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 434. الذهبي، سير، ج(11)، ص 529. انظر ايضا: اليافعي، عبد الكريم، كتاب الحيوان، مجلة التراث العربي، مج(16)، ع(61-64)، ص15.

[2] انظر، الرفاعي، احمد، عصر، ج 1، ص 22

[3] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 97- 115.

[4] م. ن، ج(1)، ص 231 -236 – ج(4)، ص 90-91.

[5] م. ن، ج(1)، ص 5-18.

ومن أهم ما يمكن أن يسجل كإنتقاد للجاحظ لهم اتباعهم للخلفاء والوزراء، وطاعتهم والخوف منهم، وإقصاء العلماء وعدم أخذ النصيحة والمشورة منهم وهم أولى بذلك[1].

ولم يتوان الجاحظ كذلك عن انتقاد السجون وطرق قتل المساجين والأسرى[2]، فوصف الدولة العباسية بأنها دولة عجمية خراسانية، على عكس دولة بني أمية، التي تعود الى أصول عربية قائمة على أجناد الشام، وهذا دليل آخر على تناقض كتاباته وآرائه[3].

وعدا عن ذلك، لعب الجاحظ دوراً كبيراً في كسب تأييد العامة، عندما وجه القضاة إلى التريث في إصدار أحكامهم على المتهمين، لحين تقديم الحجج والسماع من الخصوم، ليكون حكمهم صحيحاً[4].

ويتضح مما سبق أن الجاحظ قد اتصل بالسلطة العباسية الحاكمة في البصرة في مناسبات عدّة، حيث تعمقت علاقته بالسلطة لتبلغ شأناً كبيراَ في خلافة المأمون بخاصة، كما وثق علاقاته برجالات الدولة ولا سيما الوزراء منهم، إذ أهداهم كتبه ورسائله، فأجزلوا له العطايا وأفاضوا عليه الهبات من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اعترى هذه العلاقات بعض المخاوف والهواجس بسبب التصفيات التي جرت في بعض فترات الخلافة، إلا أن تمتع الجاحظ بمواهب معرفيه وفكرية أنقذته من المواقف الحرجة، والتعامل مع الواقع بذكاء وفطنة وحذر.

10. مؤلفاته

يعد الجاحظ واحداً من أمراء البيان العربي، ومن الأدباء الاكثر تأليفاً، لإبداعه في كافة العلوم وفنون الأدب كافة، إذ بلغت مصنفاته بما يزيد عن 360 كتاباً[5]، وقيل 350 كتاباً[6]، وقيل 170

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 292.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 169.

[3] الجاحظ، البيان، ج3، ص 366.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص 150-160.

[5] الجاحظ، تهذيب، ص 4. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 29. الصالح، ابراهيم، الجاحظ، مجلة الوعي الاسلامي، مج1، ع1، ص56.

[6] علي، أمراء البيان، ص 419.

كتاباً[1]، وقيل 128 كتابا[2]، إلى درجة إنها كانت بحاجة الى بعير لحملها[3]، وقد خط كتبه على الورق الصيني، والكاغد الخراساني، واضعاً عليها الجلود لحمايتها من الاخطار والتلف [4]. واستخدم الوراقين لمساعدته في تنظيمها امثال ابي يحيى، زكريا بن يحيى المروزي، وهو من المحدثين، ت 270 هـ/ م)[5]، وعبد الوهاب بن عيسى بن ابي حيه[6]، وكان يسُرّ أن يرى كتبه مرتبة بالرغم من كثرتها وكبر حجمها وثقل وزنها، الذي يثقل الصدر ويوهن العظم، فكان يلقي النظر فيها، وهو مستلقٍ على ظهره، لأن النظر إليها وهو منتصب يتعب البدن[7].

لاقت مصنفاته رواجاً في الأندية العلمية والمحافل الأدبية وفي حلقات الدروس في المساجد والمدارس، لما احتوته من قصص ونوادر وأخبار وشعر وخطابة، ومعارف متنوعه في شتى مجالات الحياة، اذ تناول الأمور الدينية والسياسية والأدب والتاريخ والأخلاق والحيوان والنبات، ووصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية في العصر الذي عاش فيه[8].

اعتاد الجاحظ أن يؤلف الكتاب المحكم والمتقن في الدين والفقه والرسائل والخطاب والخراج والأحكام وسائر فنون الحكمة، إلا أن ذلك لم يمنع أهل العلم والاختصاص من انتقاد مؤلفه والطعن به، حسداً له على براعته وفصاحتة بيانه، مما دعاه إلى ينسب كتبه الى بعض العلماء المشهورين امثال المقفع (ابو محمد عبدالله بن المقفع الفارسي) (ت 759 هـ /)[9]، ويحيى بن خالد البرمكي، وزير هارون الرشيد (ت هـ / 805م)[10]، فكانوا يتسابقون على قراءته ونسخه

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 5. ابن حجر، لسان، ج 5، ص347.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 5. الحموي، معجم، ج 16، ص 106-110.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 252-253.

[4] م. ن، ص 252-253.

[5] الذهبي، سير، ج 12، ص 347.

[6] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 8-9.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 248-249.

[8] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 29. عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج3، ع1، ص 50 -51. المفجر، جمعة، اسلوب، مجلة فكر وابداع، مج94، ص114.

[9] الذهبي، سير، ج 6، ص 208.

[10] سير، ج 9، ص 89.

لأنه نسب الى بعض العلماء المشهورين وللاستفاده منه أيضاً[1]. فبين المسعودي ما صنفه الجاحظ من كتب ورسائل في العديد من المجالات وفنون المعرفة، فقال " كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم فينسبه إلى نفسه فلا يرى الأسماع تصغى إليه ولا الإرادات تيمم نحوه ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ثم ينحله الى عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون"[2].وعلى الرغم من ذلك، فقد تميزت كتابات الجاحظ بأسلوب خاص عرف واشتهر به، فكان ينقل القارئ من الجد إلى الهزل ومن حكمة بليغة إلى حكمة طريفة، حتى يبعد الملل والسآمة عنه، فامتاز أسلوبه بالسهولة والوضوح والنظر الثاقب[3].

ويجمع المؤرخون بأن هدف الجاحظ من التصنيف، هو الجمع والرواية والحفاظ على كل ما يتعلق بعصره من عادات وتقاليد ومبادئ، خوفاً عليها من الاندثار أوالتلاشي، لذلك امتاز أسلوبه بأنه فضفاض مترادف يستطيع القارئ جلاء ما هو غامض، وتقريب ما هو بعيد، إذ مزج معرفته مع بعضها البعض، فنظمها ليستخرج منها ما يوافق إرادته، متجها نحو طريقة تجذب القراء إلى المطالعة، كما استخدم طريقة الإزدواج في الكتابة، فكان يتبع القرين بقرينه، والشيء بمثله، فأعطاه ذلك، نوعا من النغم والجزالة[4].

ظهرت براعة الجاحظ وفنونه وإبداعاته في الكتابة من خلال دقة التصوير الحسي والنفسي، وبخاصة في كتاباته الاجتماعية وتحديداً في وصف طبقات المجتمع وعناصر السكان وخصالهم، وكانت ألفاظه دقيقة وواضحة، بعيدة عن الخشونة والغرابة[5]. الا أنه استخدم ألفاظ دخيلة في مصنفاته، مأخوذة من المعربات الفارسية، وذلك لقرب إيران من العراق[6]. وقد استطاع بأسلوبه، جمع قلوب القراء إليه، بجميع ميولاتهم[7]. واعتمد في توثيق كلامه بأدلة من مصادر عدة،

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 350-351.

[2] المسعودي، تنبيه، ج 1، ص 30.

[3] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 29. عبد الستار، سلام، الجاحظ، صحيفة دار العلوم، مج3، ع1، ص 50 -51. المفجر، جمعة، اسلوب، مجلة فكر وابداع، مج94، ص114.

[4] الجاحظ، تهذيب، ص 5. انظر ايضا: المفجر، جمعة، اسلوب، مجلة فكر وابداع، مج94، ص116

[5] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 29.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 11.

[7] الجاحظ، تهذيب، ص 6 -7.

كالقرآن الكريم والاحاديث النبوية وأبيات من الشعر العربي، بالإضافة الى أقوال الخطباء والعلماء والكتاب[1].

ومن أبرز مؤلفاته كتاب الحيوان، وهو من أهم كتبه وأكبرها حجماً، جمع فيه فنون العلم والادب، متناولاً شرحاً تفصيلياً لأنواع الحيوان وطرق حياته، معتمداً في ذلك على القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وكتب أرسطو وجالينوس وإقليدس والأساطير الفارسية، والأهم من ذلك اعتماده على أسلوب التجربة والمشاهدة، حتى أصبح هذا المصنف موسوعة عجيبة في علم الحيوان وصفاته [2].

وصنف الجاحظ كتابه في أواخر أيامه وهو يعاني من آلام المرض، ليهديه للوزير ابن الزيات الذي أعطاه مقابل ذلك خمسة آلاف دينار، وبين الحالات التي تمنع من بلوغ الإرادة فيه وترتيبه وكان أولها العلة الشديدة وقلة الأعوان وطول الكتاب وصعوبة ألفاظه وتطرقه إلى الشعر والأمثال وتقديم الحجج لإثبات أقواله، لذلك احتوى على سبعة أجزاء، كما أطلق على كل جزء من أجزائه إسم مصحف[3].

وقدم الجاحظ في كتابه الحيوان صورة واسعة عن ثقافة العصر العباسي، إذ احتوى على معارف طبيعية ومسائل فلسفيه، متحدثاً عن سياسة الأقوام والأفراد والطوائف الدينية، وخصائص البلدان والجغرافيا، والأجناس البشرية، والقضايا التاريخية [4]، والأمراض التي تصيب الإنسان والحيوان وطرق علاجها[5]، ثم تطرق إلى الحديث عن فلسفة الخلق وقدرة الله وحكمته في خلق مخلوقاته، وبهذا فقد ضم الكتاب موضوعات شتى وأخبار ممتعه وفوائد قيّمة تمثل معظم المعارف الإسلامية[6].حتى أن كتاب الحيوان من أحسن تصانيفه وامتعها حيث جمع فيه كل غريبة[7]، وقيل

---

[1] انظر: اليافعي، عبد الكريم، الجاحظ، مجلة التراث العربي، مج16، ع(61-64)، ص17. المفجر، جمعه، اسلوب، مجلة فكر وابداع، ج94، ص117 -128.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج7، ص 5. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 33.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 14- 17.

[4] الجاحظ ن الحيوان، ج7، ص 5-6. انظر: السعدي، عيسى، الجاحظ، ص 33.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 118. ج1، ص 18. انظر: السعدي، عيسى، الجاحظ، ص 33.

[6] الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 118 -ج1، ص 18. انظر: السعدي، عيسى، الجاحظ، ص 33.

[7] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 471. اليافعي، مرآة، ج 2، ص 162.

كان بارعاً فاضلاً أتقن علوماً كثيرة وصنف كتباً جمة تدلّ على قوة ذهنية وجودة تصرفه ولكن أجلها كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين لما احتواه كل منهما على علوم ومعارف متنوعة [1].

وكتاب " البيان والتبيين "،، الذي جاء بعد كتاب الحيوان، وقدمه للقاضي احمد بن ابـــي داؤود، مقابل خمسة الاف دينار، الذي أظهر فيه تفوق العرب على جميع عناصر المجتمع فاحتوى على خطب وأشعار عربية رائعة متناولاً فيه كلام النساك والقصاص، ونماذج من الوصايا والرسائل والقواعد البلاغية مميزاً بين لهجات الناس من البدو والحضر، وما يتعرضون له من لثغات في بعض الحروف، متطرقاً إلى عاداتهم في إكرام الضيف وصفاتهم البعيدة عن المكر والخداع[2].

ويعتبر هذا الكتاب البيان أيضاً من أفضل كتب البلاغة إذ وصف بأنه أكبرها وأشهرها ويحتوي الكثير من الفوائد والمنافع والخطب الرائعة والأخبار البارعة وما حواه مـــن أســـماء الخطبـــاء والبلغاء، وما تميزوا به من فن في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، وبث فيـــه حدود البلاغة وأقسام من البيان والفصاحة، وجدت بين الأمثلة، ولا توجد إلا بالتأمـــل الطويـــل والتصفح الكثير[3]، كما لمس الجاحظ أثر الثقافات خلال تصنيفه كتاب البيان، فتناول البلاغة كما يفهمها الفارسي واليوناني والرومي والهندي ليقارن بين الخطابة عندهم وعند العرب[4]، ووصف المسعودي كتاب البيان بقوله:"وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين"[5]، على الرغم من انتقاد الكتّاب والباحثين لكتاب الجاحظ هذا لعدم تقيّده بنظام محكم، وبطريقة معينة، للسير عليها، فكان يبدأ كلامه بقضية معينه ثم يتركها ليبدأ بالكلام بقضية اخرى، فشعر بذلك، فقال:" كان الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكن أخذناه لبعض التدبير"[6].

وظهرت براعة الجاحظ في تصنيف كتاب " العثمانية "، الذي يعتبر من جملة كتب الإمامة التي وضعها في هذه الفترة، لتقدم للخليفة العباسي عبد الله المأمون الذي كان يمتاز بنزعـــة علويـــه

---

[1] ابن الكثير، البداية، ج 11، ص 19 90.

[2] الجاحظ، البيان، ج1، ص 10-17. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 40-47.

[3] الجاحظ، البيان، ج 1، (المقدمة).

[4] انظر: غريب، جورج، الجاحظ، ص 97.

[5] المسعودي، شذرات، ج 2، ص 122.

[6] الجاحظ، البيان، ج1، ص 6. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 48-49.

معروفة، إذ تحدث فيه عن الفرق الإسلامية، وحجج الخصومة بينهم وبين العلـــويين، والفـــراغ السياسي بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأهم التطورات التـــي شـــهدها العصـــران الراشدي والأموي، ودور القبائل في إدارة شؤون الحكم آنذاك[1].

ومن كتب الجاحظ الشهيرة كتاب "البخلاء" الذي صنفّه في أواخر حياته، وصـــور فيـــه الحيـــاة الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره، فجعل القارئ يدرك بأن الحياة لم تكن بسيطة كما كانت في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، إذ تركزّ هدف البخلاء الأول على جمع المال، الـــذي كان سبباً في بخلهم، لحرصهم على تكديسها، معتبرين وارثيهم أعداء لهم، كما احتوى الكتـــاب على حجج طريفة وحيل لطيفة، فيها نوع من الجد والهزل، والعديد مـــن النـــوادر والقصـــص الطريفة التي تخص البخلاء، موضحاً ميولهم وأهوائهم وفلسفتهم عن طريق التحـــدث معهـــم، والتعمق في أفكارهم، فصورهم تصويراً واقعياً حسياً فكاهياً، تناول حركاتهم ونظراتهم وكشـــف أسرارهم من خلال أحاديثهم[2].

ويبين الجاحظ في كتابه أخلاق الفئة البخيلة من الناس وطرقهم وأساليبهم في الحرص والجشـــع والاقتصاد، وذلك عن طريق سرد القصص والنوادر الطريفة، وتندرج غايته الكبرى مـــن وراء ذلك فتح ميدان النقد الاجتماعي والأخلاقي والتحليل النفسي للبخلاء، حيث قال عنه:" تبين حجة طريفة أو تعرف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه اذا شئت، وفي لهو إذا مللت الجد"[3].

يُعتبر الجاحظ أول من أسس قواعد علم البخل وأصوله، واعتبره غريزة مـــن غرائـــز الـــنفس الإنسانية، لذا جاء كتابه كدراسة اجتماعية نفسيه قدمها بشكل فكاهي ســـاخر مـــدعماً بقصـــص وأمثلة رائعة[4]، وقدمها من خلال تصوير الواقع المتمثل في أبناء عصره ونواحي حياتهم، دارجاً

---

[1] الجاحظ، العثمانية، ص 10. انظر ايضا: الحاجري، طه، الجاحظ، ص 187. جبر، جميـــل، الجـــاحظ، ص 56-57. الفهري، عبد الحميد، الجاحظ، مجلة وقائع ندوة – تونس، ص 214-216.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص 17 -27. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 34-38.

[3] انظر: عريب، جورج، الجاحظ، ص 76.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 4-5 -13-14. انظر: غريب، جورج، الجاحظ، ص 79 -80.

أسماءهم وأقوالهم وقصصهم وصفاتهم[1]. كما يعتبر الكتاب دراسة تربوية اقتصادية لهذا الصنف من الناس، فضلاً عن أنه موسوعة أدبية جغرافية تاريخية.

وفي مجال السياسة وضع الجاحظ كتاباً تحت عنوان " التاج في أخلاق الملوك " الذي ضمّ فيه طائفة كبيرة من أنظمة الدولة العباسية، فهو مرآة لأفعال الخلفاء في حفلاتهم الرسمية وحشودهم العامة، وأفعالهم في مسارح اللهو والغناء، وقدم فيه تفاصيل لباسهم وعطورهم، وجانب من حياتهم اليومية[2].

وتطرق الجاحظ الى وصف الحياة الاقتصادية في الدولة العباسية في إثناء حياته، من خلال تصنيفه رسالة في "مدح التجار، وذم خدمة السلطان"[3]. وتصنيف كتاب " التبصر في التجارة "، الذي تحدث فيه عن أرباب التجارة والسلع وأنواعها والصادرات منها والوارد وطرق الكشف عنها، ويعتبر كتابه أساساً لمؤلفات الإصطخري (أبو القاسم، ابراهيم محمد الكرخي، ت ه/957م)، والمقدسي (أبو عبد الله، محمد بن احمد بن أبي بكر ت 380هـ/ 990م)، الذين شهدوا بأسبقيته في هذا المجال[4].

وقام بتقسيم كتابه هذا إلى أبواب، تناول في الباب الأول ىراء المتقدمين في الحث على الكسب والتجارة، ثم انتقل فيالأبواب الأخرى إلى أنواع الذهب والفضة وطرق امتحانها، وبين أنواع الجواهر النفيسة وقيمة كل منها، ثم أنواع الطيب والعطر، والثياب وما يجلب من البلدان من السلع، ثم تحدث عن القواعد التي تفيد التجار في تجارتهم[5].

وألف أيضاً كتاباً في الأمراض الجسدية تحت عنوان " البرصان والعميان والحولان والعرجان "، وقيل له اسم آخر " الوكلاء والصوالحة "، ذكر فيه العاهات والعلل الموجودة في المجتمع آنذاك، وما أصيب بها من أشراف القوم[6].

---

[1] انظر: غريب، جورج، الجاحظ، ص 79- 81.

[2] الجاحظ، التاج، ص 10-20.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 254.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 9- 10.

[5] الجاحظ، التبصر، ص 11. انظر:العزي، فيصل، الجاحظ، 41

[6] الجاحظ، البرصان، ص (المقدمة).

واهتم الجاحظ كذلك بالموضوعات التربوية، فوضع كتاباً تحت عنوان " تهذيب الأخلاق " تحدث فيه عن سبل التربية وضروب التعلم والإرشاد والأخلاق الجيدة التي يجب على الانسان التحلي بها [1]. وتعد رسالته " المعاش والمعاد " من الرسائل التربوية الذي تحدث فيها عن الاخلاق المذمومة والمحمودة بين الناس، وما يؤنس قلوبهم ويوحشها [2].

وأشار الجاحظ في رسائله الى الكتب المترجمة من لغات فارسية ويونانية ورومانية في عصره إلى اللغة العربية، وما في أيدي الناس من كتب الحساب والطب والمنطق والفلاحة والتجارة والأطعمة والآلات، وكل ما اشتهر من صناعة وتجارة[3]، ومن رسائله التي أهداها إلى الخلفاء والوزراء رسالة " مناقب الترك " التي جاء فيها صفات الترك والعرب والمقارنة بينهما من خلال قدرة كل منهم على القتال والمواجهة وطرقهم المستخدمة في حالات الحرب لخداع العدو[4]، واحتوت رسالته الموسومة " نفي التشبيه " على نصائح موجهة الى القاضي ابن أبي داوود، يدعوه فيها الى التجمع وعدم التفرق، لما فيه من ضرر على العامة[5].

وفي رسالته " الفتيا "، يشير الجاحظ إلى انتقاد الرعية لكِثرة خوفهم من السلطان أكثر من القرآن، وذلك لما أعطاه الله من هيبة ورفعة في أعلى المراتب[6]، بينما جاءت رسالته " فضل الوعد، وأخلاق الوزراء " لوصف ما يتعرض له العلماء من حسد وكره من الناس، لما وصلوا إليه من معرفة، إذ اعتبر نفسه أول من تعرَّض لذلك عندما قام شخص بإنتحال شخصيته، ليصنع كتب مشابهة له، وهناك من طعن فيها، لاسقاط جودتها وفائدتها[7]، مدعماً رأيه برسالة أخرى أطلق عليها اسم " فضل بين العداوة والحسد "، " والحاسد والمحسود"[8].

---

[1] الجاحظ، تهذيب، ص 9-11.

[2] م. ن، ج(4)، ص 79.

[3] انظر: غريب، جورج، الجاحظ، ص 216- 217.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 163.

[5] م. ن، ج(1)، ص 281.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 311. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[7] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 337 -341.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 335. ج(3)، ص3. الحموي، ياقوت، معجم، ج15، ص106-110

و تعتبر رسالة " صناعة القواد " التي قدمها الى الخليفة المعتصم بالله، من أجود الرسائل التي تحثهم على تعليم أبنائهم ضروب العلم وأنواع الأدب وطرق التعليم[1]، كما اتبعها برسالة أخرى في " ذم ومدح الكتاب "، حيث وصف فيها أفعالهم وأعمالهم وفضلهم ولؤمهم وغيرها من الصفات والمزايا [2].

ومن رسائله أيضا " النابتة " وهم الطوائف المبتدعة التي نشأت في صدر الإسلام، فأعاد أصلهم إلى الموالي، كما احتوت الرسالة على انتقاد معاوية لتحويله نظام الخلافة[3]، وله رسالة في " الرد على المشبهة"[4]، والعثمانية التي بين فيها الاحداث التي دارت في معركتي الجمل والنهروان[5]، ورسالته في "المسائل والجوابات في المعرفة"[6]، وكتب أيضاً في " إدراك الحواس"[7]، وفي "حجج النبوة"[8]، "والرد على النصارى" وغيرهما [9].

وإلى جانب هذه الرسائل، وجد للجاحظ رسائل أخرى خاصة مثل "الحنين الى الاوطان" يبين فيها شدة حب الأتراك لأرضهم، لأنهم شاربون من مائها، ومجبولين في تربة بلادهم[10]، ومن رسائله أيضا، " الجواري ومفاخرة الجواري والغلمان"[11]، ورسالة "القيان"[12]، ورسالة "البغال"، التي كتبها لعناية الأشراف بالبغال وأساليب تربيتها والتعامل معها [13].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 377. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص107

[2] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 187-188.

[3] م. ن، ص 5-20.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 5. الحموي، ياقون، المعجم، ج15، ص 106-110

[5] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 20-35. الحموي، ياقون، المعجم، ج15، ص 106-110

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 47.

[7] م. ن، ج(4)، ص 50-51.

[8] م. ن، ج(3)، ص 224.

[9] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 303. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 100.

[10] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 380.

[11] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 89. ابن النديم، الفهرست، ص 294.

[12] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 144.

[13] م. ن، ص 215-216.

ومن الرسائل الأخرى التي تنسب إلى الجاحظ رسالة " التربيع والتدوير "التي وصف فيها الطول والقصر، وما يذم ويمدح فيهما[1]، ورسالته في "مدح النبيذ وصفة أصحابه"[2]، "وفي النساء " التي احتوت على الفروقات بين الرجل والمرأة[3]، ورسالة في وصف " المعلمين"[4]، وفضل البطن على الظهر[5]، وفي "النبل والتنبل وذم الكبر"[6]، وفي "المـــودة والخلطـــة"[7]، "واســـتحقاق الإمامـــة"[8]، "واستنجاز الوعد"[9]، " وتفضيل النطق على الصمت"[10]، "وصناعة الكـــلام"[11]، "والجوابـــات "[12]، "ومقالة الزيدية والرافضة"[13]، "والشارب والمشروب"[14]، و"الجـــد والهـــزل"[15]، "والـــوكلاء"[16]، "والبلاغة والإيجاز"[17].

ونستطيع القول بأن الجاحظ يعتبر نموذجاً فذاً في دنيا العلم والأدب العربي لغرازة علمه وتشعب ميادينه وتعدد مؤلفاته حتى وصفه الرواة والمؤرخون بأنه " صاحب التصانيف في كل فـــن"[18]، وهو آخر المتكلمين وأحسنهم حجة واستشارة وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيض، ونجده أحياناً مع العثمانية وأحياناً أخرى مع الزيدية ضد أهل السنه والعثمانية[19].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 59. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 104.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 113. ابن النديم، الفهرست، ص 295.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 139. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 106.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 27. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[5] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 160.

[6] م. ن، ص 173.

[7] م. ن، ص201.

[8] م. ن، ص 207.

[9] م. ن، ص 222.

[10] م. ن، ص 229.

[11] م. ن، ص245.

[12] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 285. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[13] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص311. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[14] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 261. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[15] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 83. الحموي، معجم الادباء، ج 16، ص 107

[16] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص100

[17] م. ن، ص 151.

[18] ابن النديم، الفهرست، ص 291.

[19] ابن قتيبه، تأويل، ص 59-60.

تلاحظ الباحثة أن مؤلفات الجاحظ تجمع بين العلم والفائدة والبراعة في التعبير، وسحر البيان والبلاغة في الأسلوب، كما يجد القارئ فيها المتعة والتشويق ؛ لما يحتويه من نوادر وسخريه، كما يلاحظ الناظر لمؤلفاته كيف تظهر شخصيته في كتاباته، والتنوع في الموضوعات المطروحة والاستطراد فيها، إذ يدل ذلك على غزارة علمه وفكره وتمرّنه على الجدل، فقد أبدع في دقة التصوير ووصف الواقع والحديث عنه، ويمتاز أسلوبه في كثير من الأحيان بالسخرية والنظرة الثاقبة والخيال الخصب، والخلط بين الجد والهزل.

وبالرغم من ذلك تعتبر مؤلفاته ثروة لغوية وثقافية حفظت الكثير من أدب العرب، وسار على نهجه الأدباء والمؤلفون، وهو ما أعطى المكتبة العربية ثقافة متنوعة لا حصر لها، فأمدّها بالخبرات والتجارب وجعلها تزخر بكلّ فريد، بالإضافة إلى أسلوبه المميّز في الكتابة مما جعله يستحق مكانة مرموقة متميّزة ثاقبة في تاريخ الثقافة العربية والفكر العربي.

11. وفاته

لقد قُدّر للجاحظ أن يعيش طويلاً، وأن يسجل عبر حياته العديد من التجارب، التي أغنت علمه ومعرفته بالرغم من المرض الذي أصيب به، فقد توفي سنة (250هـ/ 864 م) [1]، وقيل في عام (255هـ/ 869 م)[2]، عن عمر يناهز الثمانين عاما[3]، وقيل التسعين عاما[4]، وقيل ستة وتسعون عاما[5]، وقيل المائة[6]، بعد ان سقطت عليه مجلدات كتبه ومؤلفاته[7].

---

[1] الذهبي، سير، ج(11)، ص 527 – العبر، ج(1)، ص 358.

[2] ابن النديم، الفهرست، ص 291. البغدادي، تاريخ، ج(12)، ص 219. ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 435. الحموي، معجم، ج(8)، ص 74. ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 474. الذهبي، سير، ج(11)، ص 527. اليافعي، مراة، ج(2)، ص 162. السيوطي، بغية، ص 365. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 121.
انظر ايضا: البغدادي، اسماعيل، هدية، مج(1)، ص 802.

[3] ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 442. الحموي، معجم، (8)، ص 104.

[4] ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 443. الحموي، معجم، ج(8)، ص 104. ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 474. الذهبي، العبر، ج(1)، ص 358. السيوطي، بغية، ص 365. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 121.

[5] اليافعي، مراة، ج(2)، ص 164. ابن كثير، البداية، ج(11)، ص 20.

[6] ابن شاكر، عيون، ص 435. انظر ايضا:ضيف، شوقي، العصر، ص 587.

[7] ابن الوردي، تتمته، ج(1)، ص 350. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 122.

وذكر أن سبب مرضه كان لتناوله السمك واللبن على مائدة أحد الكتاب، ففلج في ليلته، وقد أقعده المرض عن الحركة أكثر من سبع سنين[1]، لكن لم يقعده عن الكتابة، فظل حاضر الذهن، قوي الذاكرة[2]، فكان نصفه مفلوجاً، ونصفه الآخر منقرص[3]، فامتنع عن رؤية أحد، لشدة مرضه، إذ بعث ورائه المتوكل، فقال:" ما يصنع بشق مائل، ولعاب سائل، ولون مائل"[4].

كان يطلي نصفة الأيمن بالصندل والكافور لشدة حرارته، والنصف الاخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به، فشكى ألمه للطبيب بقوله: "إن اكلت بارداً أخذ برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسي"[5].

وقيل بأنه أنشد في آخر حياته: [6]

أترجو أن تكون وأنت شيخ كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

وقيل وصل نعيه للمعتز بالله، فقيل فيه الشعر:[7].

في العلم للعلماء أن يتفهموه مواعظ

وإذا نسيت وقد جمعت علا عليك الحافظ

ولقد رأيت الظرف دهراً ما حواه اللافظ

حتى أقام طريقه عمرو بن بحر الجاحظ

---

[1] انظر: المفجر، جمعة، اسلوب، مجلة فكر وابداع، ج(94)، ص 113.

[2] انظر: المفجر، جمعة، اسلوب، مجلة فكر وابداع، ج(94)، ص 113.

[3] ابن النديم، الفهرست، ص 291. البغدادي، تاريخ، ج12، ص 219. ابن عساكر، تاريخ، ج(45)، ص 443. ابن الجوزي، المنتظم، (12)، ص 95. ابن خلكان، وفيات ج3، ص 473. ابن شاكر، عيون، ص 432. اليافعي، مراة، ج(2)، ص 164. ابن العماد، شذرات، ج(2)، ص 122.

[4] الحموي، معجم، ج(8)، ص 104. ابن خلكان، وفيات، ج(3)، ص 474. انظر ايضا: المفجر، جمعه، اسلوب، مجلة فكر وابداع، ج(94)، ص 113.

[5] الحموي، معجم، ج 15، ص 113-114. اليافعي، مراة، ج2، 164.

[6] ابن الجوزي، المنتظم، ج(12)، ص95. ابن خلكان ن، وفيات، ج(3)، ص473. ابن الوردي، تتمه، ج(1)، ص 350. اليافعي، مراة، ج(2)، ص164. انظر ايضا: جبر، جميل، الجاحظ، ص 24. الزركلي، خير الدين، الاعلام، ج(5)، ص74.

[7] الحموي، معجم، ص 114.

ثـــــم انقضـــــى أمـــــدٌ بـــــه وهـــــو الـــــرئيس الفـــــائِظ

اشتهر الجاحظ وذاع صيته في العالم الإسلامي، بالرغم من مرضه وصعوبة حالته، وقدموا اليه الناس لرؤيته والسماع منه، فلا يمر أديب ولا عالم إلا وطلب رؤيته، ويمكن القول بأن الجاحظ قد نشأ وسط الكتب ومات وسطها وهو يحاول أن يتناول كتاباً، فسقطت مجلدات ضخمة وثقيلة عليه، أودت بحياته بعد أن وهب حياته وروحه للعلم والأدب ورفع مكانة اللغة العربية، فكان عميداً من أعمدتها وثروة من ثرواتها.

الفصل الثاني

طبقات المجتمع وطوائفه
من خلال مؤلفات الجاحظ

الفصل الثاني

طبقات المجتمع وطوائفه من خلال مؤلفات الجاحظ

أ. طبقات المجتمع

لم يدرس الجاحظ المجتمع دراسة العالم الذي يتوخى تقرير النتائج من وراء الملاحظة والدرس والتحليل، ولكنه في دراساته المختلفة لأحوال المجتمع المعاصر أدى خدمة كبرى لعلم الاجتماع الذي وضع أُسسه المؤرخ ابن خلدون فيما بعد.[1]

فقط احتل العالم العربي مكانة مهمة في الدراسات الحديثة العربية والأجنبية على الرغم من أنه ليس الوحيد الذي يتطرق نتاجه إلى مفردات علم الاجتماع، فقد لوحظ ورود ملامح عديدة تخص هذا العلم في ارث الجاحظ ابن البصرة الذي عرف عنه غزارته وتنوع مادته وشموليتها فإذا كان قد تناول الادب والتاريخ والفلسفة والفكر فإنه في الوقت نفسه لم يبخس المجتمع وعلاقته وما يحيط به من مؤثرات حقة من الدراسة والبحث متخذاً من اللحمة الاجتماعية الهجينة في العصر العباسي مادة لتلك الدراسة والبحث واذ يغلب التوثيق كنتيجة على ما كتبه الجاحظ في هذا المجال فإنه لم يخل من إشارات إلى حيثيات العناصر المكونة لهذه النتيجة[2].

استخدم الجاحظ التحليل التشخيصي في تحليل الأحداث الاجتماعية أي أنه وصفها الاحداث بشكل دقيق، موضحاً سبب وجودها ورابطاً ذلك بالبيئة الاجتماعية العربية دون تركها سائبة بلا تعليل أو تفسير، الذي شكل إرهاصا أولياً في التحليل الاجتماعي لم يستخدمه أحد من بعده من أجل تطويره ومساعدة الباحثين في دراسة الواقع العربي[3].

وتطرق الجاحظ إلى بعض الأمور المسلم بها في علم الاجتماع ومنها أن الإنسان اجتماعي بالطبع وأنه كائن إنساني بالدرجة الأولى لا يمكن فصله عن المجتمع في أي حال من الأحوال لأنه في عزلته يفقد معنى وجوده ويفقد أثره في تأمين استمرار النسل البشري وفي الدفاع عن

---

[1] أنظر: رزيج، فهمية، دور البصرة، ص 270.

[2] انظر: م، ن، ص 238.

[3] انظر: عمر، معن، اصالة، مجلة المناهل، ع 17، ص 172.

حياته وصيانتها هذا من الناحية المادية الصرفة، أما من الناحية الذهنيـــة والروحيـــة فالإنســـان مفطور على التجاوب مع الغير وعلى الانفتاح وتبادل الرأي[1].

ويعتبر الجاحظ من أكثر الكتاب اهتماماً بالطبقات والفئات الاجتماعية المختلفـــة ويعـــود هـــذا الاهتمام إلى تلك الفكرة الفلسفية الاجتماعية التي آمن بها والقائلة بأن المجتمع الإنساني كالعـــالم الكبير مكون من أجزاء متنوعة متباينة ومتناقضة لكل منها حتى ولو صغر وحقـــرت أهميتـــه ودوره الذي لا يعوض في استمرارية قيام وتواجد هذا الكل فمن ينظر في العالم وأجزائه يجد أن الله (سبحانه وتعالى): " جعل في الجميع تمام المصلحة وباجتماعها تتم النعمة وفي بطلان واحد منها بطلان الجميع "[2].

يقول الجاحظ أنّ الاجتماع الإنساني ضروري بالرغم من الأجناس المتفاوته والمتفرقـــة، فلكـــل طائفة هدف تسد عنه كثيراً، فقال:" وأعلم أنك ستصحب من الناس أجناســـاً متفرقـــة حـــالاتهم متفاوتة منازلهم وكلهم بك إليه حاجة وكل طائفة تسد عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ولعلهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك، فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ومنهم مـــن تريده للحفظ والأمانة ومنهم من تريده للشدة والغلظة ومنهم من تريده للمهنة وكل يسد مسده على حياله"[3].

وإلى ذلك استخدم الجاحظ مفهوم الحاجة إلى الاجتماع التي وصفها بأنها متأصلة في طبع الناس وخلقهم التي تقدم وظيفة المحافظة على وجودهم، وهو ما ذكـــره ابـــن خلـــدون فـــي مقدمتـــه بقوله(الإنسان مدني بالطبع)؛ أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهـــو معنى العمران وبيانه إن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدّرة الواحـــد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه، ولو فرضنا

---

[1] انظر: جبر، جميل، الجاحظ، ص 84

[2] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 13

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 117-118.

منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري حب قبل أن يأكله حباً من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة وصنائع كتيرة أكثر من الأولى بكثير ويستحيل إن توفي بذلك كله أو نيعضه قدره الواحد فلابد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لإكثر منهم بأضعاف"[1].

تطرق الجاحظ الى بعض الأمور المسلم بها، التي لا غنى عنها في المجتمع، ومنها الإنسان الذي يشكل العنصر الاساس، وبعزلته نهاية للوجود، فهو مفطور على التجارب مع الغير وعلى الانفتاح وتبادل الرأي، لذلك اتخذ من المجتمع مادة لمؤلفاته، فرصد بشكل دقيق حركته الشاملة وساعده التحول السكاني في مدينه بغداد لتقديم وصفاً وتحليلاً ونقداً كاملاً لفئات المجتمع، مادحاً بعضهم ومستهزءاً من البعض الاخر، معتمداً في تقسيمه على عوامل المال والثروة والمهن[2]، وساعده في ذلك أيضاً ما آمن به من فكر فلسفي بأن المجتمع الإنساني هو كالعالم الكبير المكون من أجزاء متنوعه ومتناقضة، لكل منها دور يقوم به[3].

وبين الجاحظ في كتاباته حاجة الناس لبعضهم البعض وحاجتهم إلى الاجتماع، بالرغم من الأجناس المتفرقة وحالاتهم المتفاوتة، فكل منهم يسد الكثير من المنافع، فمنهم لأخذ الرأي والمشورة، والبعض للحفظ والأمانة، وآخرون للحكمة، وهناك للشدة والغلظة، ومنهم للمهنة، وقد قيل " إن الخلال تنفع حيث لا ينفع السيف"[4]، وقيل أيضاً:" إن حاجة الناس بعضهم الى بعض صفة لازمة في طبائعهم وخلقهم قائمة في جواهرهم وثابتة لا تزايلهم ومحيطة بما عنهم ومتمثلة

---

[1] ابن خلدون، مقدمة، ج 1، ص 41-43.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص 334. انظر أيضاً: سعد، فهمي، العامة، ص 59. جبر، جميل، الجاحظ، ص 84.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 157.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 117-118.

على أدناهم وأقصاهم وحاجاتهم إلى من غاب عنهم مما يعيشهم ويحييهم ويمسك بأرحامهم ويصلح بالهم ويجمع شملهم وإلى التعاون في درك ذلك، والتزاور على ما يحتاجون من الاتفاق بأمورهم التي لم تغب عنهم، فحاجة الأقصى واحتياج الأقصى الى معرفة الأدنى معان متضمنة وأسباب متصلة وحبال منعقدة"[1].

والحاجة الى التعاون دفعت الأفراد والقبائل الى الاجتماع، واذا كان الجاحظ لم يفصل الكلام في هذا التعاون فإن ما يفهم من كلامه هو الحاجة الى الأمن لدفاع الأفراد عن أنفسهم وممتلكاتهم وهو من الضروريات لاستمرار الحياة وبقاء النوع الانساني[2].

ومن الأمور الأخرى التي درسها الجاحظ رابطة الأرحام والأنساب كعنصر أساس في تضامن وتكاتف أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، إذ يكون التعاون والتناصر أشد وأقوى عند أصحاب النسب الواحد، كما لا يجوز إغفال وجود صفة التعاون بين القبائل التي ترتبط بالطابع البيئي، فيقول في ذلك:" على أن التوازر والتسالم في القرابات وفي بني الأعمام والعشائر أفشى وأعم من البعداء ولخوف بعض القبائل في البوادي الى بعض ينزلون معاً ويضعون معاً ومن فارق أصحابه أقل ومن نصر ابن عمه أكثر ومن اغتبط بنعمته وتمنى بقاءها والزيادة فيها اكثر ممن بغاها الغوائل وطلب انقطاعها وزوالها ولا بد قليل من كثير"[3].

ويذكر هنا إلى أن ابن خلدون رآى أن العصبية إنما تكون من الإلتحام بالنسب وذلك أن صلة الرحم طبيعي في البشر إلا في الأقل ومن صلتها النعرة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك: نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل له الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء فربما تنتهي بعضها

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 60

[2] انظر: شقرون، محمد، اراء الجاحظ، مجلة حوليات، ع 33، ص 224.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 34 – 35.

ويبقى منها شهرة، ومن هذا الاعتبار معنى قولهم: النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضرّ بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن النفس وانتفعت النعرة التي تحمل عليها العصبية فلا منفعة فيه[1].

بين الجاحظ أن تماسك المجتمع وتطوره يعزى إلى التضامن بين أعضائه لتأمين الاستقرار الضروري، ثم بالسلطة التي توجهه كالرأس وسائر الأعضاء ثم الدين كنظام أخلاقي ينمي الفضائل في مختلف طبقات الشعب[2]، هذا الاجتماع الذي ينتج عنه التعاون والتناصر الذي هو ضروري، ينتج عنه من جانب آخر نوع من التضاد بين الأفراد والمجموعات وهذا التضاد يفرضه تضارب المصالح وهو كذا كنتيجة ضرورية للاجتماع يقول الجاحظ فلم يبقى إلا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي المجاورة والامر طبيعي كما قلنا اذ " ليس يجوز أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه حتى يموت جميع الخلائق وتستوي لاهلها وتتمهد لسكانها على ما يشتهون ويهوون لأن ذلك من صفة دار الجزاء وليس كذلك صفة دار العمل[3]".

وعلى الرغم من غياب التسلسل في التفكير عند الجاحظ الذي كان ينبغي أن يصل به إلى الحديث عن الوازع كما حدث ذلك عند ابن خلدون، إلا هذا لم يغب عن ذهنه فقد ذكره في مناسبة اخرى هي أبعد ما تكون عن السياسة في كتابة (النساء) قال: (وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم وقليل لهم نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم)[4].

يعتبر الجاحظ عامل الأخلاق من العوامل التي تؤدي إلى تضامن المجتمع وتماسكه، وتزداد الفضائل ويعم الاستقرار بين أفراد المجتمع[5]، إذ يعيد سبب التباغض والحقد والكراهية في

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ص 128 –129

[2] انظر: رزيج، فهمية، دورالبصرة، ص 244.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 34–35.

[4] م. ن، ج 3، ص 149–150.

[5] م. ن، ج 1، ص 34 –35.

المجتمع الى الحسد الذي عرّفه في مؤلفاته بأنه التألم بما يراه الإنسان لغيره من الخير وما يجده فيه من الفضائل والاجتهاد في إعدام ذلك الغير ما هو له[1]، إذ ذكر نوعين للحسد فهناك الحسد الجاهل الذي يكون أهون شوكة، من الحسد العارف الذي يخطط للأذى والطعن، كما ميزّ بين الحاسد والعدو والحسد، فقيل:" الحاسد مجنون لأنه يحسد الحسن والقبيح "، و" الحسد شهاب لا يبالي من أصاب، وعلى من وقع "، و" العداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قرتها، وتبدى صفحتها في أوقات الهِتر"[2].

ويرى الجاحظ في دراساته وكتاباته أن عامل البيئة من العوامل التي تؤثر في التكوين الاجتماعي من ناحية النمط المعيشي وطرق التفكير والسلوك، فالخلافات بين الناس تساعد في وجود تشكيل طبقات داخل المجتمع، فيقول عن العرب " إنهم لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحة "، وأثر ذلك على المظهر والشكل الخارجي بقولة:" أنت ترى ابناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لا تفصل بين من نزل ابوه بفرغانة وبين أهل فرغانة، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشرة والأقضاء العظيمة"[3].

ويوضح الجاحظ كذلك أن تنوع البيئات والاوضاع في المجتمعات أثر على التنوع في التركيب والانفعال وهو بذلك يمهد السبيل امام النظريات الحديثة التي تقول بأن البيئة العنصرية تفرض على الأفراد عقليات وعادات وثقافات خاصة تبدو كأنها انعكاسات البيئة على الضمائر الفردية، ولطالما أعلن الجاحظ أن فوارق المدنية والإمكانات عند مختلف الشعوب إنما تخضع لمواهب غريزية عند كل جنس كما تخضع إلى تركيب وإلى الجو الذي يعيش فيه.

ويبينّ الجاحظ أثر البيئة الطبيعية على الانسان وتكيفّه معها، ويعني بالبيئة الطبيعية هنا الأرض وتربتها وماءها وهواءها وحرارتها وبرودتها وما فيها من نبات والحيوان وتعمل البيئة مع مرور الأيام على تغيير ألوان الناس وصورهم وطبائعهم وأخلاقهم فيقول في هذا الشأن" لا ننكر

---

[1] الجاحظ، تهذيب، ص 34.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 340 -351.

[3] م. ن، ص 63-69.

أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراء وتراها في غير الخضرة على غير ذلك"[1].

اهتم الجاحظ بالزنوج فخصص لهم رسالة في (فضل السود والبيض) وبين فضلهم على البيض وقال في مجال الرد على خصومهم ان الله ما خلقهم سودا لتحقيرهم فما لونهم إلا نتيجة لمناخ بلادهم الحار"[2]. وفي هذه الرسالة لا يفصل الجاحظ بين الوجه الطبيعي والوجه الاجتماعي لهذه الظاهرة بل يربط بينهما ربطا يجعل الوجه الطبيعي سببا في النتائج الاجتماعية التي ترتبت على ذلك[3].

ويبين الجاحظ ما ورد فيما بعد عند ابن خلدون بأن للبيئة الجغرافية والمناخ تاثير كبير على بشرة واخلاق وسلوك الشعوب فالمناخ الحار يؤثرعلى البشرة والطبع ومن ذلك أن أهالي المناطق الحارة تميل الى السواد أو السمرة وتكون أمزجتهم حادة وطبعهم حار، أما أهالي المناطق الباردة فتكون بشرتهم بيضاء وهم هادئي الطبع، بعيدين عن التعصب والأمزجة الحادة[4].

ويقدم الجاحظ مثالاً على تأثير البيئة في سلوك الفرد، وهو شدة تعلّق الترك بأوطانهم والحنين إلى مياههم وتربتهم، بقوله:" وإنّما خصوا بالحنين من بين جميع العجم لأن في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدتهم وتربتهم – لعلها تربتهم، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ما ليس مع أحد سواهم، ونسائهم كرجالهم، ودوابهم تركية مثلهم"[5].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 41-42.

[2] م. ن، ص 219-220.

[3] م. ن، ص 195-225.

[4] ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ص 82-85.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 63.

تطرق الجاحظ الى اختلاف الناس في ألوانهم، مؤكداً بأن البيئة هي السبب الرئيس الذي يصبغ ألوانهم وجلودهم بألوان أخرى، بقوله:" والسواد والبياض انما هما من قبل خلقة البلد وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها، وليس ذلك من قبل مسخ أو عقوبة ولا تقصير"، وأكد بإن الله تعالى لم يجعلهم سودا لتشويه خلقتهم، إلا أن طبيعة البلد هي من فعلت ذلك[1].

ومما يعزز رأي الجاحظ في أثر البيئة ما تناوله ابن خلدون في أثر الهواء على أخلاق البشر فأخلاق السودان على العموم تتميز بالخفة والطيش وهم كثيري الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع موصوفين بالحمق في كل قطر والسبب الصحيح في ذلك انه تقرر في موضعه من الحكمة ان طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضة وتكاثفه وتقرر ان الحرارة مغشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشي من الفرح السرور ما لا يعبر عنه وذلك بما يدخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم الفرح وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى منهم بالغناء الناشئ عن السرور واستولى الحر على امزجتهم وفي اصل تكوينهم كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس الى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أكثر تفشياً فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساط".

ويجيء الطيش على آثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلاً أهل البلاد البحرية لما كان هواؤها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه من أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة كثر من بلاد التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الأقاليم الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها لأنها عريقة في

[1] الجاحظ، الرسائل، ص 219 – 220.

الجنوب عن الأرياف والتلول واعتبر ذلك أيضاً بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريباً منها كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى أنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة ما كلهم من أسواقهم.

و أشار الى بلاد فاس من بلاد المغرب المتوغلة في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين إطراق الحزن وكيف افرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئاً من مدخره وتتبع ذلك في الأقاليم وللبلدان تجد في الأخلاق أثراً من كيفيات الهواء[1].

لم يهمل الجاحظ دور العامل المناخي وتأثيره في تغيير طباع الأفراد فقد قال ولا ننكر نما يفسد الهواء ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني[2].

وتلاحظ الباحثة أن هذا النص أبرز تأثير البيئة المناخية على الإنسان لتوضيح عملية تفاعل الإنسان مع المناخ وكيفية صياغة سلوكه بشكل يعكس نوعه وطبيعته، وعلاوة على ذلك فإنه أوضح انفتاح الإنسان وخضوعه للتأثيرات المناخية في توجيه سلوكه الاجتماعي وتكيفه لها والنقطة التي أثار انتباه اليها هنا هي أن تأثيرات البيئة المناخية تأخذ وقتاً طويلاً في تطبيعهم وهذه الالتفاته جديرة بالاهتمام في عملية التنشئة والتطبيع.

إن التحقيق العلمي للجاحظ أدى إلى اعتبارات قيمة حول تأثير البيئة في الشعوب وفي هذا يستند إلى قول بعضهم إنه إذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت التربة وعمل ذلك في طباع السكان على الأيام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة [3]. ويقل تأثير البيئة الاجتماعية على الإنسان عن البيئة الطبيعية من منشأ وتربية ومهنة وصناعة وعادة وعقيدة

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ج 1، ص 86-87.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 41.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52.

وما إلى ذلك من مؤثرات المجتمع وانظمته وأفكاره وعاداته وتقاليده السائدة فيه، فالأم الجاهلة والمربية الخرقاء تفسدان بسوء تربيتهما ورياضتهما طباع الطفل فيخرج أحمقاً سريع الضجر يقول الجاحظ " فإن الصبي يبكي بكاء شديد متعباً موجعاً فإذا كانت الأم جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار أو نومته بأن تضرب يدها على جنبه ومتى نام الصبي وتلك الفزعة أو اللوعة أو المكروه قائم في جوفه ولم يعلل ببعض ما يلهيه ويضحكه ويسره على فزع أو غيظ أو غم فإن ذلك مما يعمل في الفساد والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء اذا لم تعرف فرق ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وترادف وأعان الثاني الأول والثالث الثاني حتى يخرج الصبي مائقاً "[1]. فغذا نشأ الصبي وقع تحت تأثير أسرته ومحلته والمهنة التي تمهن والجماعة التي يتعاون معها على تحصيل القوت ويشاركها في اسباب المعيشة الأخرى وأبناء المهنة الواحدة يتشابهون في أمور كثيرة وإن اختلفت بلدانهم وأجناسهم وأعمارهم يقول الجاحظ "والعامة والأغنياء والسفلة كأنهم أعذار عام واحد وهم في باطنهم أشد تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما وكذلك في مقادير الإعتراض والتسرع وإن اختلفت الصور والنغم والأسنان والبلدان ألا ترى أنك لا تجد بدا في كل بلدة وفي كل عصر للحاكة فيهم على مقدار واحد السخط والحمق والغباوة والظلم وكذلك النخاسون (من امتهن بيع الجواري) على طبقاتهم من أصناف ما يبيعون وكذلك السماكون والفلاسون وكذلك اصحاب الخلقان (بائعي البالة)، كلهم في كل دهر وفي كل بلد على مثال واحد وعلى جهة واحدة وكل حجام في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ وان اختلفوا في البلدان والأجناس والأسنان"[2].

وللعقيدة الدينية عند الجاحظ أثر عظيم على معتنقيها، فإذا كانت العقيدة تدعوا إلى القتال أصبحوا مقاتلين شجعاناً، وإذا كانت تدعوا إلى المسالمة والموادعة إعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً يقول الجاحظ: " قد علمنا أن الروم قبل التدين بالنصرانية كانت تنتصف من ملوك فارس وكانت الحروب بينهم سجالاً فلما صارت لا تدين بالقتل والقتال والقود والقصاص اعتراهم مثل ما يعتري الجبناء حتى صاروا يتكلفون القتال تكلفاً ولما خامرت

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 205

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 51-52.

طبائعهم تلك الديانة وسرت في دمائهم ولحومهم فصارت تلك الديانة تعترض عليهم خرجوا من حدود الغالبين إلى أن صاروا مغلوبين وإلى مثل ذلك صارت حال التغزغز(هم جيل من الاتراك') من الترك بعد أن كانوا في العدد أضعافهم فلما دانوا بالزندقة ودين الزندقة في الكف والسلم اسوأ من النصارى نقصت تلك الشجاعة وذهبت تلك الشهامة "[1].

ويؤكد الجاحظ هذه الفكرة في معرض تعليله بسالة الخوارج فيقول "على انا قد علمنا أن العلة التي عمت الخوارج بالنجدة استواء حالاتهم في الديانة واعتقادهم أن القتال دين لأننا حين وجدنا السجستاني والخراساني والجزري واليمامي والمغربي والعماني والازرقي منهم والنجدي والأباضي والصفري والمولى والعربي والعجمي والاعرابي والعبيد والنساء والحائك والفلاح كلهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان علمنا أن الديانة هي التي رسوت بينهم ووفقت بينهم في ذلك "[2].

ويفسر الجاحظ أيضاً أثر البيئة والمحيط وظروف المعيشة في نشوء العادات والتقاليد وأثرها في التحكم في أخلاق الناس وسلوكهم وعقائدهم وأفكارهم ويصوغ الجاحظ فكرته عن شدة تأثير العادة بقوله "العادة توأم الطبيعة"[3]، فكأن العادة لشدة رسوخها في النفس وتحكمها فيها تصير قوة من قوى الطبيعة تخضع الإنسان لأمرها إن لم يبتكر السبل والوسائل للسيطرة عليها وقد أرجع الجاحظ إلى تأثير العادة والتقاليد كثيراً من تصرفات الناس حتى شهواتهم وأنماط تعبيرهم عن الغرائز فيقول: "وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين شهوة فكذلك السودان في نساء البيضان على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات، والأغوار واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات، وأهل الشام أشهم النساءعندهم الروميات وبنات الروميات، وكل قوم فانما يشتهون جلبهم وسبيهم إلا الشاذ وليس على الشاذ قياس[4].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 126-127.

[2] م. ن، ج 1، ص 51.

[3] الجاحظ، البيان، ج 4، ص 33.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 215.

ويقدم الجاحظ من خلال مؤلفاته صورة ناقدة للمجتمع الذي عاش فيه بمختلف طبقاتــه، حيــث صور عصرة تصويراً دقيقاً من خلال القصص والنوادر التي تحمل نوعاً من الجــد والهــزل، وساعده في ذلك عيشه في أول حياته مع طبقة الفقراء الذي برع في تصويرهم، وقــدم وصــفاً لجميع الطبقات التي خالطها، كالبخلاء والمعلمين والقضاة والتجار والرقيق، كما صور العــالم الخاص للطبقة العليا تصويراً دقيقاً، إذ ساعده علمه على مخالطة أصحاب الــرأي والمشــورة، وأصحاب الثروات، لمشاهدة وملاحظة صفاتهم نتيجة اندماجه معهم.

ونستطيع القول هنا أن الجاحظ كان موفقاً في صقله حسه وعقله ليكون أكثر إتصــالاً بالأشــياء وأقوى إحاطة بنواحيها المترامية ومن طبيعة الأديب أن يتأثر بما يحيط به من قبل غيــره مــن سائر الناس وان يكون تأثره كاملا لذلك يجيء حديثه عن تأثيره أسرع وأصدق وأكمل، ســيما وإنه عاش بين أبناء الطبقة التي يتحدث عنها او يصورها وعاش دونها وفوقها ولم تخف عنــه شاردة واقعية[1]، ولا يعرض للصورة النفسية والموضوع السيكولوجي عرضاً علمياً بل يتحــدث عن كل جزء من الجزئيات ويحلّله تحليلاً دقيقاً وغير ممل[2]، فهو لذلك استطاع أن يداخل طبقات المجتمع المختلفة وأن يبين صفاتها وخصائصها ويتعرف نوازعها ومسالكها ويتغلغل الى دخائلها وما يسري في أعماقها تصور المجتمع العربي وتعرضه في شتى معارضه.

ويقسم الجاحظ المجتمع الى ثلاث طبقات العليا والوسطى والدنيا، وأن لا خلاف عليها بين أفراد المجتمع، فكان لكل منه دورٌ هام في الحياة الاجتماعية[3]، وأكد على عدم تساوي النفــوس بــين التابع والمتبوع والخادم والسيد في الأكل واللباس والشراب وطرق التعامل معهم[4]، فلكل مــنهم قدراته الخاصة به لتحمل المسؤولية وممارسة السلطة " فالعامة لا تدرك كما تدرك الخاصــة"[5]، وأكد ذلك بقوله:" ان اجتمع الأعلون والأوسطون والأدنون فدعوت بواحد منهم دون من يعلــوه

---

[1] شرف الدين، خليل، كيف صور الجاحظ، مجلة الاديب، ج 8، ص 7.

[2] م. ن، ج 8، ص 7.

[3] انظر: يوسف، احلام، العامة، كنوز الحكمة، ع(9)، ص40.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص36.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 38-43.

في القدر لأمر لا بدّ من الدعابة له فأظهر العذر في ذلك لئلا تخبث نفس من علاه فإن الناس يتغالب لمثل ذلك عليهم سوء الظنون"[1].

تناول الجاحظ في هذا الشأن العوامل المساعدة في تكوين الطبقات الاجتماعية، فالمال والثروة من أهم العوامل في التقسيم الطبقي، وهو من يحدد نوع الطبقة للشخص، فقال: " لم أرَ سقاء فقط بلغ حال اليسار والثروة وكذلك ضراب اللبن والطيان والحراث، وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات، ألا ترون أن الأموال كثيراً ما تكون عند الكتاب وعند أصحاب الفرش والأنماط وعند الصيارفة والحناط وعند البحريين، والبصريين والجلاب أبداً، والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم "، وفسر ذلك بقوله:" حمل الأموال أحق بأن تربح الجمل من تفاريق الأموال"[2]. وحددت الثروة مكانة الفرد الاجتماعي داخل المجتمع العباسي في المدن، وأكد الجاحظ ذلك من خلال كتاباته:" سمعت شيخاً من مشايخ الأُبلة يزعم أن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلة، فقلت: بأي شيء فضلتهم، قال: هم أشد تعظيماً للأغنياء وأعرف بالواجب"[3].

ومن العوامل الأخرى التي تؤثر في تحديد نوع الطبقة هي المهنة التي ينتمي إليها الفرد، فهي عامل مهم طالما تم ربط الطبقة بالمال، إذ يخلق الإنسان وهو لديه مهنة ورثها عن أبيه، كما تحدد الطبقة نوع المهنة التي ينتمي اليها بقوله:"ألا ترون أن الأموال كثيرا ما تكون عند الكتّاب وعند أصحاب الفرش والأنماط وعند الصيارفة والحناط وعند البحريين، والبصريين والجلاّب أبدا والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم"[4]. كما اعتبر عامل الثقافة من العوامل التي تؤثر على الفرد، إذ تعمل على الرفع من شأن صاحبها، فقيل:" أربع خصال يسود بها المرء العلم والأدب والعفة الأمانه"[5].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 35.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص260.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 49.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 260.

[5] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 217.

وعند حديثه عن العامة يظهر الجاحظ الفرق مابين عامة المثقفين الأجناس ويجعلنا أمام فئات تمتاز بثقافتها المتوسطة وتسمو في مرتبتها الاجتماعية على فئات أخرى فيقول "وإذا سمعتموني أذكر العوام فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة ولست أعني الأكراد في الجبال وسكان الجزائر في البحار"[1]. فالطبقة الاجتماعية حسب وجهة نظر الجاحظ تضمّ بين ثناياها فئات تتنوع أشد التنوع فهي قد تضم أناساً يمارسون مهناً مختلفة أو يتفاوتون من حيث درجة الثراء وبالمثل فإننا قد نجد أبناء طائفة بعينها ينتمون إلى طبقتين متباينتين فنرى على سبيل المثال الفرق بين أبناء أفراد طائفة المعلمين فيجعل بعضهم في طبقة اجتماعية أسمى من طبقة البعض الآخر إذ يسلكهم في طبقتين خاصة وعامة تبعاً لأصناف من يتلقون العلم على أيديهم وتبعاً لقدر العلم الذي يلمون به فيقول: "والمعلمون عندي على ضربين منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وهم في ذلك إلا كغيرهم"[2].

وينطلق الجاحظ في تقسيم الطبقات الاجتماعية من مفهوم عام يكاد ينطبق على جميع المجتمعات الحديثة منها والقديمة، فقد حاول أن يزاوج بين طبيعة الفرد وانتمائه الذاتي وبين واقعه الاجتماعي فهو يرى أن سبب التفاوت الطبقي بين الناس يكمن في اختلاف طبائعهم التي دعت بعضهم إلى ان يختار مهنة التجارة دون الصناعة والصناعة دون السياسة والطب دون الهندسة والحجامة دون النجارة وغيرها، والجاحظ هنا يجعل من الأضداد شيئاً واحداً بحيث تكون الرابطة بينهما رابطة وظيفية ويتضح ذلك في أنه جعل من الاختلاف سبباً وضرورة لتكوين الاتفاق والائتلاف كنتيجة، وذلك لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم التجارة والصناعة، ولجاز أن يطلبوا بأجمعهم الملك والسياسة وفي هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة[3].

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 250–251.

[2] م. ن، ج 1، ص 250–251.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 242.

1. الطبقة الخاصة

ضمت الطبقة الخاصة الخلفاء والوزراء والكتاب والحجاب والقضاة[1]، فاعتبر الجاحظ الخلفاء بأنهم رأس الطبقة العليا في المجتمع، مع تأكيده على وجود خليفة واحد للأمه يرعى مصالحهم ويهتم بأمورهم، ويجمع شملهم ويحميهم من عدوهم، ويمنع قويهّم من ضعيفهم،[2] مؤكداً على ضرورة وجود من يصلح على جباية خراج الأمة وسد ثغراتهم وتنفيذ أحكامهم[3].

ورأى الجاحظ أن الخلافة جاءت من الله سبحانه وتعالى حصناً للأمة، فلولا الأئمة لكانت العامة دون نظام لها، وعم الظلم على الضعفاء، وامتلأت القلوب بالبغضة والكراهية[4]. وأكد على انفراد الرئيس في الرئاسة دون مشاركة أحد في حكم الأمة، إذ يصلح حالها عند الابتعاد عن التنازع واجتماع الكلمة والبعد عن الأهواء[5]، والخلفاء مفضلون على سائر الأمة وفي ذلك يسوق الجاحظ اية تشير الى المنبع الديني الذي يعتمد منه الخليفة على قوام سلطانه يقول أن الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم لأنهم أفقه في الدين وأقوم بالحقوق وأرد على المسلمين، وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد لأن نفع ذلك لا يعدو وقمم رؤسهم ونفع هؤلاء يخص ويعم[6].

ويذكر الجاحظ في كتابه العثمانية قضية اختيار الناس إمامهم وخليفتهم، ونلاحظ أنه يمزج صفة الإمامة بصفة الخلافة، ومن رأيه أن معنى الإمامة وتأويل الخلافة أمر تدركه الخاصة ولا تعرفه العامة ذلك أن العامة "مع كل ريح تهب وناشئة تنجم ولعلها بالمبطلين اقر عينها منها بالمحقّين"[7].

---

[1] انظر: يوسف، احلام، العامة، كنوز، (9)، ص43.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 149-150.

[3] الجاحظ، العثمانية، ص 265.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 150-151.

[5] م. ن، ج 3، ص 151.

[6] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 349.

[7] الجاحظ، العثمانية، ص 250

ونجد عنده أن العامة أداة للخاصة تتبذلها للمهن وتزجى بها الأمور وتطول بها العدو وتسد بها الثغور ويؤكد أن "العامة لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ولا تروى معها وليس يخرجها من ذلك من طاعة عزمها وما أبرمت من تدبيرها " ويخلص إلى أن "صلاح الدنيا وتمام النعمة من تدبير الخاصة وطاعة العامة[1].

وينقل القول في طبيعة المعرفة عند الخاصة وعند العامة ليدعم ما يُقول به من أن اختيار الخليفة أُدخل في اختصاصٌ الخاصة منه في اختصاص العامة لأن معرفة الخاصة أرفع قدراً من معرفة العامة"، ويقول إن طبائع العوام أقل قدراً من طبائع الخواص على مراتب طبائعهم فالرسل طبائعهم فوق طبائع الخلفاء وطبائع الخلفاء فوق طبائع الوزراء[2].

فالخلفاء أحاطوا أنفسهم بالشعراء والمضحكين، وتخصيص المكافآت المالية لهم، فاقتطع السفاح لإحدى الشعراء مائتي جريب[3]، وخصصوا لبعض أتباعهم رواتب من اموالهم الخاصة، اذ اعتبروا جزءا من اسرهم يتأثرون بما يحل بهم من هوان او يلحق بهم أي مكروه[4]. وبالرغم من امتيازات هذه الطبقة من علاقة جيدة، إلا إنهم تمتعوا بصفات معينة أمام الخليفة فهم قليلي الحركة ويتكلمون بصوت منخفض[5]، وعليهم الاستماع إلى الخليفة، حتى لو كانوا على معرفة بالحديث[6]، كما يجب عليهم عدم استخدام الكلمات العامية أثناء حديثهم معه، لأن ذلك يدل على سوء خلق المتحدث[7]. كما بيّن الجاحظ أسلوباً خاصاً في السؤال عن حالهم أو الدعاء لهم، بقولهم:" إذا أردت أن تقول كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالكرامة والنعمة وإذا أردت أن تقول كيف يجد الأمير نفسه، فقل أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة"[8]. ومن مظاهر

---

[1] الجاحظ، العثمانية، ص251.

[2] م. ن، ص257.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص97.

[4] الجاحظ، البيان، ج2، ص94.

[5] الجاحظ، التاج، ص132

[6] م. ن، ص 116.

[7] م. ن، ص 202-203.

[8] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 256.

احترام الطبقة الخاصة للخليفة تقبيل أطرافه قبل الجلوس في مجلسه، والجلوس على بعد عشرة أميال من ستارته[1].

وأشار الجاحظ إلى حال الوزراء عند الخلفاء، حيث لم يكن وضوح في علاقتهم، فهم شديدي القلق على مصيرهم جراء تقلب أحوال الخلفاء عليهم، فأورد قصة أبو أيوب المورياني (وزير المنصور)، الذي أظهر قلقه عندما أرسل له الخليفة العباسي المنصور، إذ شاهد الجالسون القلق والفزع عليه، فأخبرهم بأنه لا يأمن بطش الخليفة وغدره[2].

ويبين الجاحظ شغف الوزراء بالأدب والعلم، فكانوا خبيراء بمفاتيح الأمور والنافع والضار منها، ولديهم المقدرة على اصطناع الكتب وحسن الساسة[3]، لذلك ينبغي أن يجتمع في الوزير السلطة العسكرية، فقد أبرز المناظرة التي جرت أمام الفتح بن خاقان، في التمييز بين جند الخلافة وتقسيمه الى خمسة أقسام خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي، وخصال كل منهم، وما امتازوا به من خبرة في الأمور العسكرية[4]. وعلاوة على ذلك، فقد نال الوزراء اهتمام الخلفاء فكانوا يزورونهم للتكرمة او المنادمة او التعزية من المصائب، وقد تكون للزيادة في عظمتهم، فتعد تلك من أعلى درجات الاشراف، ومنهم من تظاهر بالمرض ليكسب زيارة الخليفة، ورفع مكانته بين العامة والخاصة[5].

أما عن طبقة التجار، فقد اختلف المؤرخون في تصنيف فوضعها البعض في الطبقة الخاصة شأنهم شأن الأمراء والأشراف، ووضعهم البعض الآخر ضمن الطبقة العامة، لاستخدامهم الغش والحلف بالإيمان الكاذبة عند بيع البضائع[6]، فدافع الجاحظ عنهم، لما تعطي صاحبها مركزاً اجتماعياً في المجتمع العباسي، فهذه الوظيفة اتخذها أشراف القوم، والقبائل المشهورة

---

[1] الجاحظ، التاج، ص 66.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص 232-233.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 247-249.

[4] م. ن، ج 1، ص 247-249.

[5] الجاحظ، التاج، ص 264-265

[6] انظر: يوسف، أحلام، العامة، مجلة الحكمة، ص 43-44.

كقبيلة قريش، وأدرجهم ضمن طبقة الخاصة مصنفاً رسالة خاصة بهم أَطلق عليها "مدح التجار وذم عمل السلطان "، موجهاً إياها إلى صديقه الوزير ابن الزيات، لانتمائه الى هذه الطبقة [1].

توافر لطبيعة التجارة وظيفة اجتماعية مرموقة وضرورية في المجتمع العباسي بعد ما أصاب حياة بعض طوائفه وعلى وجه الخصوص في طبقتيه العليا والوسطى من ترف في الحياة وكل أسبابها المادية من دور ومنازل مزخرفة وفرش وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب ولهو من كل لون والتماس كل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة فقد هيأ هذا الترف لنشوء طائفة التجار الذين كانوا يقومون على مطالب هذا الترف وأدواته وكل المطالب الأساسية للحياة في المجتمع ويظهر أن هذه الوظيفة الاجتماعية كانت في وقت من الأوقات مستهجنة من بعض ما وضعه الجاحظ في رسائله من فئات المجتمع كالكتاب والعاملين في خدمة الخلفاء والولاة والوزراء، ويدلنا لى ذلك الجاحظ في رسالته (مدح التجار وذم عمل السلطان).[2]

لقد دافع الجاحظ عن التجار وعن وظيفتهم الاجتماعية من خلال اعتراف النابهين من اتباع السلطان بما للتجار من فضل حتى أنهم كانوا يتمنون حالهم وما يعيشون فيه من ترف ونعيم دون أدنى ضيم أو منّة من أحد عليهم فهم " يعترفون بفضيلة للتجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدين وطيب الطعمة ويعلمون إنهم أروع الناس يداً وأهنأهم عيشاً وآمنهم سراً لأنهم في أفنيتهم كالملوك على أسرتهم يرغب إليهم أهل الحاجات وينزع إليهم ملتمسو البياعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الفزع لمعاملاتهم".

ويصف الجاحظ أحوال التجار من حيث معيشتهم وفرق ما بين أحوالهم وأحوال المقربين إلى السلطان وممن يعملون في خدمته وكيف أن التجار يتمتعون بوفرة في المال تسلمهم من غوائل الدهر وتحقق لهم الدعة وأسباب الترف وإنهم يصيبون ذلك دون منة من أحد عليهم وليس كذلك حال كمال السلطان فأولئك لباسهم الذلة وشعارهم الملق وقلوبهم ممن هم لهم طول مملؤة قد لبسها الرعب والفها الذل وصحبها ترقب الاحتجاج فهم مع هذا في تكدير وتنغيص خوفا من

[1] الجاحظ، رسالة مدح التجار، ص 237

[2] م. ن، ص 237-246.

سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغير الدول واعتراض حلول المحن فإن هي حلت بهم وكثير ما تحل فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين من قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثرة الإثراء وقضاء اللذات من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها وكم بين من قد استرفه المعروف واستعبده القمع ولزمه ثقل الضيعة وطوق عنقه الافتنان واسترهن بتحميل الشكر[1]".

ويعرض الجاحظ في فصل آخر من رسالته تصوره للأصول التي تستمد منها طائفة التجار مكانتها الاجتماعية ومنها ما تدين له الدولة بسلطانها ذلك ان "الرسول عليه الصلاة والسلام وهو خيرة الله تعالى من خلقه كان من أهل بيت من بيوت التجار فضلاً عن إنه صلى الله عليه وسلم اتخذ من التجارة مهنة قبل بعثه وهذا أمر يعرفه سائر المسلمين وبالمثل فإنهم يعرفون ما تحقق لقريش في الزمن القديم من مكانة اجتماعية بين القبائل العربية بفضل اتخاذ سادتها ورؤسائها للتجارة مهنة لهم يقتاتون منها حتى إنه اشتق اسمها من التجارة والتقريش وبالمثل جعل الجاحظ من الأصول التي قامت عليها المكانة الاجتماعية لطائفة التجار أن من بين أفرادها من نبه في العلم حتى يعد " أي صنف من العلم لم يبلغ التجار أو يأخذوا منه بنصيب أو يكونوا رؤساء أهله وعليتها " وهو بذلك يرد على الطاعنين في مكانة التجار الاجتماعية والقائلين بأن مهنة التجارة تدنى صاحبها الى العامة[2].

وفي حديثه عن الطبقة الوسطى، يرى الجاحظ أن هذه الطبقة هي من بين الطبقات التي تسعى وراء المال، وكذلك التجار (قريش)، فهم يسعون لكسب الثروات، وادخارها، بقوله:" ومن العجب أن كسبهم لمّا قَل من قبل تركهم الغزو، ومالوا إلى الجهاد، لم يعتريهم من بخل التجار قليلٌ ولا كثير، والبخل خلقةٌ في الطباع، فأعطوا الشعراء كما يعطى الملوك، وقروا الأضياف ووصلوا الأرحام، وقاموا بنوائب زوار البيت، فكان أحدهم يَحيسُ الحَيسة في الأنطاع، فيأكل منها القائم والقاعد، والراجل والراكب واطعموا بدل الحيس الفالوذج"[3].

---

[1] الجاحظ، رسالة مدح التجار، ص 240-241.

[2] م. ن، ص 241.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج4، ص 116.

ظهرت أهمية الثروة وتكوينها في المجتمع نتيجة للمنافسة بين العرب وغير العرب في شتى المجالات وبحكم العامل الوراثي للعقلية العربية جعلهم لا يستسيغون أنواع المعرفة إلا بحدود نظرتهم للدين والحياة وما يتفق مع ذوقهم العام في أن يعيشوا متميزين في علاقاتهم الاجتماعية لذا فقد تمسكوا بقيم الضيافة والكرم وابتعدوا عن الأعمال التي اشتغلها غيرهم كالمهن الصناعية وبعض فنون العلم مما أفقدهم فرصاً كثيرة في مجالات الثقافة الواسعة من جانب ونهوض أعداد كبيرة من غير العرب بمسالك المعرفة والعلم من جانب آخر وقد يرجع السبب في ذلك كما يقول الجاحظ إلى أن العرب " لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب فلاحة، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزية ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ولا طلبوا المعاش من السنة الموازين ورؤوس المكاييل ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة ولم يستغنوا الغنى الذي يورث البلدة والثروة التي تحدث العزة ولم يحتملوا ذلك فط فيميت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم"[1].

ويبدو أن الجاحظ بذلك كان أكثر توضيحاً وقدرة في لتحليله لأسباب ابتعاد العرب عن الصناعة والحرف وما نتج عنها من شيوع فكرة الإدخار والاقتصاد بين العناصر غير العربية فاهتمامها المادي والمهني أدى إلى تشكيل صلات روابط فيما بينها منحتها بعض المكتسبات الاقتصادية والسياسية[2].

وفيما يخص موضوع القضاة، فقد نالت هذه الطبقة منزلة رفيعة ومرموقة في المجتمع العباسي، إذ كان القاضي في مرتبة أعلى من الوالي من خلال النظر في الشكاوي والمظالم، إلا أن هناك من رفض تولية القضاء مثل عمر بن هُبيرة، الذي ذكر بأنه لا يصلح للقضاء، فهو سيضع نفسه في العي (كثير كلام) وأنه الدميم والحديد فقيل له "أما الحدة فإن السوط يقومك، وأما الدمامة فإني لا أريد ان احاسن بك أحداً، وأما العي فقد عبرت عما تريد"[3].ويشير الجاحظ إلى أن الخلفاء وضعوا شروطاً فيمن يتولى القضاة منها أن لا يكون عياً لا يحسن التعبير عما يريد الإفصاح

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 69-70.

[2] م. ن، ج 1، ص 69-70.

[3] الجاحظ، البيان، ج 1، ص100-101.

عنه وعابوا أن تكون به حده في طباعه وكانوا يفضلونه أن يكون حسن الشكل[1]، وكان من واجبات القضاة الإشراف بخطبة الجمع في المساجد الجامعة تأكيدا لفضل عملهم وفقههم، ويظهر أن هذا كان شأنهم منذ العصر الأموي فيشير الجاحظ إلى طائفة من الفضلة ممن ولوا منبر البصرة فبعضهم كان من قضاتها في العصر الأموي كالقاضي المعروف بإسم بلال بن أبي بردة[2].

ومن بين واجبات القاضي في العصر العباسي الفصل في مسائل الخلافات الزوجية بالرغم من أن عملهم كان يقوم في بعض جوانبه على أعمال العقل والفطنة في إصدار أحكامهم فرفض بعضهم أقوال لفيف من الفقهاء والأئمة وأفتى بعضهم بالرأي كالقاضي المعروف بإسم محمد بن عبدالرحمن بن ابي ليلى أورد عنه الجاحظ خبراً في كتابه الحيوان يدل على أنه كان فقيهاً مفتياً بالرأى مناظراً فيما يستفتي فيه بقصد الوصول إلى رأي صائب وسديد[3].

وبلغ من فطنة بعض القضاة أنهم كشفوا عن حيل شرعية كان المتقاضون يتخلصون بها من بعض الأحكام او من بعض المحظورات وألّف بعضهم تصانيف في هذه الحيل مثل صنيع أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم قاضي المهدي والرشيد الذي ورد اسم كتاب له في هذا الباب في كتاب الحيوان تحت عنوان كتاب الحيل[4]، قدّم فيه صورة لعمل القاضي إزاء أختلاط ألوان الحياة الاجتماعية في مجتمعه، وتوثقت صلة الجاحظ ببعض القضاة في عصره كالقاضي أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤواد الذي وُلِي القضاء في عهد المعتصم ثم الوائق، وكان له مجلس علم يشهده من أطباء العصر وعلمائه من بينهم سلمويه وابن سلمويه وبختيشوع ابن جبريل وذكر الجاحظ أنه شهد هذا المجلس حين كانوا يناقشون مسألة "ما اذا كان يتصنع الترياق من نهشة أم لا"[5]. ونراه يوثق صلته أيضا بأبي الوليد محمد بن احمد بن أبي دؤاد خلافة المتوكل إذ ولي القضاء بعد أن فلج والده أحمد بن ابي دؤاد وقد صنف الجاحظ لأبي الوليد رسالة في (المعاد والمعاش)

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 100-101.

[2] م. ن، ج 1، ص 294.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 93.

[4] م. ن، ج3، ص 6.

[5] م. ن، ج 4، ص 69.

يصور فيها جملة من قواعد السلوك الاجتماعي ومبادئ المعاملة بين الناس كما ينبغي والتي يراها الجاحظ مفيده لرجل في مركز أبي الوليد الاجتماعي ذلك أن القضاء جعله رجل دولة يلي من وظائفها العامة ما يجعل صلاته بطبقات مجتمعه تأخذ صور جديدة فيرى الجاحظ إنها ذات سمات بعينها يبصره بها في هذه الرسالة خاصة وإنها أمور لا تدرك بالعقل والفهم والطبع الكريم الذي يتمثل في أبي الوليد ولكنها أمور بحاجة الى معاونة العقل المكتسب[1].

ويشير الجاحظ اهتمام القضاة بأمور العلم والمعرفة[2]، ومن بينهم أبي داؤود الذي عرف عنه حبه للعلم والعلماء، وإلى جانب توليه منصب قاضي القضاة كان ينظر في المظالم وفي ذلك يقول الجاحظ فيه " وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه والداعي إليه وحامل الباس عليه من موضع السلطان بأرفع المكان لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ومصالح البلاد وجعله متصفحاً على القضاة وعتاداً على الولاة ثم جعله الله منزع العلماء ومفزع الضعفاء ومستراح الحكماء فقد وصفه بأرفع المنازل وأسنى المراتب".

وقال في وصف عمله: انه السوق التي ير فيها شيئاً ينفق إلا العلم والبيان عنه وإلا العمل الصالح والدعاء إليه إلا التعاون على مصلحة العباد ونفى الفساد عن البلاد "وإنها "سوق لا ينفق فيها إلا إقامة السنة وإماتة البدعة ورفع الظلامة والنظر في صلاح الأمة" وذلك العمل من شأنه أن يعمر الدنيا ويؤيد الملك". وكان الجاحظ يمدح ابن ابي داؤود برجاحة العقل وحسن البيان وقوة الحجة وهو يسجل هذه الصفات في مدحه له رواها في البيان" [3].

ويعرض الجاحظ تصوره لهذه الآداب في جملة من الوصايا يوصى بها صاحبه منها مثل تقوى الله وأن يحذر مغبة الاغترار به والإذعان في أمره والاستهانة بعزائمه والأمن لمكره وأن يتخذ في سياسة الناس مسلك الترغيب والترهيب، وعنده أن الرغبة والرهبة أصلاً كل تدبير وعليها مدار كل سياسة عظمت أو صغرت فاجعلها مثالك الذي تحتذى عليه وركنك الذي تستند اليه ولا

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص96..

[2] م. ن، ج 1، ص 314.

[3] م. ن، ج 1، ص96..

بّد له ان يقيم معاملته لمن بينهم وبينه مودة او حرمة على حسن تقديره لمنازلهم واقدارهم غير مؤثر في ذلك احدا منهم لموت لان ذلك يوجب سخطهم عليه واستصغارهم لقدره"[1].

ومن بين الذين نالوا منزلة رفيعة في العصر العباسي إلى جانب الخلفاء والوزراء والتجار والقضاة، هناك فئة أخرى وهي فئة الكتّاب الذين عملوا في الدواوين كالخراج والجند والرسائل[2]، وسعى البعض للوصول اليها،اذ اعتمد عليهم في تصريف الأمور الخاصة بالدولة، فتؤخذ مشورتهم في الأحكام والقوانين الصادرة،نظرا لخبرتهم ودرايتهم في الأمور السلطانية[3]، وكان من بينهم المحررون يقومون على تحرير كتب الخلفاء وقد ينزل المحرر في أقرب المواطن من الخليفة وبالمثل يسلك بين أفراد هذه الفئة كُتاب الرسائل والنساخ الذين كانت مهمتهم نسخ الرسائل والكتب بخط جميل وواضح [4].

ويشير الجاحظ إلى أن الفرس شكّلوا غالبية هذه الفئة ذلك في حديثه عنهم إلى أن بروزهم بدأ منذ العهد الأول للإسلام[5]، وقال الجاحظ أن الفرس يستخدمون في تسطير كتاباتهم الورق والكلفدة وأنواع من الجلود والآدم وكان اعتمادهم على الجلود في حساب الدواوين وفي الصكوك والعهود وفي الشروط وصور العقارات وفيها تكون نماذج النقوش ومنها تكون خرائط البرد[6]، وعلى الرغم من أن الوراقين كرهوا أن يخطوا خطوطهم على الجلود لما فيها من عيوب إنها "جافية ثقيلة الوزن انإصابها الماء بطلت وان كان يوم لثق استرخت"[7].

ولاحظ الجاحظ أن الكُتاب في هذا العصر كانوا مزهوين بكل ما هو فارسي فأشادوا في مجالسهم بسياسة أردشير بابكان وماكان عليه تدبير كسرى انوشروان!' وكيف استقامت الأمور في البلاد

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ص 100-107.

[2] م. ن، ج 2، ص 203-205.

[3] الجاحظ، الملوك، ص 168-الرسائل ج(2)، ص 191-192 -195. انظر: الكروي، ابراهيم، طبقات، ص23.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 205.

[5] م. ن، ج 2، ص 206.

[6] م. ن، ج 1، ص 253-254.

[7] م. ن، ج 1، ص 252.

زمن الساسان[1]، ثم إنهم اتخذوا من الثقافة الفارسية طريقاً إلى نبوغهم في مهنتهم فكان الناشىء منهم يعتمد في نفسه أن قوام نجاحه في عمله يتمثل في رواية شيء من أمثال ونوادر بزرجمهر او عهد اردشير او رسائل عبد الحميد الكاتب أو أدب ابن المقفع.

وحمل الجاحظ على الكُتاب حملة شنعاء في رسالة صنفها في ذم أخلاقهم فهو يقــرنهم بالتبعــة والخدم حتى قال (أن قبح الكتابة بُني على أنه لا يتقلدها إلأ تابع ولايته من هو في معنى الخادم " وهم عنده في حكم الأرقاء فإن كان العبد تجب له اسئزادة سيده بالشكوى وان يســتبدل بــه اذا راغب في ذلك فان الكاتب لا يحق له " تفاضى فاتته اذا أبطأ ولا التحول عن صاحبه إذا إلتوى فأحكامه أحكام الأرقاء ومحله من الخدمة محل الأغبياء" [2].

وكان الجاحظ قد هاجم هذه الطبقة من خلال تصنيفة رسالة بعنوان " ذم أخلاق الكتاب"، ووصفها بأنها مهنة للتابع والخادم وليس للسيد[3]. موضحا بأن الغرض من تأليف هذه الرسالة هو معرفــة صفات وأخلاق وطبائع هذه الفئة[4]. وهو يصرح بغرضه من هذه الرسالة وذمه لهم وبأنــه أراد بيان " رداءة مذاهب الكتاب وأفعالهم ولوم طباعهم وأخلاقهم "، وينقب في تاريخ هــذه الطائفــة يخرج من ماضيهم ما يشينهم'. ولم يكن حاضرهم في نظره أفضل من ماضيهم حتى أنه ضرب المثل في السفه والمباهته بعمر بن فرج[5]، وهناك من القضاة من امتاز بالشره والطيش والسخافة واللؤم والثنوية[6].

ويذكر الجاحظ أن عامة الكتاب كانوا يعزفون عن درس القرآن وتفسيره والتفقه في أمور الدين والحفظ للسنة والآثار حيث أنهم كانوا إذا " أثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث والتشــاغل بذكر كتب المتفقهين استثقله أقرانه واستوخمه الآفة وقضوا عليه بالإدبار في معيشته والحرفة في

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 193.

[2] م. ن، ج2، ص 191.

[3] م. ن، ج2، ص 195.

[4] م. ن، ج2، ص 197.

[5] م. ن، ج2، ص 190-197.

[6] م. ن، ج2، ص 197.

صناعته"، ووضح طرقهم غير الصحيحة في العمل بقوله:" لا يستندون من العلم إلى وثيقة، ولا يدينون بحقيقةً، أخفر الخلق لأماناتهم، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ؛ الويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون"[1]. وعلى الرغم من ذلك كان من هؤلاء الكتاب من ثبتت وطأته ودامت ولايته وارتفعت همته وكرمت صحبته وجمل مذهبه واشتدت محاماته عمن صحبه وتحرم به مثل المعلى بن ايوب من ولاه ديوان الجند لعهد المأمون [2].

وأورد الجاحظ رواية تبين كره الخليفة للكتاب وسعيه لتدمير المهتمين منهم بالعلم والقران والفقه[3]. وقيل بان مكانتهم لم تختلف عن مكانة العبيد في الخدمة، فهم حاملين لصفاتهم من الحقد والحسد، فشبهوا بالكلاب التي تنبح على بعضها[4]، فحملوا صفات سيئة فمنهم اشتهر في السفه والمباهتة، ومنهم في الشره والرقاعه، وكذلك في الطيش والجهالة، واللؤم والسخافة، والنهم والنذالة[5].

وعلى الرغم من ذم الجاحظ للكتاب ونعتهم لصفات سوء الأخلاق والأفعال، إلا إننّا نجده في موضع آخر يوجه لهم المديح والثناء ويقدم وصفاً لهم من خلال مشاهدتهم في إحدى الدواوين بأنهم أصحاب الأخلاق والشمائل الحميدة وأهل الفهم والوقار والإخلاص[6].

وبالرغم ما أورده الجاحظ من ذم ومدح للكتاب إلا أنه بيّن الشروط التي وضعها الخليفة على الكاتب، ومنها أن يكون ذا خط حسن، متمتعاً بالصبر والوفاء، وعلى دراية بالكلام الفصيح والحكم والأمثال والأدب والأحكام واللغات والأنساب، كما لديه القدرة على التمييز بين محاسن ومساوئ الأشخاص الداخلين عليه[7].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 199.
[2] م. ن، ج 2، ص 199.
[3] م. ن،ج 2، ص 194-195.
[4] م. ن، ج 2، ص 99، 191-200.
[5] م. ن، ج 2، ص 197.
[6] م. ن، ج 2، ص199.
[7] م. ن، ج 1، ص191-192.

ويبين الجاحظ أن الكتاب كانوا لفرط مافي نفوسهم من غرور وصلف يتخذون مظهراً من اللباس الخاص بهم، ويعرضون جبابهم ويطيلونها ويعقصون شعورهم على خدودهم حتى ليظن الواحد منهم في نفسه انه التابع والسيد وليس المتبوع الممتلك بقوله " ثم هو (الكاتب) في الذروة القصوى من الصلف والسنام إلا على من البذخ وفي البصر الطامي من التيه والسرف يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبته وطول ذيله وعقص على خده صدغة وتحذف الشابورتين على وجهه إنه المتبوع ليس التابع والمليك فوق المالك " [1].

يعيب الجاحظ ما كان بين كتاب الدواوين من بغض وتفاخر وحقد وضغينة وأن هذه الصفات البغيضة لا يجدها المرء بين أهل الصناعة الواحدة تراهم يتعاطفون فيما بينهم ويتوادون لبعضهم ويمتدحون صنيع من يتفوق منهم في عمله ولم يكن كذلك الكتاب فإن أحدهم يتحاذق عند نظراته بالإستعلاء على مثله ويسترجع رأيه إذا بلغ في نكاية رجل من أهل صناعته [2]، ويظهر إنه كان من بين فئة الكتاب من يحاول أن يتشبه بالعلماء ولم يكن صنيعهم يخلو من حسد لأهل العلم وكتبهم ولم يكن سعي هؤلاء الفئة من الكتاب إلا استمالة قلوب ضعاف عامة الشعب والجهلاء من الحكام وأشار الجاحظ إلى أن ذلك من الأقدار التي لم يخل منها زمن من الأزمان[3].

ويصف الجاحظ أبناء هذه الطبقة بإدعاء العلم والمعرفة في كل شيء وهم في الحقيقة يفتنون على كل شيء وأن غرورهم لا حد له وهم لا أخلاق لهم لا حلم عندهم[4]، والظاهر أن صناعة الكتابة الديوانية كانت تضفي على أصحابها من الغرور والتكلف والذهاب بالنفس والتعلق بالمظاهر ولا تعجب إن رأينا رجلاً كثمامة بن أشرس يضيق بهم هذه الخلال منهم حتى أنه سئل يوماً وقد خرج من عند كبيرهم عمر بن مسعدة، فقيل له "يا أبا معن ما رأيت من معرفة هذا الرجل وبلوغ من فهمه، فقال: ما رأيت قوماً نفرت طباعهم عمن قبول العلم وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز فصار العلم سبب جهلهم والبيان علم ظلالتهم والفحص والنظر' قائد غيهم والحكمة معدن شبههم اكثر من الكتاب" [5].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 191 – 209.

[2] م. ن، ج 2، ص 200

[3] م. ن، ج 1، ص 338–340

[4] م. ن، ج 2، ص 191–194

[5] م. ن، ج 2،ص 195.

وأشار الجاحظ الى سيطرة الكتاب على موارد الدولة حيث كانوا يأخذون العشر من أرزاق صاحب الخراج، بالإضافة إلى تحايلهم على الوزراء لأخذ المال مقابل تنسيقهم لبعض القضايا العالقة في الأمور السياسية أو التجارية[1]، لذلك كانت حياتهم مليئة بالبذخ، فقيل "لا ينال أحد النعم كما يناله الكتاب"[2].

وعلى الرغم من ذلك فإن الصورة المشينة لفئات من كتاب الدواوين لا يحجب أثر فئات أخرى منهم في بلوغ اللغة العربية ما بلغته من تطور حضاري في عصر الجاحظ حتى إن كتاب الدواوين في هذا العصر أولوا اللغة العربية عناية خاصة فحرصوا على التدقيق في اختيار الألفاظ وتجنبوا ما يكون منها متوعراً وحشياً أو ساقطاً سوقياً وهؤلاء الكتاب كانوا يصفون كلامهم ويتخيرون ما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة ومع الرونق والطلاوة، وعنوا بانتخاب معانيهم لتكتمل عندهم صفات البيان الحسن ومما ساعدهم على ذلك ما أصاب ذوقهم من ترف الحضارة شأنهم في ذلك شأن نابهى الشعراء حسب ما يقرره الجاحظ في بيانه.

يعبر الجاحظ عن خيبة أمل كبيرة في طبقة الكتاب لأن المنافسة بينهم لم تكن منافسة شريفة ولم يكن التعاطف عندهم كما كان عند اهل الحرف والصناعات الاخرى التي تقل عنهم شأنا[3].

وعدا عن الطبقات الهامة التي تناولتها آنفاً مؤلفات الجاحظ ورسائلة، فتناول موضوعاً إدارياً آخر وهو الحُجاب، إذ عُدّ الحجاب في الدولة العباسية من كبار موظفيها فهم همزة الوصل بين الخليفة والناس، لذلك حرص الخلفاء العباسيين على اختيار حجابهم بحيث يكونوا بعيدين عن الجهل والغبى والعي، حتى لا يجهلون مكانة الشريف وتقديم الوضعاء، وبعيدين عن التشاغل والخمل والذهول، لعدم إضاعة حقوق الرعية، بعيداً عن العبوس الذي يلحق بصاحبه كراهة الناس له ويبتعد عنه أهل النصح والمشورة[4]. وكما تعرض بعض الحجاب إلى الهجاء من

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 205.
[2] م. ن، ج 2، ص191.
[3] م. ن، ج 1، ص 367.
[4] م. ن، ج 2، ص 34.

الشعراء لمنعهم من الدخول الى الخليفة حتى قالوا: "ما الذل؟"، قالوا: "وقوف الشريف أمام الدني، ولا يؤذن له بالدخول"[1].

أما الطائفة الأخرى وهي طائفة المغنيين فقد نالوا شأناً خاصاً في المجتمع العباسي تحققت لهم بفضل قيامهم على مظاهر الطرب واللهو وما كان يعقد في دور السادة من مجالس الغناء واللهو والطرب ويشير الجاحظ في حديثه عن المغنيين أن الغناء أصبح فناً يقوم على أسس علمية مقررة شأنه شأن أصول الآداب الأخرى، ويمثل هذا الفن واحدً من هذه الأصول الأربعة وهي حسب ما قرره الفلاسفة المتقدمون النجوم وبروجها وحسابها والهندسة والكيمياء والطب واللحون ويظهر أن المغنين في عصر الجاحظ قد توزعوا على طبقات، وكان لكل طبقة منها ما يميزها من حيث أوصاف أفرادها وآلاتهم وأدواتهم[2].

2. الطبقة العامة

عرفت الطبقة العامة بأسماء عديدة منها " السوقة " لأن الخليفة يسوقهم كما يريد، ويفسر ذلك ابن منظور بقوله "السوقة بمنزلة الرعية التي تسوسها الملوك وسموها سوقة لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم يقال للواحد سوقة وللجماعة سوقة[3]، وفي ذلك يقول صاحب الصحاح "السوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان"[4] ، وعرفوا أيضاً بأسماء أخرى منها أصحاب الإهانات وأبناء الأنذال والسفل والسقاط [5]، في حين أطلق عليهم الجاحظ أسماء" حاشية وأعلاج وآكرة ونزال السواحل والآجام والغيوض والجزائر من اكار ومن صياد"[6]. وتشمل هذه الطبقة عامة الشعب طوائف وفئات اجتماعية مختلفه ورجح البعض سبب تسمية هذه الطبقة بإسم العامة لكثرة أفرادها وعدم إحاطة البصر بهم"[7].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص72.

[2] م. ن، ج 3، ص 131-133.

[3] ابن منظور، لسان، ج 10، ص 170.

[4] الجوهري، اسماعيل، تاج، ص 1499.

[5] يوسف، احلام، العامة، مجلة الحكمة، ع(9)، ص 41-42

[6] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 212.

[7] الصفدي، نكت الهميان، ص 10.

ولاحظ الجاحظ انقسام المجتمع إلى طبقتين فحاول – من موقف المعتزلة – تغيير مفاهيم السلطة غير إنه لم يزد على أنه فسر السلطة الخاصة بأنها مسلحة بالعقل وأن ليس للعامة الحق بممارسة السلطة لأنها تفتقر له (العقل) كما رأى ان العامة ليست ضرورية البتة لقيام السلطة لأنه " ليس للخاصة قوة بالعامة ولا للعلية قوة على الأرذال " واستعان برأي منسوب للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول " نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا " ونقل عن واصل بن عطاء طريقة فهم الخاصة للعامة، إذ قال ما اجتمعوا إلا ضروا وما تفرقوا إلا نفعوا فقيل له: عرفنا مضرة الاجتماع فما منفعة الإفتراق؟ قال: يرجع الطيان الى تطيينه والحائك الى حياكته والملاح إلى ملاحته وكل إنسان إلى صناعته وكل ذلك مرفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين[1].

تشكلت الطبقة العامة من مختلف الاجناس والفئات التي ضمتها الدولة العباسية من عرب وديلم وترك وأكراد، وبيّن الجاحظ بأن للخاصة قدرة على تولية الحكم لتسلحهم بالعقل بقوله " ليس للخاصة قوة بالعامة ولا للعلية قوة على الارذال"[2]، إذ افتقروا إلى المكانة الكبيرة التي وصلت إليها الطبقة الخاصة في المجتمع لجهلهم في شتى مجالات الحياة، فهم متهمين بقلة قدراتهم العقلية وقلة فهمهم وإدراكهم للأمور، " إن قلت لا عقول لهم كنت صادقاً، وإن قلت لهم أشياء شبيهه بالعقول كنت صادقاً "[3]. واستعان الجاحظ أيضاً بقول واصل بن عطاء "ما اجتمعوا إلا ضروا، وما تفرقوا إلا نفعوا"[4].

ومن هنا نرى أنّ الجاحظ يستهجن كثيراً من معتقداتهم من مثل قولهم في المسخ[5]، وضربهم المثل في الشدة والقوة بالكركدن وزعمهم إنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد وسط جبهته فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام، وبين فيما بعد عدم صحة كلامة

---

[1] الصفدي، نكت الهميان، ص 283–285.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، 283.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 4، 38–43. انظر: يوسف، احلام، العامة، كنوز الحكمة، ع9، ص42.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج4، 38—43. ج 2، ص 283.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص. 48.

بقوله:(هذا القول بالخرافة اشبه)[1]. ويبدو أن الجاحظ أورد هذه الروايات إرضاءً للخاصة فـــاتهم العامة بقلة معارفها وفهمها السيء غاية السفلة إذ هو شبيه برتبتهم في نقصهم، فيقول وهم أقـــل شكا وأكثر تسرعاً[2]، كما أنه أراد إظهار فضل الفلسفة والمعتزلة بالأخص في بقاء العامة، فقال:" لولا المتكلمين لهلك العوام واختطفوا واسترقوا""[3]، وهو يؤكد انهم من حيث ثقافتهم العقلية أقـــل مرتبة من الخواص[4].

ويسوق الجاحظ الأدلة المثبتة لتفوق الخاصة على العامة وأن هذا ما يرجع إلى ما ركبه الله في البشر من طبائع وقدرات، ذلك أن الخاصة أقلية من كل أمة ومختار كل زمان وأن كثروا فهـــم أقل عددا وان كانوا أكثر فقهاء[5]، وعنده أن طوائف عامة الشعب أداة للخاصة تبتـــذلها للمهـــن وتزجى لها الأمور وتطول بها على العدو وتسد بها الثغور ويشبه مقامها من مقام الخاصة بمقام جوارح الإنسان من الإنسان فيقول الجاحظ (كما أن الجوارح لا تعرف قصد النفس ولا تـــروي في الأمور ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم فكذلك العامة لا تعرف قصد القـــادة ولا تـــدبير الخاصة ولا تروى معها وليس بخروجها ذلك من طاعة عزمها وما أُبرمت من تدبيرها)[6].

ويبين الجاحظ أن العامة هم أداة الخاصة في العمل والمهن وسد الثغور ومحاربة العدو، ووصف قربها من الخاصة كقرب جوارح الإنسان من الإنسان نفسه، فهم لا يعرفون قصـــد القـــادة ولا تدبير الخاصة ولا تدبيرها[7]. ولكنه أكد أيضاً على حاجة الخاصة للعامة، بقوله:" لـــم يخلـــق الله تعالى أحد يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من ســـخر لـــه: فأدنـــاهم مســـخر لأقصاهم وأجلهم ميسر لأقلهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة في باب، وأحوج السوقة إلى الملوك في باب، وكذلك الغني والفقير، والعبد وسيده"[8]. وتعتمد الخاصة على تأييد العامة لأنهـــم

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 7، ص 82.

[2] الجاحظ، السائل، ج 4، ص 38-43..

[3] ابن خلكان، وفيات، ج 3، ص 471. انظر: الرفاعي، احمد، عصر، ص 423.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 38-43.

[5] م. ن، ص 315.

[6] الجاحظ، العثمانية، ص 250-251.

[7] م. ن، ص 250-251.

[8] م. ن، ص 254.

الأكثرية في المجتمع، لكن وجود الخاصة أمر ضروري لمعرفتها في شتى العلوم، فقيل " لو كانت العامة تعرف من الدين والدنيا ما تعرفه الخاصة، كانت العامة خاصة"[1].

يظهر أن اهتمام الجاحظ بالعامة كان عظيماً لكن طموحه وأمله في طبقة أهل المعرفة والمتكلمين هي أولى اهتماماته، رغم أن الجاحظ يرفض عقيدة العامة وأحكامهم وطبيعة تفكيرهم إلا أنه يأخذ مواقفهم بعين الاعتبار، ويتضح هذا الأمر حينما يبحث الجاحظ في بعض الحقائق التاريخية محاولاً أن يعطي تفسيره الخاص.

ويسرد الجاحظ حديثه عن نبوة الأنبياء ودعوتهم إلى الناس ويأخذ بعين الإعتبار موقف طبقتين رئيسيتين في المجتمع، طبقة يسميها الجاحظ الخاصة واخرى تدعى العامة والملاحظ ان الخاصة عنده تاخذ بيد العامة الا ان موقف الخاصة يعتمد كل الاعتماد على التصرف الذي تتبعه العامة فعلى هذا إذا أراد أي رسول أن يحظى بتأييد قوى عليه أولا أن يدعوا العامة ويحوز رضاها فيبدأ على حد قول الجاحظ – بأن يمارس ما يمارسه خاصتهم من صنائع أو مهن وما يكون مقبولا عند عامتهم ومعروف لديهم فبذلك يستطيع أن يحظى بتأييد العامة وبغلبة الخاصة بأن يظهر مهارته وتفوقه في الصنعة التي يجيدها خاصتهم قبل كل شيء.

وفي هذا الشأن يورد الجاحظ قصة سيدنا موسى الذي حُظي بإهتمام عامة قومه، ليردهم عن إتباع خاصتهم الذين كانوا يمارسون أعمال السحر،" ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ولم يكن أصحابه قط في زمان أشد استحكاماً فيه منهم في زمانه بعث الله موسى عليه السلام على أبطاله وتوهينه وكشف ضعفه وإظهاره، ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ولمن نشأ السحر حتى يفصل الحجة والحيلة لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ولا اعتل به أصحاب الأشغال ولشغلوا به بال الضعيف.

ويستدل الجاحظ أيضاً ما فعله سيدنا عيسى عليه السلام الذي كان "الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب كانت عوامهم تعظمهم على خواصهم فأرسله الله عز وجل بأحياء الموتى إذ

[1] الجاحظ، العثمانية، ص 256 – البيان، ج1، ص 137.

كانت غايتهم علاج المرضى وإبراء الأكمة إذ كانت غايتهم علاج الرمد مع ما أعطاه الله تعالى عزوجل من سائر العلامات وضروب الايات لأن الخاصة إذا نجعت بالطاعة وقهرتها الحجة وعرفت موضع العجز والقوة وفصل ما بين الاية والحيلة كان أنجع للعامة وأجدر ان لا تبقى في أنفسهم بقية".

ويواصل الجاحظ حديثه بالقول عن النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتذب قلوب العامة ثم الخاصة بطريق البلاغة والفصاحة في الكلام وهي من أهم الإمور عند قومه آنذاك فحين استحكمت لغتهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون إنهم يقدرون على أكثر منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لاقويائهم وخواصهم ولهذا الجاحظ يردد القول (ومتى ذكرت الخاصة فالعامة في ذلك مثل الخاصة).

ويميل الجاحظ إلى أن يعطي زمام المجتمع إلى رجال المعرفة والعلم أو أولئك الذين لهم سيطرة مباشرة على عقول عامة الناس وهم من يسميهم الجاحظ بالخاصة ويطبق هذا على مجتمعه وعصره حيث أن الإيمان المبني على الحكم العقلي عند الجاحظ – كما عند المعتزلة – هو صفة من صفات أهل المعرفة والعلم ولذا يرى الجاحظ أن "العلم بأصول الأديان ومخارج الملل وتأويل الدين والتحفظ من البدع وقبل ذلك الكلام في حجج العقول والتعديل والتحوير والعلم بالأخبار وتقدير الأشكال فليس هذا موجوداً إلا عند العلماء"، وأن أهمية نظرة الجاحظ هذه في العقيدة لا تقتصر على هذا التمييز بين عقيدة العامة وعقيدة أصحاب المعرفة بل تتعداها إلى ما يعطيها الجاحظ من قيمة عملية إذ أن أهمية المؤمنين إيماناً مبنياً على العقل لا تقتصر على فهم العقيدة وحسب[1].

ويبين الجاحظ أصناف العوام الموجودين في المجتمع، فهم من الحشوة ورذال الناس والصناع والباعة والأكراد في الجبال وسكان الجزائر في البحار والببرو والطيلسان وموقان وجيلان

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 278–280.

والزنج وأشباه الزنج[1]، وسقاة الخمر في مجالس اللهو[2]، والاكرة (هو كل من يكري دابته بالاجر) [3].

ويضيف إلى أن السعادة التي يبتغيها الإنسان تعتمد على مدى الإنسجام بين الأمور وتصرفها وأسباب تنقصها[4]. والخاصة أقلية في كل أمة (ومختار كل زمان وأن كثروا فهم أقل عدداً وإن كانوا أكثر فقهاً)[5]، ومركز الخاصة يعتمد على تأييد العامة الذين هم أكثرية أما وجود الخاصة فضرورة ماسة لأن (لو كانت العامة تعرف من الدين والدنيا ماتعرف الخاصة كانت العامة الامتحان وبطل الاختبار ولم يكن في الارض اختيار) [6].

أما عن الإمامة فيرى الجاحظ مسألة استحقاقها هو أن الاختلاف بين الناس هو الذي يؤدي الى الإئتلاف وإن التحاسد بين الأشباه يؤدي بالتالي إلى التفاسد، فيقول في رسالته في مناقشة (استحقاق الامامة): (لايجوز أن يلي أمر المسلمين على ظاهر الرأي والحزم والحيطة أكثر من واحد لأن الحكام والسادة اذا تقاربت أقدارهم وتساوت غايتهم قويت دواعيهم إلى طلب الإستعلاء واشتدت منافستهم في الغلبة وهكذا جرب الناس من أنفسهم في جيرانهم الأدنويّن في الأصهار وبين الأعمام والمتقاربين في الصناعات كالكلام والنجوم والطب والفتيا والشعر والنحو والعروض والتجارة والصباغة والفلاحة، فإنهم إذا تدانوا في الأقدار وتقاربوا في الطبقات قويت دواعيهم إلى طلب الغلبة واشتدت جواذبهم في حب المباينة والاستيلاء على الرياسة ومتى كانت الدواعي أقوى كانت النفس إلى الفساد أميل والعزم أضعف وموضع الروية أشغل والشيطان فيه أطمع)[7].

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 1، 137.

[2] م. ن، ص 94.

[3] م. ن، ج3، ص 68.

[4] الجاحظ، العثمانية، ص 251-252.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 315.

[6] الجاحظ، العثمانية، ص 256.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 303

يتميز من هو أحق بالسلطة قبل كل شيء بملكه: العقل " فإن قالوا: فما صفة افضلهم؟ قلنا ان يكون اقوى طبائع عقله ثم يصل قوة عقله بشدة الفحص وكثرة السماع ثم يصل شدة فحصه وكثرة سماعه بحسن العادة فإذا جمع إلى عقله علماً وألى علمه حزماً وإلى حزمه عزماً فذلك الذي لا بعده"[1].

أكد الجاحظ أن العقل هو وكيل الله بين البشر" على أن العقل يجب أن يعضده العلم والعمل " وقد أجمع الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك"[2]،وإن القوة التي تمتلكها العامة –عند الجاحظ– قوة غير مسؤولة فهي أكبر إفساداً من أية قوة أخرى وهذه القوة تصبح أشد فعالية حين توجهها جماعة معينة وهو يقريان أهل السنة كانت لهم الغلبة عند العوام ولكنه كمعتزلي ينقم عليهم ويعتبرهم قد أضلوا العامة سواء السبيل لكن العامة خذلتهم أيضاً)[3].

ويرى الجاحظ أن الغلبة للمتكلمين وللمعتزلة بصورة خاصة وإنهم يهدون الناس إلى السبيل وقد عبر الجاحظ عن رأيه هذا بشكل واضح وقوي في كثير من مناقشاته،إذ يقول وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة ونعوذ بالله من الهذر والتكلف وانتحال ما لا أقوم إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل[4].

ويعتني المؤرخون بوصف وتحليل هذه الطبقة، إذ يعتيرون المغنين والأطباء والشعراء من ضمن العامة، فيتناول في مؤلفاته طبقة الأدباء (المعلمون)، والمغنيين والجواري بأنواعها.

يعد المعلمون من العامة المقربين إلى الخلفاء، لقيامهم بتثقيف أبنائهم، ويبين الجاحظ أن المعلمين كانوا على نوعين، فمنهم من ارتفع من تعليم أبناء العامة إلى الخاصة، ومنهم من ارتفع عن

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 305

[2] م. ن، ج 1، ص 91.

[3] م. ن، ص 283.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 206.

تعليم الخاصة الى أبناء الخلفاء أنفسهم[1]، واشتق اسم المعلم من العلم، والمؤدب من الأدب، كما بين الجاحظ بأن العلم هو الأصل والأدب هو الفرع، فهو المأخوذ من الروايات التي كانت سائدة بين أفراد المجتمع[2].

ويذكر أن اهتمام المعلمين إنصب على تعليم أبناء الخلفاء فقسموا تعليمهم إلى مراحل، إذ اعتنوا في بداية الأمر، بالقراءة والكتابة والحساب والفرائض وما جاء في القران والسنة، ثم انتقلوا إلى تعليمهم النحو والعروض والأشعار، ثم الألعاب التى تشجع على الفروسية كاللعب بالرماح والسيوف والمطاردة والمشاولة، وتعلموا أيضاً النجوم واللحون والطب والهندسة والنرد والشطرنج، وطرق الضرب على الدفوف والأوتار،والمزامير، بينما تعلم أبناء العامة أعمال الفلاحة والنجارة والبنيان والصباغة وأنواع الحياكة، وتقليد أصناف الطيور والحانها[3]، وكان المعلمون يحصلون على أجر مقابل تعليمهم للصبيان[4]. كما يقوم بمعاقبة من يتهاون من تلاميذه ويعاقبهم على الفرار، كما يخلق نوع من المنافسة بين طلابه، لتكون طريقة في تشجيعهم على الحفظ[5].

ويصنف الجاحظ رسالة أطلق عليها اسم المعلمون بين فيها الصفات الجيدة والسيئة التى يحملها المعلم[6]، ومن صفاتهم الجيدة أن طبع عقولهم قريبة من الصبيان، ويدل ذلك على قدرتهم على التحدث مع أصحاب العقول الأقل منهم، وقيل بأن الإنسان البالغ هو من يستطيع النزول بألفاظه ومخارج حروفه إلى مناجاة الصبيان[7]. ومن الصفات السيئة للمعلمين حسب ما ورد عند الجاحظ، بأنهم حمقى يسيرون وراء المشاعر، مستنداً في ذلك لما شاهده من معلم يبكي على امرأة توفيت قد عشقها من قول الشعر دون أن يراها[8].

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 1، ص250. الرسائل، ج 1، ص30-31. انظر: الكروي، ابراهيم، طبقات، ص 86.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص34.

[3] م. ن، ص32.

[4] الجاحظ، البيان، ج 1، ص403.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 35.

[6] م. ن، ص48.

[7] م. ن، ص37.

[8] الجاحظ، البيان، ج1، ص250.

ويورد الجاحظ هنا عدد من المعلمين الذين نالوا شهرة كبيرة، ومن هؤلاء عبد الله بن المقفع الذي كان مهتماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة وفي اختراع المعاني وقول السير والشعر، ولديه المقدرة على الدخول على مواضع الطعن بين المتكلمين[1].

وفي أسفل السلم الاجتماعي في المجتمع العباسي، يظهر الرقيق والجواري والخصيان والخدم فهم يندرجون تحت الطبقة العامة، واعتبروا من أفضل أنواع الغنائم التي يحصلون عليها عن طريق السبي خلال الفتوحات الإسلامية، فيقول الجاحظ عنهم بأنهم رأس الثروة للتجار، لشغف الناس باقتنائها، فظهر من يتاجر بها وأطلق عليهم النخاسون[2].

وقدعنيّ الجاحظ بهذه الطبقة عناية خاصة، إذ انفرد بالحديث عنها في رسائل عدة مثل " مفاخرة السودان على البيض"[3] و"النساء"[4] و"مفاخرة الجواري والغلمان"[5] و"القيان"[6]، كما تناول وضع الخصيان في مواقع متعددة ومتفرقه من مؤلفاته، موضحاً أن للرقيق تجارة لها قواعدها وأصولها يتبعها كل من البائع والمشتري، موضحاً بأنها كباقي التجارات التي تقع عليها المساومات والمشاورة بالثمن، فيحتاج كل من البائع والمبتاع لخيار الرؤية المشترط في جميع البياعات، مع إنها لا تباع بكيل ولا وزن ولا عدد ولا مساحة، وإنما تعرف بالحسن والقبح، فهي تحتاج إلى صاحب النظر الثاقب الماهر في بصره والعارف بصناعته، فان أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره [7]. كما سمح للمشتري تقليب الرقيق والنظر إليهن ومغازلتهن ومصافحتهن[8].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص44.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص133. انظر: زيدان، جرجي، تاريخ، ج5، ص 5.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 173—225.

[4] م. ن، ج 2، ص 90-137.

[5] م. ن، ج 3، ص 137- 159.

[6] م. ن، ج 2، ص 143-181.

[7] م. ن، ص 161-162

[8] م. ن، ص 163.

أقبل التجار(النخاسون) على شراء الجواري من مناطق وأقاليم مختلفة، فهناك جواري من بلاد الهند والسند والكوفة والبصرة ومصر وبلاد الروم والحبشة والزنج وتركيا[1]، متمتعه كل منها بصفات بلادها، إذ يتصفن بالجمال الباهر وبنقاء اللون وحسن الاعتدال وجودة القوام[2]، فمنهن الأبيض الآتيات من عنصري الترك والصقالبة، والعبيد السود التي جلبوا من بلاد النوبة والحبشة والصومال[3]، وكان بالكوفة نتاج بين الخراسانية والكوفية كانت ألوانهن تميل إلى الذهبية، ويتصفن بالحلاوة الهندية والروعة الخراسانية[4]، وقال عن البصريات " أنهن الثمينات المرتفعات والغوالي الخطيرات"[5]، وهناك النوع الذي جلب من مصر وأطلق عليه اسم "البغلات"، فهو عبارة عن تزاوج الصقالبة مع نوع اخر من العبيد، وأعاد الجاحظ سبب التسمية لما يتصفن به من الشحم والسمنة الزائدة[6]، وتميل ألوان جواري الكوفة والبصرة الى الزرقة[7].

ويعزو الجاحظ سبب انتشار الجواري في العصر العباسي، إلى ما يجمعن به من عز العرب ودهاء العجم، فكانت الجارية تكفي صاحبها من نفقتها، اذ يقوم العاشق لها بإرسال الهدايا والطعام والشراب إلى بيت سيدها [8]، حتى قالت العرب:"من أراد من الناس قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة، فعليه بالإماء دون الحرائر"[9].حيث كان الرجال يميلون إلى الجواري لرؤية جمالها، قبل الزواج، بعكس الحرائر، التي توصف لهم عن طريق النساء التي لا يبصرن في حاجات الرجال والجمال، فالرجال بالنساء أبصر[10]. فذكر الجاحظ في رسائله:"لو نظر من مات من الشعراء الى الجواري، التي تشترى اليوم بالمال لنبذوا بثينة وليلى"[11].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 288.

[2] م. ن، ص 120–122، 95.

[3] انظر: سعد، فهمي، العامة، ص69.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 288.

[5] م. ن، ص 288.

[6] م. ن، ص 281.

[7] م. ن، ص 288.

[8] الجاحظ، المحاسن، ص 230–231. الرسائل، ج 2، ص177.

[9] الجاحظ، المحاسن، ص 230–231.

[10] م. ن، ج 3، ص 157.

[11] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص104–105.

ويبين الجاحظ أن الهدف من الجواري هو تقديم الخدمة لميسوري الحال، فعمل الفقراء على أن يكون لهم جواري وغلمان، فكانت ربات البيوت تقتني الجواري ليساعدنها في خدمة بيـــوتهن[1]، وكان لهن دور في (بيوت الكشاخنة)[2]، بأن عليها مظهر الفساد الخُلقي، وذكر الجاحظ أن القيان كن يحذقن أموراً خاصة بصنعهن مثل حذقهن الغناء والشعر الفاضح المكشوف[3]، ولاتقف القينة عند هذا الحد، إنما لا تنفك تعمل في الاستزادة منه حذقاً لصنيعتها ولم يكن هناك شاغل يشـــغلها غير حذق هذا الفن وسبك هذه الصنعة " لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاعل بما هي فيـــه وعلى حساب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن يلي مجالستها عليه وعليها [4].

وكانت بعض الجواري في العصر العباسي يحرصن على التعلم، فهذه جارية ســـلموية طبيـــب المعتصم تنافس رجلاً في قراءة كتاب (أقليدس) فتفرغ من قراءته بينما الرجل لم يحكم بعد مقالة واحدة منه[5] ومن هؤلاء الجواري من كن ينزلن من الخلفاء منزلة خاصة، فقد تقف الواحدة منهن على رأسه تذب عنه وتروحه وتعاطيه أخرى في مجلس عام بحضرة الرجال[6]. كما يحدثنا عن المقين وحذقه في صنعته وكيف أنه يأخذ الجوهر ويعطي العرض في ســـوق القيـــان وأن مـــا يعودعليه من كسب وفائدة بفضل ما يجنيه صاحب القيان نفسها[7].

تعد القينة نوع من أنواع الجواري اللواتي جلبن من بلاد السند إذ اتصفن بحسن الخلق [8]، وظهر منهن حيل وأساليب لكسب الرجال وميلهم لهن، فهن يتمتعن بعذوبة الصوت [9]، فغنائها من الحيل المتبعة لايقاعهم، وتقول الشعر وتلحنه وتغنية لمغازلتهم[10]، وتقوم بكتابة الرسائل لمن تعشـــقه،

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 224.

[2] م. ن، ج 2، ص 175.

[3] م. ن، ص 176.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 177. المحاسن، ص 198.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 54. الرسائل، ج 2، ص 175.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 155.

[7] م. ن، ص 178.

[8] م. ن، ج 1، ص224.

[9] م. ن، ج 2، ص172.

[10] م. ن، ص171.

وتختمه بالزعفران وتشده في قطعة زير، لاخفائة عن سيدها، وترسل معه خصلة من شـــعرها، وتهدي إليه في الأعياد السكر أو خاتم، ونقشت عليه اسمه، لذلك شبهت بالشيطانة، لقدرتها على استمالة أربعة رجال في الوقت نفسة [1].وقد يقدم الرجل على بيع ضياعه او يستقرض المـــال، للحصول على واحدة منهن [2].فقيل بأنها " لا تناصح في ودها، لأنها مكتسبه ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم، وغازلتـــه فـــي أشعار الغناء..، وإذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه، وإنه قد تعقل في الشرك، تزيدت فيما كانت قد شرعت منه، وأوهمته أن الذي بها أكثر مما به منها " [3].

3. الغلمان

وفي العصر ظهر من يهتم بالغلمان ويفضلهم على الجواري في البيع والشراء، إذ اهتم الخلفـــاء بشرائهم وهم صغار السن، لينشؤوا كما يريدون، متفاخرين بكثرة أعدادهم داخل قصـــورهم [4]، فوكلوا لبعضهم العديد من الأعمال الخاصة بالدولة، ووصل بعضهم إلى مراتب الجيش والبريد[5].

وقد تفاخر العباسيون في مدى تواجد الجواري والغلمان في قصورهم، وبين الجاحظ صفاتهم من خلال المقارنة بينهم وبين الجواري ففضل "صاحب الغلمان " الغلام لتمتعه بالنقاء وحسن الوجه، بينما بين "صاحب الجارية " بأن نقاء الغلام لم يبق الا لمدة عشر سنوات لاتصال لحيته، بعكس الجارية التي تبقى في بنظارتها مدة أربعين عاماً [6]. ومـــن شـــدة تفـــاخرهم بالغلمـــان كـــانوا يستخدمونهم في مجالسهم للزينه، إذ يلبسون الثياب الأنيقة ذات الأثمان الغالية، ويعـــد الخليفـــة محمد الأمين أول الخلفاء الذين فعلوا ذلك [7].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 171–175.

[2] م. ن، ص178، 165

[3] م، ن، ج 2، ص 171–172.

[4] الجاحظ، الملوك، ص 215. انظر: زيدان، جرجي، تاريخ، ج (5)، ص 4.

[5] الجاحظ، الملوك، ص 215.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص120–122.

[7] زيدان، جرجي، تاريخ، ج(5)، ص 4.

وإلى جانب ذلك فقد قدم الأدباء الغلمان على الجواري، دارجين في وصفهم [1]، فإذا أرادوا وصف جارية حسناء اطلقوا عليها "وصيفة غلامية "[2].فظهر العديد من الشعراء يوصفون الغلام وحسن جماله وألفاظه فساعد ذلك على انتشار ظاهرة "اللواط " والتفاخر بها [3]، فقالوا:[4]

ما العيش الا في جنون الصبا فان تولى فزمان المدام

كأسا اذا ما الشيخ والى بها خمسا تردى رداء الغلا

ويشير الجاحظ إلى مساوئ الغلمان، فذكر أنهم شديدي الحقد لمن يتعرض لهم بالسوء، ويوجه لهم الإهانات، إذ قام غلام برمي أبناء مولاة عن سطح البيت لما تعرض له من ضرب، وإهانه من جهته[5]. لهذا حرص التجار على التأكد من سلامة العبد عند شرائه، فقيل "إن العبد إذا شبع فسق، وإن جاع سرق " [6].

وعدا عن ذلك كله، فقد اشتهر غلمان السند بالعمل عند الصيادلة ومنهم من عمل كفراشين، واستخدم الغلمان الزنج مع الرقاصين والزمارين والملهين، بينما استخدم غلمان الروم وخصيانهم في رعاية الإبل وتعهد فرش الدور وأثاثها وكان الغلمان الأحداث يعملون في خدمة دور اللهو ويقدمون الزهور للاهين[7].

ب. عناصر السكان

تكون المجتمع العباسي من عنصرين هما العرب والعجم، الذين ينتمون إلى أمم مختلفة وهم الفرس والترك والزنج والهنود، الذين كان لهم تأثير في البيئة الاجتماعية للدولة العباسية لاختلاف أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم عن بعضهم البعض[8]، فاندمجوا بالحضارة العباسية

---

[1] الجاحظ، الرسائل (4)، ص105.

[2] م، ن، ج(2)، ص120-122.

[3] م، ن، ج(4)، ص 113.

[4] م، ن، ج(4)، 106—117.

[5] الجاحظ، الملوك. ص186-187.

[6] الإبشيهي، المستطرف، ج 2، ص 102.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 195.

[8] انظر: الطريفي، هويدا، ملامح، ص77

والتحقوا بجيشها، وتمتعوا بصفات قتالية بارعة، مما كان لهم أثراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية [1].

يعتبر العرب أساس المجتمع وأصحاب الدولة، وهم أمة واحدة تربطهم علاقات متينه كاللغة والأخلاق والنسب والتصاهر، فذكر الجاحظ:" أن العرب كلهم شيء واحد لأن الدار والجزيرة واحدة والأخلاق والشيم واحدة واللغة واحدة وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق من جهة الخؤولة المرددة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء، فهم في ذلك وبذلك شيء واحد في الطبيعة واللغة والهمة والشمائل والمرعى والراية والصناعة والشهرة ".

تمثلت تلك الأجناس في أقسام جند الخلافة الخمسة، وهم عربي وخراساني وتركي ومولى (وهو الأعجمي الذي وقع في الأسر وأصبح عبداً للعربي)، وبنوي (وهو من كان أبوه فارسياً وأمه عربية)، إذ حمد الله وشكره على نعمه التي وفق الله هذه الأقسام وألف بين قلوبهم، بالرغم من اختلاف أجناسهم وأهوائهم [2]، وأشار الجاحظ إلى الرابطة الجامعة التي توحدهم وهي الطاعة والمحبة الدينية، موضحاً بأن العنصر التركي هو العنصر الذي غلب على باقي الأقسام، وبالأخص في عهد الخليفة المعتصم بالله [3].

1. العـرب

يلاحظ القارئ لمؤلفات الجاحظ بأنه ميالاً ومدافعاً عن القومية العربية، وذلك من خلال مهاجمته لآراء الشعوبية التي كان لها صدى في ذلك العصر، فيرى بأن القومية العربية جاءت في التربية واللغة والشمائل والهمم والحمية والأخلاق السجية وهم قالب واحد، إذ أصبحت هذه الأسباب

[1] انظر: محمد، اسماعيل، العناصر، ص 5.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 9.

[3] م، ن، ص 9-10.

سبباً في التصاهر فيما بينهم[1]، وتأثروا أيضاً بلهجات باقي العناصر، فمنهم من تكلم باللكنة الرومانية[2]، وبالفارسية[3].

ويرى الجاحظ أن اللغة هي العامل المشترك والرئيس في القومية العربية، وإعطائها بعداً إنسانياً وحضارياً كبير[4]، ووصف العرب بأنهم أهل الفصاحة والبلاغة وحاضنين للأدب والحكمة والعلم والأخلاق، مستخدمين الأدلة والأمثال في كلامهم[5]، بارعين في قول الخطب عن طريق البديهة والارتجال متميزة بديباجة كريمة ورونق عجيب[6]، وبرعوا في قول الشعر[7] الموزون وكلامهم المنثور وأقوالهم المأثورة[8].

وبرع العرب أيضاً بالكهانة والعرافة والخطاطة (يرسم الخطوط على الأرض ليعرف الغيب) والعياف (التفاؤل بأسماء الطير)[9]، وتفاخروا لمعرفتهم في علم الفلك والنجوم وما يدل عليها من سعادة أو نحس والاثار والأرض، فقال:" وصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس، فقال قائل لشيخ عبادي كان حاضراً: أما ترى هذا الأعرابي يعرف من النجوم ما لا نعرف، قال: ويل أمك من لا يعرف أجذاع بيته"[10]. ويعد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور هو أول من أخذ بأقوال المنجمين وعمل بها[11].

ويشير الجاحظ إلى أن الله سبحانه وتعالى فضل اللغة العربية عن باقي اللغات لأنه " بعث أفضل الأنبياء وأكرم رسله من العرب، وأنزل عليه قرآناً عربياً، ولم يخص اللسان بالبيان، ولم يحمد

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج (1)، ص 11.
[2] الجاحظ، البيان، ج(1)، ص 69 –72.
[3] م. ن، ص 34–35.
[4] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 273.
[5] الجاحظ، البيان، ج (1)، ص 384–386.
[6] م. ن، ج (3)، ص 28 –29.
[7] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 74–75.
[8] الجاحظ، المحاسن، ص 5 والرسائل، ج(3)، ص 180–181.
[9] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص 88–89.
[10] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص 18– 19.
[11] اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص 33.

بالبرهان إلا عند وجود الفضل في الكلام، وحسن العبارة عند المنطق، وحلاوة اللفظ عند السمع"، لذلك اهتم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بإتقان اللغة فكان أفصح العرب لساناً [1].

وقد خلد العرب مأثرهم كغيرهم من العناصر عن طريق الكتابة، فكتبوا على قبة غمدان والقيروان وباب الرها، وخلدوا أيضاً عن طريق البنيان، فبنوا كعبة نجران وقصر مأرب ومارد، إلا أن الجاحظ لم يتطرق إلى ما بناه المنصور إذ بنى مدينة فنزلها (بغداد) [2].

وعرف عن العرب اهتمامهم بالكتب والكتابة لبقائها على مر الزمان، ومعرفتهم بأن الملوك تحاول طمس آثار ما كان قبلها [3]، فاتجهوا لترجمة العديد من الكتب العجمية في سائر العلوم، كالنجوم والحساب والطب والفلسفة، بالإضافة الى كتب كليلة ودمنة وأرسطو وطاليس وكتب إقليدس [4].

ويفتخر العرب بشجاعتهم ومعاركهم وتميزهم بفنون القتال وما لديهم من أدوات قتالية، فقاتلوا بالرمح الطويل الذي يصيب من أماكن بعيدة، مما يدل على شدة الفارس وقوته [5]، واستخدموا الرمح القصير والقنا للطعن [6]، مستخدمين المكائد أثناء حروبهم، إذ يحضرون الولائم لأعدائهم ويقتلونهم أثناء تناولهم الطعام ويستولون على أموالهم، وقيل كان هناك من الفرسان من كان يطلب قطع إحدى أجزاء جسمه ويرمى أمام العدو، ليحتال عليهم بأنه طرد من بلاده، ويهدف من وراء ذلك كشف ثغرات الجيش، ليقوم بهلاكه [7].واستخدموا كذلك الصوالجة والطباطب والنشاب للقتال [8].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 237 – 238.

[2] اليعقوبي، مشاكلة، ص 34.

[3] الجاحظ، المحاسن، ص 5. اليعقوبي، مشاكلة، ص 33.

[4] اليعقوبي، مشكلة، ص 34.

[5] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 16.

[6] م. ن، ص 16 – 24.

[7] الجاحظ، تنبيه الملوك، ص 107–108 \ 113–115.

[8] اليعقوبي، مشاكلة، ص 36.

ومن صفات العرب الأخرى أنهم أكثر تشابكاً وترابطاً عن غيرهم من الأمم، لما بينهم من قرابة ومصاهرة، فضموا " الأبناء " الذين يشكلون جزء من العناصر التابعة للعرب، الذين يعود أصلهم إلى الفرس الذين جاؤوا مقاتلين إلى اليمن ضد الأحباش قبل الفتح الإسلامي، فتزوجوا من نساء عربيات خلال العصور الإسلامية، وقال:" إن البنوي خراساني وإن نسب الأبناء نسب آبائهم، وإن حسن صنيع الآباء وقديم فعال الأجداد هو حسب الأبناء، وأن الموالي بالعرب أشبه وإليهم أقرب، وبهم أمس لأن السنه جعلتهم منهم " [1]، وتفاخر الأبناء بقدرتهم العالية في القتال والمطاعنة على أبواب الخنادق والمضائق وتشكيل الكتائب وحمل الرايات والبنود والطبول والأجراس [2].

وهناك أيضاً " البنوي "، الذي يعود أصله إلى خراسان من جهة الولادة، إذ يعد الخراساني من الموالي التابعة للعرب، ليكونوا بذلك نسب وتقارب وتشابك واحد [3]. فقيل بأنهم مولودين في أفنية وقصور الخلفاء، لذلك جاءت تربيتهم بعد تربية الخلفاء، فتقلدوا بأثارهم ومثالبهم [4].

وحرص خلفاء بني العباس على دمج البنوي داخل الجيش العباسي [5]، لما يتصف به من قوة وشجاعة في حمل السلاح والتصدي للعدو، فهم يواجهون أعداءهم بالسكاكين والخناجر[6]، والطعن في العيون، فهم أهل الثبات عند الجولة وأصحاب الفتك والإقدام[7]، ويتصفون بقدرتهم على القتال على أبواب الخنادق ورؤوس القناطر والقتال في الأزقة بطريقة علنية في الأسواق والطرقات، ولم يختلف قتالهم في الليل عن النهار [8]، ويصبر المصابون على الجراح وجر السلاح وهو مطعون بهم [9]، وتفاخروا بأنفسهم، حيث قالوا: " لنا القتال عند أبواب الخنادق

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 12.
[2] م. ن، ص 53.
[3] م. ن، ج(1)، ص 25-34.
[4] م. ن، ج(1)، ص 28.
[5] م. ن، ص 62
[6] م. ن، ص 25.
[7] م. ن، ج(3)، ص 185-186.
[8] م. ن، ج(1)، ص27-28.
[9] م. ن، ج(1)، ص 25.

ورؤوس القناطر، ونحن الموت الأحمر عند أبواب النقب، ولنا المواجهة في الأزقة والصبر على القتال في السجون، فسأل عن ذلك الخليدية والكتفية والبلالية والخريبية (أسماء أماكن في البصرة، كان أصحابها من أهل الشغب والفوضى)"[1].

ويبين الجاحظ أن "الموالي"، هم من أشد العناصر العربية اقتراباً من العرب، لاجتماعهم على السنة نفسها أولاً، وتقاربهم بسبب النسب والوراثة ثانياً، فكان احترام المولى من احترام مولاه، فحرمت الصدقات على موالي بني هاشم لمقامهم وشرفهم وسمعتهم أمام القبائل الأخرى [2]، فقالت العرب "مولى القوم منهم"[3].

تطرق الجاحظ الى ذكر الخصال التي يحملها المولى، فهم حاملين خصال الكرم والنبل والشرف، وهم أشد ضميراً وأقل حسداً وحفظاً لسر مولاه[4]، متفاخرين بثقة الخلفاء بهم عند وقوع الشدائد[5]. فلم يفرق الخلفاء بينهم وبين باقي العناصر، إذ خص الخليفة العباسي المنصور مواليه بالبسط والمواكلة والإيناس، وكانوا يشاركونهم في الصلاة على أمواتهم، دون التفريق بين أبيض أو أسود، مما جعل الموالي يقدمون الإحترام والود والوفاء لمواليهم[6].

يذكر الجاحظ كذلك الخصال التي بانت بها قريش من سائر العرب،لأن قُريشاً والعرب قد يستوون في مناقب كثيرة قد يوجد في العرب الجواد والحليم والشجاع، والعديد من الخصال الحميدة، إلا إننا لم نر قريشيا انتسب الى قبيلة من قبائل العرب، ولكن رأينا من قبائل العرب الأشراف رجالاً –الى الساعة – ينتسبون لقريش كنحو الذي وجدنا في بني مرة بن عوف، وكذلك في بني سليم وفي خزاعة وفي قبائل شريفة [7].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ص 28–29

[2] م. ن، ج(1)، ص 12–13.

[3] م. ن، ج(3)، ص 171.

[4] م. ن، ص 182–183.

[5] م. ن، ج(1)، ص 23.

[6] م. ن، ج(3)، ص 184 وج(1)، ص 23–24.

[7] م. ن، ج 4، ص 114.

وبين الجاحظ مدح الشعراء والفرسان والأشراف لقريش، كما يمدحون الملوك، واخذ الشعراء جوائز مقابل مدحهم، ومن بين هؤلاءالشهراء دريد بن الصمة وامية بن ابي الصلت، ومن خصال قريش انهم لم يشاركوا العرب والأعراب في شيء من جفائهم وغلظ شهواتهم وكانوا لا يأكلون الضباب ولا شيئا من الحشرات لأنهم وانهم لم يكونوا يحرشون الضباب ويصيدون اليرابيع ويملون القنافذ أصحاب الخمر.

والمعروف أن العرب كانوا يردون مكة في أيام الموسم (موسم الحج)، كما يردون أسواق عكاظ وذا المجاز وتقيم هناك الأيام الطوال، فتعرف قريش لاجتماع الاخلاق لهم والشمائل والالفاظ والعقول والاحلام وهي وادعة وذلك قائم لها راهن عندها في كل عام تتملك عليهم فيقسمونهم وتكون غطفان للميرة وبنو عامر لكذا وتميم لكذا تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها وقال ولم يكن لعبد المطلب في قريش نظير كما انه ليس في العرب لقريش نظير وكما انه ليس للعرب في الناس نظير وذلك حين أم تكن فيه خصلة اغلب من اختها وتكاملت فيه وتساوت وتوافت اليه فكان الطبع في وزن المعرفة فقالوا عند ذلك سيد الأبطح وسيد الوادي وسيد قريش واذا قالوا سيد العرب فقد قالوا سيد الناس ولو كان مثل الاحنف الذي برع في حلمه وبرع في سائر خصاله لذكروه بالحلم ولذلك ذكر قيس بن زهير" في الدهاء والحارث بن ظالم في الوفاء وعتيبة بن الحارث في النجدة والثقافة [1].

ويشير أن قريشاً من بين جميع العرب دانوا بالتحمس وتشددوا في الدين فتركوا الغزو ولم تبق مكسبة سوى التجارة فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم وإلى النجاشي بالحبشة وإلى النساء، واخذ الأموال فكانت نجدتهم وإن كان أنقص فإنها على حال النجدة وذلك بقية، وأخذ الأموال فكانت نجدتهم، ولهم فيها بقية وتركت قريش الغزو بتة فكانوا مع طول ترك الغزو –إذا غزو كالأسود مع الرأي الأصيل والبصيرة النافذة أفليس من العجب ان تبقى نجدتهم وتثبت بسالتهم ثم يعلون الانجاد والاجواد ويفرعون الشجعان؟ وهاتان الاعجوبتان بينتان![2].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص117–119.

[2] م، ن، ص 127.

أما الشعوبية فقد وصفوا بأنهم شديدي التعصب للعناصر غير عربيـــة، مثـــل الفـــرس والهنـــد واليونان، لاعتبارهم أهل اللغة والبيان والبلاغة، واحتواء كتبهم على غرائب الأمور، والعديد من الصناعات والآلات والحكم والعبر [1]، بعكس العرب البعيدة عن العلم والمعرفة وقـــول الشـــعر، وأطلقوا على العرب اسم "رعاة الإبل والغنم "، فهم لا يدركون سوى حمل العصا والإشارة بهـــا عند التحدث [2].

وتصدى الجاحظ لظاهرة "الشعوبية " وهم قوم متعصبون على العرب مفضلون العجـــم علـــيهم، ظهرت في بداية القرن الثالث للهجرة نتيجة لمعاداتها الشديدة للعرب، وللتمـــرد علـــى الواقـــع الاجتماعي السائد في عهد الخلفاء العباسيين، وعدم تحقيقهم لمبادئ العدالة والمساواة التي ينادون بها بين الأجناس والأمم[3]، إذ اطلقوا على أنفسهم اسم "طائفة الأحرار"، بينما أطلق مناصـــريهم عليهم اسم "الرجل الحر "[4].

ويتناول الجاحظ الأفكار التي أطلقتها الشعوبية ضد العرب، التي ارتكزت على عادات وتقاليـــد وطرق عربية موروثه وبسيطة في حل النزاعات والخصومات كجلوسهم علـــى ركـــبهم أمـــام القضاة[5]. وأخذ الخطباء" المخصرة (شيء يأخذه الرجل بيده ليتكئ عليه كالعصى) عنـــد مناقلـــة الكلام..... ولزوم العمائم في ايام الجموع..والجلوس في خطب النكاح، والوقوف فـــي خطـــب الصلح، والتعاقد على الملح....." [6].

وكانت الشعوبية قد وجهت انتقادا للمسلمين لعدم تطبيقهم مبادئ المساواة التي ينادون بهـــا بـــين الأجناس، فذاعوا صفات وأقوال غير صحيحة عن العرب والمسلمين، كعدم معـــرفتهم بـــآلات

---

[1] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 14.
[2] م. ن، ص 14.
[3] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص73.
[4] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص14.
[5] م. ن، ص6.
[6] م. ن، ج 3، ص 6-7.

الحرب والقتال وطرق استخدامها وفنون القتال وتقسيم الجيش كباقي الأمم، ليظهروا عدم شجاعتهم في العديد من الحروب [1].

بالرغم مما لعبته الشعوبية من دور في كسب تأييد العامة، بسبب تمردها على الواقع السائد، إلا أن الجاحظ لم يتطرق إلى ذكر تفاصيل دقيقة عن هذه الفرقة، لأنها تعد من الفرق المعادية للسلطة الحاكمة، ويبدو إنه لم يستطع ذلك حتى لا يشوه صورة الخلفاء، ويبين مدى استهتارهم بالأمور، وسعيهم وراء الملذات.

2. الفرس

ضمت الدولة العباسية شعوباً عديدة مختلفة في الأصل واللغة والأخلاق، ولم يستطع الإسلام أن يصهرهم بشكل كامل ليسيروا على مبادئه، فظل كل شعب بتراثه وماضيه ولغته وعاداته وتقاليده التي جاء بها، فكان من أهم تلك الشعوب الفرس، إذ شكلوا البنية الأساسية والجزء الحيوي في بناء المجتمع العباسي، إذ يعدوا من أكثر الأمم اختلاطاً بالعرب، وأكثرهم تأثراَ ببعضهما البعض، فرصد الجاحظ التمازج الذي حصل بينهم وبين العرب في المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية والعسكرية كافة [2]، وتقسيمهم في جند الخلافة الخمسة وهم خراساني ومولى وعربي وبنوي لذلك فيقول " إن جند الخلافة اليوم على خمسة أقسام: خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي وأنه أكثر من حمد الله وشكره على إحسانه ومننه على جميع أياديه وسابغ نعمه وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة والأجناس المتباينة والأهواء المتفرقة وإنك اعترضت على هذا المتكلم المستبد وعلى هذا القائل المتكلف الذي قسم هذه الأقسام وخالف بين هذه الأركان وفصل بين أنسابهم وفرق بين أجناسهم وباعد بين أسبابهم [3].

---

[1] الجاحظ، البيان، ص 13-18.

[2] أنظر: صورة الفرس في بخلاء الجاحظ. المجالي، رابعة، صورة الأقوام، مجلة حوليات اداب عين شمس، مج(40)، ص106.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 9.

ولم يلحظ الجاحظ نسبة الاقسام الى بعضها البعض وغلبة العنصر التركي عليها في عهد المعتصم والبنوي من كان ابوه فارسيا وامه عربية فهو مولد (اصل خراساني)، والمولى هو أعجمي الأصل الذي وقع في الأسر أو السبي وأصبح عبداً للعربي.

ويشير الجاحظ الى اللحمة الجامعة التي نادى بها العباسيون لتكون رابطة توحدهم وهي الطاعة والمحبة الدينية، ولهذا اعترض البعض على هذا التصنيف، واتهمه بالاستبداد بالراى والتفرد به وبالتعسف في المعاني وقال الجاحظ انهم متفقون. ولاحظ كيف يوفق الخراساني والتركي انهم اخوان لأن بلادهم متقاربة.

وكانت الأعراق في البدء متشابهه وتمثل ذلك في قوله (وانك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار وقذعته أشد القذع وزعمت إنهم لم يخرجوا من الإتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق وإنك انكرت التباعد في النسب والتباين في السبب وقلت: بل أزعم أن الخراساني والتركي إخوان وأن الحيز واحد وأن ذلك الصقع متفق غير مختلف ومتقارب غير متفاوت وأن الأعراق في الأصل إن لا تكن (كانت) راسخة فقد كانت متشابهه وحدود البلاد المشتملة عليهم أن لا تكن متساوية فإنها متناسبة وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض الخصائص فافترقوا ببعض الوجوه وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي والزنجي والحبشي فضلاً عما هو أبعد جوهراً وأشد خلافاً بل كاختلاف مابين المكي والمدني والبدوي والحضري والسهلي والجبلي وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي السهلي)[1].

وبهذا يقول إن العرب أمة واحدة رغم اختلاف اللغة بين عدنان وقحطان وتميم وقيس وهوازن ويعني باختلاف اللغة واختلاف اللهجات وهذا ما يفسر قوله إن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصور فقد تحالفت عليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللغة وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن وكذلك في الصورة والشمائل والأخلاق وكلهم مع ذلك عربي خالص غير مشوب ولا معلهج ولا مذرع

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 9-10

ولا مزلج ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان من قبل ما طبع الله عليه تلك البرية من خصائص الغرائز وما قسم الله تعالى لأهل كل جيزة من الشكل والصورة وفي الأخلاق واللغة [1].

ويتحدث الجاحظ عن العنصر الجنسي البنوي الخراساني الأصل لأن نسب الأبناءمن نسب آبائهم، ويحدد معنى الأبناء، فهم أبناء الفرس الذين جاؤوا مقاتلين إلى اليمن لنصرة ابن ذي يزن ضد الأحباش قبل الفتح الاسلامي، وقد أقام هؤلاء المقاتلون هناك وتزوجوا من نساء عربيات فسمي أولادهم أبناء، ويمكن أن نعمم هذا الحكم على جميع الأولاد الذين ولدوا من آباء فرس وأمهات عربيات في العصر الاسلامي والأموي والعباسي وتمثل هذا في قوله (إن البنوي خراساني وإن نسب الأبناء نسب آبائهم وإن حسن صنيع الآباء وقديم فعال الأجداد هو حسب الأبناء وإن الموالى بالعرب أشبه وإليهم أقرب وبهم أمس لأن السنة جعلتهم منهم)[2].

واشار الجاحظ الى ان الخراسانيين يؤكدون فضلهم على العباسيين لنصرتهم لهم ضد الأمويين عندما ثاروا بقيادة أبي مسلم الخراساني وزحفوا نحو الشام لإسقاط الدولة الأموية ويذكرون الرتب العسكرية التي تدل على تنظيمهم من نقباء ونجباء وخندقية وكفية والزغندية والازاذمردية[3].

ويبين تفضيل الخراسانيين على جند الشام العرب فقال على لسانهم " ونحن قوم لنا أجسام وأجرام وشعور وهام ومناكب عظام وجباه عراض وقصر غلاظ وسواعد طوال ونحن أولد للذكورة وأنسل بعولة وأقل ضوى وضؤولة وأقل إتاما وأنتق أرحاماً وأشد عصباً وأتم عظاماً وأبداننا أحمل للسلاح وتجفافنا أملأ للعيون ونحن أكثر مادة وأكثر عدداً وعدة. فليس لأحد بعد عاد وثمود والعمالقة والكنعانيين مثل أيدنا وأسرنا وألوان خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف حلبة واحدة لكننا أكثر في العيون وأهول في الصدور ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا وبنودنا التي لا يحملها غيرنا علمت إننا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان[4].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 10-11.

[2] م. ن، ص 9-12.

[3] م. ن، ص 14-15.

[4] م. ن، ص 18-20.

ويقدم صورة واضحة عن سلوك الفرس وملوكهم متناولاً عاداتهم وطرقهم في أيام الأعياد والمناسبات، فهم شديدي التطلع إلى إحياء المجد الفارسي القديم، فرصد احتفالاتهم في شهر النيروز الذي يعد من أشهر أيام السنه عندهم، إذ يعم فيه الفرح والسرور ويغنون أغاني الربيع، وأغاني لوصف ومدح الملوك وأبنائهم وذكر شجاعتهم أثناء الحروب، وقد تشتمل أغانيهم على أغاني تستعطف الملك [1].

وتحدث الجاحظ عن ملوك الفرس واهتمامهم بأيام النيروز، ففيها يستعيدون حكمهم وسلطتهم على الرعية ويحافظون على ملكهم، فهم يجلسون في هذه الأيام للنظر في شكاوي ومظالم العامة[2]، مقسمين أيام الشهر بين فئات المجتمع يبدؤون بالأشراف وصولاً الى الجند وما يرفع منهم الرقاع ضد الخاصة [3].ويبدو أن الجاحظ أراد أن يوضح عدم تكبر الفرس وملوكهم على الناس وابتعادهم عن ظلم الرعية، فكانت روايته واضحة عندما بين جلوس الموبذ الكبير "قاضي القضاة"، وراس سدنة بيوت النار للنظر في الرقاع، فيبدؤون بالشكاوي المرفوعة ضد الملك ثم خاصته[4]، اذ يقوم الموبذ برفع الظلم عن المشتكي[5]، والفصل بين الملك والرعية ويعطى كل ذي حق حقه دون الخوف من الملك [6]، وقيل بأن الخصم يقول للموبذ "هذا مجلس منك وأنا عبد ذليل شبيه مجلسك غداً بين يدي الله سبحانه وتعالى فإن آثرت الله وعملت بالحق آثرك وان أثرت الملك غيرك"[7]، ويقال بأن الملك يأمر الموبذ ورجال ثقات للوقوف على بابه حتى لا يحجب عنه جاهل أو شريف أو صغير أو كبير[8].

خلدت العجم (الفرس) آثارهم بالبنيان والصروح وبناء القصور والجسور والقناطر، مهتمين بوضع القباب الخضر والنواويس والحمامات والشرف على جدران بيوتهم، بالإضافة لوضعهم

---

[1] الجاحظ، المحاسن، ص 212.

[2] الجاحظ، التاج، ص268-269.

[3] الجاحظ، المحاسن، ص 211.

[4] الجاحظ، التاج، ص268-272.

[5] م. ن، ص268-269.

[6] الجاحظ، تنبيه الملوك، ص 95.

[7] م. ن، ص 95.

[8] الجاحظ، التاج، ص 268-269.

العقد على الدهليز[1]، فهم بعيدين عن بناء البيوت والحيطان المائلة الرفيعة المركبة مع بعضها البعض[2]، وخلدوا ماثرهم أيضاً عن طريق تدوين الحكم، فكتبوا على الصخور ونقشوا على الحجارة لإحياء أمر من أمورهم وبقائه على مر الزمان[3].

ويعتبر الفرس من أخطب الناس لعذوبة كلامهم وسهولة مخارجهم، كما كان لهم دور كبير في صناعة البلاغة إذ يعد كتاب "كاروند " من أهم الكتب الفارسية التي تتحدث عن اللغه والغريب وسير الملوك، كما يحتوي على الألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة[4]، إذ اعتبر أهل القصبه من الأهواز من أفصح الفارسيين في اللغة الفهلوية، واللغة الدرية (وهي لغة فارسية قديمة) [5]، وأخذ الفرس من ألفاظ أهل المدينة، أثناء مخالطتهم وتعاملهم معهم[6].

وبالرغم مما أوردة الجاحظ من مدح للفرس، إلا أنه تحيز للعنصر العربي موضحا فضلهم في اللغة وقول الخطب، بعكس الفرس الذين كان كلامهم منقولاً، مستنداً في كلامه لعدم اهتمامهم بالأنساب واستخدامها في المجالس والخطب[7].

كان للفرس دوراً في الحياة العسكرية في عصر الخلافة العباسية، لقدرتهم على التخلص من أعدائهم دون الوقوع في خسائر كبيرة[8]، مستخدمين في القتال القدوم والطبرزينات(فأس للقتال) والسكاكين والسيوف والمشامل (سيف قصير)[9]. وعمدوا إلى استخدام الحيوانات في الحروب إذ قاموا بتدريب الفيل على القتال من خلال ربط السيف في خرطومه[10].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص77. انظر:المجالي، رابعة، صورة الاقوام، مجلة اداب عين الشمس، م(40)، ص 109

[2] الجاحظ، الرسائل، ج(4)، ص 105.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص 77.

[4] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 14.

[5] م. ن، ص 13.

[6] م. ن، ج(1)، ص 19.

[7] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 29. البخلاء ج(2)، ص 126.

[8] الجاحظ، تنبيه الملوك، ص 76.

[9] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 93.

[10] الجاحظ، الحيوان، ج(7)، ص 64، 72، 119.

وينّوه الجاحظ إلى أنواع الأسلحة التي كان يستعملها الفرس عدا تلك التي تستعمل في التمـــارين العسكرية فيقولوا (ولنا صنعة السلاح من لبد وركاب ودرع ولنا مما جعلناه رياضـــة وتمرينـــا وإرهاصا لحرب، ودربه للمجاولة والمشاولة وللكر بعد الكر مثل الدبوق والنزو علـــى الخيـــل صغارا ومثل الطبطاب والصوالجة الكبار ثم رمي المجثمة والبرجاس والطائر الخطاف فـــنحن احق بالاثرة واولى بشرف المنزلة[1].

2. التـــرك

وتناول عنصراً آخر من عناصر المجتمع العباسي وهو العنصر التركي، الذي وصفهً بغلبته على مؤسسات الدولة العربية والإسلامية العباسية، وعلاقتهم المتينة بالخلفاء وكبار رجـــال الدولـــة والوزراء، وبين أن الأتراك من الموالين لقبيلة قريش قبل الإسلام وبعده [2]، مقدمين لهم الطاعـــة والمحبة للخلفاء والأئمة، إذ أصبح شرفهم راجعاً إلى شرف موالي[3]، وقد نظر إليهم بنو هاشـــم كالذهب المصفى [4].

يذكر أن الخلفاء العباسيين ورجال الدولة سعوا إلى نشر المساواة بين القوميات المختلفة، فكانوا يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس، دون التفريق في اللـــون والصـــناعة (المهنـــة)، وتكريماً لهم كانوا يحضرون الصلاة على جنائزهم [5]. وسعوا الى إدخال تلك القوميـــات داخـــل مؤسسات الدولة، وبين الجاحظ:" إن جند الخلافة اليوم على أقسام: خراساني، وتركي، ومولى، وعربي " حامدين الله على اجتماع الأهواء المتفرقة[6]. كما أعاد الجـــاحظ أصـــل التـــرك إلـــى خراسان، فهم والخراساني إخوان لا اختلاف بينهما[7]، فهم أصحاب الغمد وسكان الفياف وأرباب المواشي، كما يعدون من أعراب العجم[8].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 18–20.

[2] م. ن، ص13.

[3] م. ن، ص34.

[4] م. ن، ج(3)، ص172.

[5] م. ن، ج 1، ص 23–24.

[6] م. ن، ص 9.

[7] م. ن، ص9–12.

[8] م. ن، ج(3)، ص 217.

تنبه الخلفاءالعباسيون إلى أهمية العنصر التركي في المجال العسكري فسعوا لدمجهم مع الجيوش العباسية، لما امتازوا به من سمات وقدرات عالية في إدارة الأمور العسكرية اولاً، وعدم سعيهم للحصول على السلطة ثانياً، فهم لا يقاتلون على دين ولا عصبية ولا حرام ولا حـــلال[1]، فكـــل واحد منهم يشكل أمة على حده، فهو السائس والرائض والبيطار والفارس، ولديهم قدرة فائقة في السير فهم لا يسيرون كباقي الناس، إذ يقومون بقطع عشرين ميلاً، والجيـــوش تمشـــي عشـــرة أميال[2]. وفضل المحاربين الإلتقاء مع التركي وليس الخارجي بقولهم:"أن ألقى مائة خارجي أحب إلي لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامـــة فـــي الخـــارجي ووجدتها تامة في التركي ففضل التركي عن الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلـــة ثم بأن التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق على هذه الامور التي بان بها التركي عن الخارجي أعظم خطرا وأكثر نفعاً مما شاركه الخارجي في بعضها [3].

فرق الجاحظ بين التركي والخارجي والخراساني في مواجهتهم للعدو، فبين شدة ذكـــاء التـــرك، فذكر أنهم يرون خلفهم كما يرون أمامهم[4]، فنومهم شبيه باليقظة، ولديهم القدرة على نزول الجبل مهما كان منحدرا[5]، ومواجهة أعدائهم دون التفكير في الفرار والرجوع مـــن أمـــام أعـــدائهم[6]، وللتركي أربعة أعين: عينان في وجهه وعيناه في قفاه، وللخارجي عين في مســـتدبر الحـــرب وللخراساني عيب في مستقبل الحرب فعيب الخراسانية أن لها جولة عند أول الإلتقاء وإن ركبوا (كساهم) كانت هزيمتهم وكثيرا ما يثوبون وذاك (بعد) الخطار بالعسكر وأطماع العدو في الشدة. وإذا ولوا الخوارج فقد ولوا وليس لهم بعد الفر كر إلا ما لا يعد، والتركي ليســـت لـــه جولـــة الخراساني وإذا أدبر فهو السم الناقع والحتف القاضي فهو يصيب بسهمه وهو مدبر كما يصيب به وهو مقبل ولا يؤمن من وهقه ولا انتساف الفرس واختطاف الفارس بتلك الركضة[7]، لـــذلك

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 51.
[2] م. ن، ص49- ج(3)، ص207.
[3] م. ن، ص 49-41.
[4] م. ن، ص45- ج(3)، ص204.
[5] م. ن، ج 1، ص59-60.
[6] م. ن، ج(1)، ص45.
[7] م. ن، ص 45-46.

اعتبر التركي السم القاتل اذا ادبروا في الحروب والحتف القاضي لأعدائهم، فهم يصيبون بالسهم وهم مدبرين كأنهم مقبلين، ويقتلعون الفارس عن ظهر فرسة [1]، ويقتحمون الصفوف للوصول الى هدفهم [2]، ومع ذلك قيل بأنهم كانوا يشعرون بضيق وضيم من قادتهم، لعدم معرفتهم بقدراتهم في القتال [3].

وتطرق الجاحظ إلى القاعدة العسكرية عند الترك، وكيفية تقسيمهم للجيش، فكانوا يقسمون جيشهم إلى ثلاثة أقسام، فيجلعون الأول مددا، والثاني كميناً، والثالث للمواجهة، فثلاثة أشخاص منهم يفعلون ذلك كأنهم جيش [4]، فوضعهم المأمون على يمينه وباقي الجيش على يساره، إذ اصبحوا جيشاً كثيفاً يشكلون درعاً ووقاية للخلفاء دون اندثار [5].

ويصف الجاحظ الأتراك بأنهم قوم لا يعرفون الملق ولا الخلابة ولا النفاق ولا السعاية والتصنع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء ولا البغي على الخلطاء ولا يعرفون البدع ولم تفسدهم الأهواء ولايستحلّون الأموال على التناول، وإنما كان عيبهم والذي يوحش منه، هو الحنين إلى الأوطان وحب التقلب في البلدان والصبابة بالغارات والشغف بالنهب وشدة الألف للعادة مع ما كانوا يتذاكرون من سرور الظفر وتتابعه وحلاوة المغنم وكثرته وملاعبهم في تلك الصحاري وترددهم في تلك المروج وألا يذهب بطول الفراغ فضل نجدتهم باطلاً ويصير حدهم على طول الأيام ومن حذق شيئاً لم يصبر عنه ومن كره أمراً فر منه [6].

وتركز عملهم على الغزو والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان (من شدة ما يقومون به من حروب)، فلم يشغلهم عن القتال والغزو شيء[7]، فقيل:"لو

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص47، ص204

[2] م. ن، ص202-203.

[3] م. ن، ص211-213.

[4] م. ن، ج(1)، ص57.

[5] م. ن، ص61-75.

[6] م. ن، ص 55-63.

[7] م. ن، ج(3)، ص217.

حصلت عمر التركي، وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على الأرض"[1].

ويصف الجاحظ النشاط الذي امتاز به التركي عن باقي الأجناس، فمن عادة القوم النوم وربط الدواب عند وصولهم إلى البيت بعد مسير الليل، أما التركي إذا عاين صيداً، يلحق به بمثل نشاطه قبل أن يسير ذلك السير [2]، ومع ذلك يقولون عظماء الترك أن للقائد العظيم لا بد أن تكون فيه عشرة خصال من أخلاق الحيوان وهي سخاء الديك وتحنن الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وروغان الثعلب، وصبر الكلب على جراحه، وحذر الغراب وحراسة الكركي وهداية الحمام [3].وأعاد الجاحظ سبب ما اتصفوا به من صفات إلى العوامل البيئية والوراثية، ودورها الكبير في حياتهم، إذ غلب عليهم طبائع بلادهم، فهم يحنون إلى مياهها [4].

و امتاز الترك بتماسكهم مع بعضهم البعض، واجتماعهم على راي واحد، فخواطرهم وأهدافهم واحدة[5]، بعيدين عن التنافر والتحاسد والتملق والنميمة والبذخ على الأولياء والبغي على الخطباء، وعن الأهواء والبدع والسعي وراء الأموال، إذ يكمن عيبهم الوحيد بحنينهم وتمسكهم بأوطانهم، فهم شديدي التذكر لغزواتهم وأيام سيرهم في الصحاري وحضور المناسبات مع إخوانهم [6].

ويظهر أن الأتراك خصّوا بالحنين من بين جميع العجم لأن في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ومشاكلة مياههم ومناسبة أهوائهم ما ليس مع أحد إلا سواهم ألا ترى إنك ترى البصري فلا تدري أبصري هو أم كوفي، وترى المكي فلا تدري أمكي هو أم مدني، وترى الجبلي فلا تدري أجبلي هو أم خراساني، وترى الجزري فلا تدري أجزري هو أم شامي،

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ص 217. (فيه موقع نت)

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 91.

[3] م. ن، ج 2، ص 205.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 63.

[5] م. ن، ج1، ص55.

[6] م. ن، ص 55-65.

وأنت لا تغلط في التركي ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فراسة ولا إلى مساءلة ونساؤهم كرجالهم ودوابهم تركية مثلهم (يقصد بحنينها إلى بلادها)، وهكذا طبع الله تلك البلدة وقسم تلك التربة وجميع دور الدنيا ونشؤها إلى منتهى قواها ومدة أجلها جارية على عللها وعلى مقدار أسبابها وعلى قدر ما خصها الله تعالى به".

ويفسر الجاحظ ظاهرة تعلق الأتراك بوطنهم وحنينهم إليه أكثر من العرب وسائر الأمم لأن تركيبتهم وطبيعتهم من تركيب بلادهم فيحدثنا "ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس وغالب على جميع الجيرة ولكن ذاك في الترك أغلب وفيها أرسخ لما معها من خاصة المشاكلة والمناسبة واستواء الشبه وتكافي التركيب ألا ترى أنهم يقولون "عمر الله البلدان بحب الاوطان"، وإن ابن الزبيرا" قال " ليس الناس بشيء من أقسامهم اقنع منهم بأوطانهم".

فقد أورد الجاحظ عن عمر بن الخطاب قوله " لولا تفرق أهواء العباد لما عمر الله البلاد " وأن جمعة الإيادية (بني إياد) قالت " لو لا ما أوصي الله به العباد من قفر البلاد لما وسعهم واد ولا كفاهم زاد " وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال " هم والله أحن من الإبل المعقلة إلى أوطانهم " لأن البعير يحن إلى وطنه وهو بعمان من ظهر البصرة فهو يخبط كل شيء ويستبطن كل واد حتى يأتي مكانه على أنه طريق لم يسلكه إلا مرة واحدة فلا يزال بالشم والاسترواح وحسن الاستدلال وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي مبركه على بعد ما بين عمان والبصرة فلذلك ضرب به المثل[1].

لم تختلف عادات الأتراك عن العرب المسلمين من خلال قضائهم وأحكامهم، فكانوا يحكمون على الزاني غير متزوج بالجلد مئة جلدة، ثم يقومون بالتشهير به، كما حكم على من يقذف عفيفاً بالزنى بالجلد ثمانين جلدة، مع رفضهم لشهادته، ويحكمون على السارق بقطع يده، ويقتلون القاتل، ويرفضون شهادة النمام [2]، وبالرغم من ذلك كانوا يرون بأن أحكامهم تسير حسب جواز

[1] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 63-65.

[2] م. ن، ص 78-80.

العقول، وما يحسن من ظواهر الأمور، بعكس المسلمين الذين يسيرون خلف الانبياء ولا تصلح أحكامهم لتدبير العباد [1].

4. الزنج

ويتطرق الجاحظ في مؤلفاته إلى عنصر الزنج(الجنس الأسود)، الذين هم من الأجناس والقوميات التي وجدت في عصره، فجاء في ضوء ذلك رسالته التي ناقش فيها " فضل السودان على البيضان"، موضحاً صفاتهم وباحثاً عن حقوقهم في المجتمع.وذكر الجاحظ في مؤلفاته بأن السود أكثر عدداً من البيض، إذ يشتملون على أهل الحبشة والنوبة وفزان وبربر والقبط ومرو والسند والعند والقمار والصين وجزر البحر ما بين الصين والزنج، بينما يمثل البيض فارس وخراسان والروم والصقالبة والفرنجة [2].

وقيل بأن الزنج صنفان قبيلة زنجية فوق قبيلة وهما صنفان النمل والكلاب فقبيلة هم الكلاب وقبيلة هم النمل الذين فخروا هؤلاء بالكثرة، وفخرالأولى بالشدة وهذان الإسمان هما ما اختاراهما لانفسهما ولم يكرها عليهما وقال وبالنمل يضرب المثل ((وجاؤا مثل النمل))، والزنج نوعان أحدهما يفخر بالعدد وهم يسمون النمل والآخر يفخر بالصبر وعظم البدن وهم يسمون الكلاب واحد هما يكبو والاخر ينبو، فالكلاب تكبو والنمل تنبو[3].

دافعت الزنج عن سوادها، فالأسود أهول للعيون وأجمل في الصدور من الأبيض، وإن الليل أهول من النهار، معتمدين في ذلك على وصف العرب للإبل بالسواد والتباهي بها [4]، قالوا والسواد أهول وإن العرب لتصف الابل فتقول: (الصهف سرع والحمر غزر والسود بهى فهذا في الابل) و(قالوا: ودهم الخيل أبهى وأقوى والبقر السود أبهى وجلودها أثمن وأنفع وأبقى، والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى، وسود الشاء أكثر زبداً، والدبس أغزر من الحمر)، وإن كل

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص80.

[2] م. ن، ص 215-216.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 210. البيان، ج 3، ص 51.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 203.

حجر أسود يكون أصلب (وكل جبل حجر اذا كان أسود كان أصلب صلابة وأشد يبوسة والأسد الأسود لا يقوم له شيء)، كما وأن أشهى التمور وأحلاها الأسود (وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ولا أعلم منفعة ولا أبقى على الدهر، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع)، وإن أعلى العيدان وأسلمها الأبنوس الأسود فجاء في ذلك (عليكم بالسواد الأعظم)، وقال الأنصاري:

اديـــن ومـــا دينـــي علـــي بمعـــزم ولكـــن علـــى الشـــم الطـــول القـــراوح

علـــى كـــل خـــوار كـــان جـــذوعها طلـــين بقـــار او بـــدم ذبـــائح

ويلاحظ الجاحظ قلة الإقبال على الزواج من الزنجيات في المجتمع العباسي لأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي ولأن الأبيض لا ينشط للزنجية، ويعلل الجاحظ هذه الظاهرة بالعادة والتقليد ولذا نرى أهل البصرة يحبون من النساء الهنديات وأهل اليمن يحبون منهن الحبشيات واهل الشام يؤثرون الروميات فكل قوم يشتهون جلبهم وسبيهم[1]، وأعاد الجاحظ سبب سوادهم إلى طبيعة بلادهم الحارة وأشعة الشمس الحارقة التي تجعد الشعر من شدة حرارتها[2].

ويبين الجاحظ أن صفات الزنج تميزهم عن غيرهم، فهم أسخياء وشديدي الأبدان وشجعان ومن قوتهم كان الرجل يرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب [3]، كما وصف هيبتهم وهم مقبلين بحرابهم ورماحهم وسيوفهم ورياتهم وخيولهم وفيولهم، ومع سواد ألوانهم وضخم أبدانهم رأيت هولاً لم ترى مثله ولم تسمع به ولم تتوهمه [4]. ومع تلك الصفات والشجاعة، ومع تلك الصفات والشجاعة دائماً ضحوكي السن، يتميزون بحسن الظن والخلقة وطيب النفس[5].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 215.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 3، 136.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 195.

[4] م، ن، ص 200- 201.

[5] م، ن، ص 196.

ومن صفاتهم الحسنه الأخرى، انهم امتازوا بالفصاحة والبلاغة والعدل والشجاعة والرأي السديد والعقل الراجح [1]، والكرم [2]، والسخاء، وقالوا الناس عنهم بأنهم شديدي السخاء" لضعف عقولهم وجهلهم بالعواقب، فقلنا لهم: بئس ما أثنيتهم على السخاء والآثرة وينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً، وأكثر الناس علماً أبخل الناس بخلاً، وأقلهم خيراً، وقد رأينا الصقالبة أبخل من الروم، والروم أبعد روية وأشد عقولاً، وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصقالبة أسخى أنفساً، وأسمح أكفاً منهم " [3].

ويظهر الجاحظ أن بعض الزنج عمل مع الرقاصين والزمارين وطوائف الملهين ذلك فينعتهم بقوله: " أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم[4] "، ويظهر أن من هؤلاء الزنج من كانوا يعملون في "الفشكرة " وهي زراعة الارض وفلاحتها"[5].وهم الكثرة ومنهم من كانوا يقومون على رعاية الإبل[6].وقد يعمل بعضهم في الحجامة[7]، ويظهر أن طائفة منهم جاؤا إلى المجتمع العباسي نتيجة لسبيهم وهؤلاء السبي كانوا في نظر الزنج أنفسهم من سفلتهم وعبيدهم " ليس فيهم جمال ولا عقول[8]، أما الروم فمنهم من كان يقوم على رعاية الإبل شأن صبيان الحبشان والنوبة من الزنج" وكان فيهم من يتعهد فرش الدور وأثاثها وقد فاقوا في ذلكالسند وغيرهم من أصناف الخدم من الرقيق[9].

ويتابع الجاحظ حديثه عن معرفة الزنوج بالرقص والشعر الموزون والضرب بالطبول والإيقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم، فجاء ذلك بالفطرة لخفة لغتهم وألسنتهم، فلا يوجد على الأرض لغة أخف من لغتهم على اللسان، فقيل " لغتهم ولا في الأرض قوم أذرب السنة ولا أقل

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 178 – 180.

[2] م، ن، ص 162.

[3] م، ن، ص 195 – 196.

[4] م. ن، ص 195.

[5] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 60

[6] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 234

[7] م. ن، ص 32.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 211

[9] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 435

تمطيطاً منهم وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأرت والفأفأة والعي ومن في لسانه حبسة غيرهم، والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بإلتفاته ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم وهم شجعاء أشداء الابدان أسخياء وهذه هي خصال الشرف" [1].

ويرى الزنج وهم عرق من السودان إنهم كانوا أكفياء العرب من الجاهلية ولذا اكثروا من التزوج منهم وفي الإسلام أنكر العرب فضل السودان عليهم على الرغم من ضرب الأمثال بملوك السودان وتقدمهم على ملوك العرب أمثال ابرهة وابي يكسوم، وقال وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمتم أمر ملوكنا وقدمتموهم في كثير في المواضع على ملوككم ولو لم تروا الفضل لنا في ذلك عليكم لما فعلتم وقال النمر بن تولب: أتى ملكه ما أتى تبعاً وأبرهة الملك إلاعظماً فرفعه على ملوك قومه.

5. الهنود

تحدث الجاحظ عن الهنود، باعتبارهم أحد عناصر المجتمع، فقدّم صورة عن الثقافة الهندية التي انتشرت عن طريق بلاد فارس والمتصلة بالعالم الإسلامي من ناحية التجارة والتأثير الفكري[2]، معترفا بأسبقيتها في استخدام الخطوط الهندية، وشهرتهم في الأدب وقول الشعر والخطب فأخذت عنهم العرب كتاب "كليلة ودمنة "، إلى جانب إبداعهم العريق في علم الطب والفلسفة وعلم الفلك والنجوم والحساب، كما عملوا في الخرط والنجر والتصوير وتلوينها لوضعها داخل المحاريب[3].

ويعلق الجاحظ على علومهم بقوله: " بالرغم ما اتصفوا به من علم ومعرفة ومعان مدونة وكتب مخلدة، إلا إنها لم تنسب إلى رجل معروف ولا عالم موصوف، فهي عبارة عن كتب متوارثة وآداب موجودة على وجه الدهر ومر الزمان"[4].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 195.

[2] انظر: المجالي، رابعة، صور، مجلة عين شمس، ج(40)، ص 117..

[3] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص223–224. انظر:المجالي، رابعة، صور، مجلة عين شمس، ج(40)، ص117

[4] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص27.

وعن صفاتهم، فيقول الجاحظ إنهم اتصفوا ا بالمكر والخديعة والحيل للقضاء على اعدائهم، فهم يميلون مع عدوهم كما يريد ليرى نفسه بانه المنتصر عليهم، ثم يقومون بالقضاء عليه [1]، ويقال بأنهم استخدموا السيوف في حروبهم، عن طريق ربطها في خراطيم الفيلة لتساعدهم على القتال[2].

6. السندي

تمتع السندي بالفصاحة والبلاغة والقوة لعيشهم بين القبائل البدوية، فامتازوا بقدرة عالية على البيع وكسب المال، وزادت معرفتهم بالعقاقير والبربهار(التوابل)، مما جعل الصيدلي يوضع لديه غلام سندي لمعرفته بأنواع الادوية [3].

ويبين الجاحظ سمات أهل السند بعدم تطبعهم في الوظائف والأعمال التي تعطى لهم، فلم يتقنوا عملهم عندما تحولوا إلى فراشي البيوت، كغيرهم من الروم [4].

ج. الطوائف الدينية

عاش أهل الذمة نصارى ويهوداً بين المسلمين على دينهم مقابل أن يقوم المسلمون بالكف عنهم والحماية لهم والأمان على أنفسهم" ولم يكن الإسلام يقبل من عبدة الأوثان من العرب والمرتدين من الإسلام الجزية فهؤلاء مخيرون بين الإسلام والقتال فقط وكان من تقاليد الإسلام إنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله اعتناق الإسلام فمن استجاب طبقت عليه أحكام المسلمين وأعطى العهد والأمان والضمان[5].

---

[1] الجاحظ، التاج، ص100-102.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص73.

[3] م. ن، ج(3)، ص 232.

[4] م. ن، ص 232.

[5] الماوردي، الاحكام، ص 137.

وقد عاش أهل الذمة من النصارى واليهود إلى جانب المسلمين، بموجب عهود ترعى مصالحهم، مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم [1]، ووضح الجاحظ مكانتهم فمنهم فراشي الملوك وكتاب السلاطين وأطباء الأشراف والعطارون والصيارفة [2].

1. النصارى

يتحدث الجاحظ طويلاً عن أحوال اهل الذمة في المجتمع العباسي في كتاب له (في الرد على النصارى) ويقال أن له مصنفا في (الرد على اليهود)" وقيل إنهما كتاب واحد في (الرد على النصارى واليهود)[3].ويتابع الجاحظ قوله أن النصرانية التي سادت بين القبائل العربية، كانت الأقرب إلى العامة من باقي الطوائف [4]، وانتشرت بين العرب، إلا مضر، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية، ولم تتفشى فيها النصرانية، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد، فإنهم كانوا نصارى، ولم تعرف مضر إلا دين العرب، وثم الإسلام [5]. وقد بين الإبشيهي بأن النصرانية انتشرت في العديد من القبائل العربية وهي ربيعة وغسان وقضاعة [6].

يستعرض الجاحظ أهم الفرق النصرانية، واختلافها حول طبيعة المسيح، فظهرت الملكانية ويقيمون في الصوامع، والنسطورية ويقيمون في المطامير [7]، واليعقوبية، وقيل إنه يصعب معرفة حقيقة النصرانية وبالأخص الألوهية، فقال " لو خلوت ونصراني نسطوري فسألته عن قولهم في المسيح لقال قولاً، ثم إن خلوت بأخيه لأمه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألته عن قولهم في المسيح لأتاك بخلاف أخيه " [8].

---

[1] انظر: سعد، فهمي، العامة، ص74.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 316. انظر:سعد، فهمي، العامة، ص74.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 40.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص308-313.

[5] م. ن، ص 313.

[6] الإبشيهي، المستطرف، ج 2، ص 82.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 278-279.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 324.

ويشير الجاحظ إلى أن النصارى كانوا يتمتعون بالحرية، وزادت صلاتهم بجميع طبقات المجتمع، إذ يقول:" ومما عظمهم في قلوب العوام وحببهمإلى الطغام أن منهم كتّاب السلاطين وفراشي الملوك وأطباء الأشراف والعطارين والصيارفة "، وفي رواية أخرى أشار غلى تدني منزلتهم بين العوام " لم نر أهل مله قط أكثر زندقة من النصارى، ولا أكثر متحيراً أو مترنحاً(الاضطراب) منهم [1].وكان النصارى أحسن صناعة وأنظف ثوباً من اليهود، إلا أنهم اقذر وأسمج[2].

ويعالج الجاحظ الأسباب التي جعلت النصارى أقرب إلى المسلمين أكثر من غيرهم كاليهود والمجوس، فقال " فهم أحب غلى العوام من المجوس وأسلم صدوراً عندهم من اليهود وأقرب مودة وأقل غائلة وأصغر كفراً، وأهون عذاباً"[3]، ومن أسباب ذلك كره المسلمين لليهود لقربهم منهم في يثرب، ومعرفة عيوبهم والاطلاع على أمورهم، فعداوة الجيران كعداوة الاقارب، كما كان اليهود يحسدون المسلمين على دينهم واجتماعهم على كلمة واحدة بعد تفرقهم، أما النصارى فهم بعيدون عنهم لا يتكلفون طعناً ولا يثيرون كيداً، ومما غلظ قلوبهم على اليهود ولينها على النصارى إعلان الحرب عليهم[4].

ويعزو الجاحظ هذه الاسباب أيضاً إلى تنصر بعض ملوك العرب فيقول (كما ذكر اليهود انه جاء الاسلام وملوك العرب رجلان: غساني ولخمي وهما نصرانيان وقد كانت العرب تدين لم تؤدّ الإتاوة إليهما[5]"، ومن الأسباب المهمة أيضاً العلاقات التجارية بين العرب ونصارى الروم والحبشة، فيقول: " كانت تتجر إلى الشام، وينفذ رجالها إلى ملوك الروم، ولها رحلةٌ في الشتاء والصيف، في تجارةٍ مرة غلى الحبشة، ومرة في الشام، ومرة بيثرب "، فكانوا عند هجرتهم غلى الحبشة يأتوا باب النجاشي وافدين إليه، فيجزيهم، ويعرف أقدارهم[6].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 315-316.

[2] م. ن، ص 323.

[3] م. ن، ص 308.

[4] م. ن، ص 309 – 310

[5] م. ن، ص 308-312

[6] م. ن، ص 312.

ويعرض الجاحظ العادات التي كانت سائدة عند النصرانية كابتعادهم عن أكل اللحوم إلى أكل الحبوب، مادحين رؤسائهم من الجاثليق والرهبان لتركهم النكاح [1]، وتشبه القسيسين بهم، وعلى من يتزوج بإمرأة لا يستطيع استبدالها او الزواج بغيرها إلا أنهم ملأوا الافاق وغلبوا الأمم بالعدد وكثرة الأولاد[2]. ووجد عندهم عادة السياحة في الأرض فهم لا يسيحون إلا أزواجاً، والسياحة عندهم ألا يبيت أحدهم في المنزل ليلتين، ولا يأكلون مما طاب به أنفس الناس ويتركون الجماع والالتزام بالصدق، وعدم قول ذنبه حتى لو سئل عنه [3].وتمتع رجال الدين من النصارى بصلاحيات معينه ومحددة لا يقدر على تجاوزها فلم يسمح لهم بالحبس أو الضرب، إلا أن يغرم بالمال ويحرم الكلام معه، كما كان يتغاضى عن من له قدر وشأن عند السلطان [4].

وكان للنصارى مزاعم ومعتقدات يتعصبون لها ويحتالون بها على العامة، كقولهم بأن الصليب لا يحترق لأنه من الخشب الذي صلب عليه المسيح [5]، وأن النيران لا تنطفئ من الكنائس، لشدة إخلاصهم واقترابهم من الله [6]، وقالوا بأن قناديلهم توقد في الكنائس، في إحدى ليالي أعيادهم لوحدها [7]، وامتنع النصارى عن إعطاء الجزية للمسلمين، فسبوا وضربوا من يتعرض لهم، وأعادوا ذلك لإعتقادهم بأن حكماء العرب يرون بأن دم الجاثليق والمطران هو وفاء لدم جعفر وعلي والعباس وحمزة[8].

و تشبه النصارى بالعرب المسلمين، فركبوا البراذين الشهرية، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات وضربوا بالصوالجة، آخذين الشاكرية (الجند المستاجرين)، وتسموا بأسماء الخلفاء العباسيين

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 321.

[2] م. ن، ص 322.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 279. الرسائل، ج 3، ص 322 – 324.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 16.

[5] م. ن، ج(5)، ص81.

[6] م. ن، ص210.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص296.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص317–318.

بالحسن والحسين والعباس والفضل وتكنوا بذلك أيضاً[1]، فأدى ذلك إلى زيادة عطف المسلمين عليهم[2]. فهم أسلم من اليهود، وأقرب مودة إلى المسلمين[3].

وبالرغم من تشبه النصارى بالمسلمين، إلا أنهم كانوا البلاء الاكبر عليهم، لإتباعهم الأحاديث ذات الإسناد الضعيف، ثم يخلون بضعفاء الإيمان، لغرسها في عقولهم، إذ أعاد الجاحظ بأن البلاء الأكبر عند المسلمين، لإعتقاد كل منهم، بأنه متكلم ولديه القدرة على تقديم الحجج، فسهل ذلك على النصارى، لإبعاد الناس عن الدين الاسلامي [4].فقيل:" لولا متكلمي النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبياؤنا وظرفاؤنا ومجاننا وأحداثنا شيءٌ من كتب المانوية والديصانية والمرقونية والفلانية ولما عرفوا غير كتاب الله وسنه نبيه " [5].

أما عن براعتهم فيقول الجاحظ برع النصارى بشكل خاص في مهنة الطب، مما دعى العامة إلى الذهاب إليهم لتلقي العلاج منهم بالرغم من وجود أطباء مسلمين بارعين، فقال أحد أطباء المسلمين معترضاً على ذهاب الناس للعلاج عند النصارى بدلاً منه: " أما واحدة فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب لا قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، وإسمي أسد وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبا وجبرائيل ويوحنا، وكنيتي أبو الحارث،و كان ينبغي أن تكون أبو عيسى، وابو زكريا، وعليَ رداء قطن ابيض، وكان ينبغي أن يكون ردائي حرير أسود، ولفظي لفظ عربي وكان ينبغي ان تكون لغتي لغة أهل جند يسابور"[6].

وبالرغم من براعتهم في الطب، فهم بعيدي عن الحكمة والبيان، فعملهم الوحيد الكف والخرط والتصوير وحياكة البرذون، بعيدين تماما عن الأدباء والفلاسفة والحكماء، واعتقدت العامة بأن

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص317.

[2] م. ن، ص313.

[3] م. ن، ص308-323.

[4] م. ن، ص321-320.

[5] م. ن، ص321.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص 4-5.

كتب المنطق والكون والآثار العلوية التابعة لأرسطو وطاليس تعود لهم، لذلك ادعوا بأن اليونان إحدى القبائل التابعة للروم، لتحويل كتبهم لهم، متفاخرين بذلك على اليهود والنصارى[1].

ويتفاخر النصارى على باقي الأديان باجتماع كلمتهم،بان عيسى هو "اله "، بعكس المسلمين المشككين في دينهم، كما دافعوا عن دينهم بشأن كلام المسيح في المهد، بأنه كلام صادر عن المسلمين [2].فقيل عند النصارى "رياء عجيب، وظاهر زهد، فهم أبطا شيء عن التصفح، وأسرع شيء الى تقليد صاحب السنن، وظاهر العمل ادعى لهم من العلم"[3].

2. اليهود

وبيّن الجاحظ أن اليهودية لم تكن غالبة على قبائل معينة قبل مجيء الإسلام، فكان منهم من اليمانية وعدد يسير من إياد وربيعة، وزاد عددهم في يثرب وحمير وشيماء ووادي القرى[4].

عاش اليهود الى جانب المسلمين، بالرغم مما يشكلوه من عداوة وخطر عليهم، فهم غير مندمجين معهم كباقي الطوائف [5]، وقد اعاد الجاحظ سبب ذلك لقربهم من المسلمين والإطلاع على عيوبهم فهم على خلاف قائم بسبب الفلسفة والكلام في الدين التي يبتعد عنها اليهود باعتبارها كفراً، وبدعة[6]، وتعود الى أعمال الزندقة، والخروج إلى الدهرية [7]، فقيل بأنهم ابتعدوا عن دراسة علم الكلام والطب والتنجيم، بإعتقادهم بأن العلم الحقيقي هو ما جاء في التوراة وكتب الأنبياء [8]، لذلك لم يكن بينهم متكلمين ولا أطباء ومنجمين وفلاسفة وحكماء [9].وقد رماهم الجاحظ بالغي وعاب فيهم بعدم وجود المعاني والأمثال التي يستحسنها أهل التجربة وإنهم لم

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 314-316.

[2] م. ن، ص306-307.

[3] م. ن، ص 251-252.

[4] م. ن، ص 313.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص106. الرسائل، ج(3)، ص313.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 310-314.

[7] م. ن، ص 314.

[8] م. ن، ص314.

[9] م. ن، ص 314.

يتمكنوا من طول لبثهم بين العرب ان يكتسبوا منهم مايعدل من اخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وفطنهم[1].

تطرق الجاحظ إلى ذكر التقاليد الاجتماعية الموجودة عند اليهود، بأن اليهودي لا يتزوج إلا من ديانته، وذلك لتعصبهم لأبناء جنسهم [2]، ومن عاداتهم أيضاً إقامة النسك يوم السبت [3]، ووجد عندهم آله موسيقية أطلق عليها اسم " الشبور "، وهو كالبوق ينفخ فيه إذا أرادوا تحريم الكلام مع رجل منهم [4].

مال اليهود الى مذهب الجبرية[5]، ساعين الى ترجمة القران الكريم لإخراجه عن معانيه الصحيحة، وإضاعة المسلمين في طريق لا يستطيعون العودة منها [6]، فأنكروا وجود أدباء وفلاسفة وحكماء عند النصارى، فقالوا بأنه ليس لديهم سوى الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البرذون[7].

ويشير الجاحظ إلى بتمتع اليهود بالصدق والكفاءة[8]، إلا إنهم لم ينالوا حظا واحتراما كالنصارى، إذ ارتبط ذلك بمهنهم التي تعد من أقذر الصناعات، فمنهم من كان صباغاً أودباغاً أوحجاماً أو قصاباً أو شعاباً[9].

كما تدل كتاباته أيضاً على أن العامة كانت تستخف بأمر اليهود وتحقر من شأنهم، وكان عامة الشعب يزعمون أن الضب يهودي حتى أن بعض القصاص قال لرجل أكل ضبياً "أعلم إنك أكلت شيخاً من بني اسرائيل" وبلغ استخفاف عامة الشعب بأمر اليهود إن الصبيان كانوا (يصيحون

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3 ص 271-272

[2] م. ن، ص 316.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 135

[4] م. ن، ج 4، ص 15

[5] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص345.

[6] م. ن، ص 336.

[7] م. ن، ص 314.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 106.

[9] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 316.

بالفهد إذا راوه يا يهودي)، كذلك اتهم اليهود بالتكبر و(الكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأغم ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود)[1].

3. المجوس

تناول الجاحظ في رسائله حياة المجوس ومعتقداتهم، وأطلق عليهم اسم "الهرابذة "، التي تقسم إلى قسمين "هير" بمعنى النار و"بذ" بمعنى الحافظ والقيم[2]، وعرف رئيسهم الديني باسم (رأس جالوت)، إذ كان له شيءٌ من السلطان عليهم، فيغرم المخطئ منهم، وينفخ في الشبور (البوق)، إذا أراد تحريم الكلام مع رجل منهم [3].

واشتهر من المجوس بعض الأدباء كابن المقفع، وعمل بعضهم في وظائف الدولة، ككتاب في ديوان الخراج في عهد الرشيد والمأمون [4].وشارك الخلفاء في الأعياد المجوسية كما ويذكر أن الاعياد المجوسية الفارسية القديمة كالمهرجان والنيروز احتفل بها الخلفاء ولا زال عدد كبير من عامة العراق تحتفل بهذين العيدين احتفالا شعبياً إلى الوقت الحاضر، وقال إن المجوس تزعم إن المنخنقة والموقوذة والمتردية وكل ما اعتبط ولم يمت حتف أنفه فهو أطيب لحماً وأحلى لأن دمه فيه والدم حلو دسم وإنما عافه من عافه من طريق العادة والديانة لا من طريق الاستقذار والزهد الذي يكون في أصل الطبيعة[5].

وكان ميلهم نحو النصارى اكثر من باقي الطوائف، فهم على خلاف مع اليهود، وزاد حقدهم على المسلمين لإقامتهم حرب عليهم ايام الرسول (صلى الله عليه وسلم)[6].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 306.

[2] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص 13.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 202-203.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 95-96.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص310.

و كان للمجوس معتقدات خاص بهم، فهم أكثر الطوائف تقديساً للنار، فإذا أطفئت نار "الكاريان "كانوا يستعدون للحرب [1]، واعتقدوا بأن لكل بلد عذاب خاص بها، فأصحاب البلاد الحارة يكون عذابهم بالنار، والباردة بالوقوف على الثلج [2].كما اعتقدوا بأن أصل العالم مكون من امتزاج المكونات من الضياء والظلام والبرد والحر والطعم والصوت والرائحة مع بعضها البعض [3].وللمجوس قصص مع الكلاب، فلا يوجد مجوسي يموت ويحزن عليه، إلا بعد أن يشمه الكلب، فهو لا يخفى عليه أحيٌ أم ميت لاعتقادهم بلطافة حسه [4].

يبدو بأن الجاحظ حاول توصيل أفكاره لإلى الأجيال، بأن المسلمين طائفة مستهدفة، يريدون القضاء عليهم وعلى الدين الاسلامي، فلم يشر إلى الخلاف السائد بين اليهود والنصارى، بينما اشار الى الخلافات التي حصلت ضد المسلمين، بهدف طمس الإسلام ومعالمه.

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 294-295.

[2] م. ن، ج 5، ص 46.

[3] م. ن، ص31.

[4] م. ن، ج 2، ص 163

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية من خلال مؤلفات الجاحظ

الفصل الثالث

الحياة الاجتماعية من خلال مؤلفات الجاحظ

أ. الظواهر الاجتماعية

إن العصر الذي عاش فيه الجاحظ هو أزهى عصور المدنية الإسلامية تطوراً ففيها الحركات العلمية والأدبية وازدهارها أوسع حضارة عرفتها البلاد العربية وتفتحت في هذا العصر ينابيع مختلفة من الثقافات التي كانت موجودة آنذاك، فعرف العرب حكمة الهند وفلسفة اليونان وآداب الفرس وغير ذلك مما تمخض عنه الفكر البشري من علوم وآداب ومعارف وأمام هذه الحياة الخصبة النابضة وقف الجاحظ بعقله الكبير وروح الفنان يكتب ويصور وينقد ويسخر ويتفلسف ويضحك ويجمع ما اختلف من صور هذه الحياة ومشاهدها في بيان رائع وأسلوب محكم حتى لكأنه مرآة كبيرة صافية انعسكت عليها صورة الحياة واضحة جلية [1].

ترجع أسباب بروز الظواهر الاجتماعية المختلفة كالبخل والسرقة والغجر والغيابون وغيرها الى أساس تكون مجتمع البصرة الذي قام على العنصر العربي المسلم الذي تكون من البدو الذين أسلموا اختيارا، وكان عليهم ان يواجهوا فكرة الاستقرار ويقبلوا بها، والمسلمون الجدد هم من الأعاجم وعناصر النصارى واليهود والرقيق، على أن هذا المجتمع خضع للنظرية الاقتصادية التي تطلبت تمازجاً اجتماعياً مما أدى إلى نشوء مجتمع جديد يقوم على أسس مختلفة عن الأسس القبلية التي تقوم على العصبية ولو أنها ظلت مطلوبة ومرغوباً فيها ونقصد بذلك مقياس المال والثراء، وهكذا نرى أن مجتمع البصرة سرعان ما تحول إلى مجتمع طبقي يتكون من الطبقة الأرستقراطية المؤلفة من العرب والطبقة البرجوازية المؤلفة من عناصر عربية غير بدوية، وعناصر أعجمية مسلمة وغير مسلمة، وطبقة الشعب الذي لا يكاد يجد ما يتبلغ به وطبقة الرقيق[2].

---

[1] انظر: بلبع، عبد الكريم، النثر الفني، ص 223.

[2] انظر: العمد، هاني، صورة، ص 25

1. البخل

من الظواهر الاجتماعية التي تناولها الجاحظ ظاهرة البخل، وكتب عن هذه الظاهرة كتاب أسماه " البخلاء" ويتألف الكتاب من مقدمة، وصف فيها المشكلة التي تشهدها البيئة التي ولد فيها وأقام بين أهلها، فهو ابنها الذي ما انفك يحس بما تعانيه وبما تواجهه من مشكلات اجتماعية واقتصادية وظواهر غير مألوفة ما لبثت أن انتشرت في المجتمع العربي الإسلامي نتيجة عوامل متعددة [1].

غاص الجاحظ في باطن البخيل، وعرف سريرته، ذلك لأنه "مولع بهذا النوع من البحث والتتبع للحالات النفسية الخفية وتبين الحركات الشعورية المختلفة وملاحظة الصلات بينها وبين الحركات والسمات الظاهرة، أو إشارة طارئة أو لفتة سريعة معجلة" ولقد أفرد للبخيل كتاباً خاصاً وهو كتاب "البخلاء" وجعل الدرهم عند البخيل يساوي دية مسلم، اذ "الدرهم عشرة العشرة وأن العشرة عشر الماء وأن الماء عشرة الألف وأن الألف عشر العشرة آلاف أما ترى كيف ارتفع الدرهم الى دية المسلم " [2].

ويورد الجاحظ أحاديثاً خاصة وكثيرة بالبخلاء، تلتئم مع الأحاديث والطرف والنوادر التي تؤدي جميعها إلى تناول قضية إنسانية هي قضية البخل [3]، أما الرسالتان المتبادلتان بين أبي العاص بن عبد الوهاب الثقفي وابي التؤم فهما من الرسائل والوصايا التي قدمت للكتاب خدمة جلية واكملت رسالته حيث تضمنتا موقفين متضادين التضاد كله فالأولى تنتصر للكرم وتدعو اليه في حين تنتصر الثانية للبخل وتدعو اليه [4].

تحدث الجاحظ عن الفئات التي اشتهرت ببخلها، كأهل النصرة وأهل مرو ومن الخراسانيين وبعض الأمويين.ولا سيما معاوية ابن أبي سفيان، وسليمان ابن عبد الملك.وغيرهم كما أشار إلى

---

[1] انظر، العمد، هاني، صورة، ص 40.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص86.

[3] م. ن، ج 2، ص152-177.

[4] م. ن، ج2، ص90.

أهل الجزيرة وأهل المازح، والمديبر وأهل الأبلة [1].وبذلك يكون الجاحظ قد تحدث عن فئات البخلاء من أفراد وفئات وشعوب ومدن، وقدم شهادات موثوقة بهذا الشأن واعتمد في ما قدمه على روايات علماء تحدثوا فيها عن بخلاء سبقوا عصر الجاحظ، وعلى مشاهدات وأحداث ووقائع للبخلاء ممن كان يعاصرونه [2].

يشير الجاحظ إلى أن البخلاء الذين يسميهم في كتابه" البخلاء" معظمهم من الأشخاص الحقيقيين الذين عاشوا زمن الجاحظ ويتعاطون مهناً مختلفة فمنهم الملاكون الكبار وموردهم بدلالات إجارات دورهم كالكندي ومنهم الاقتصاديون من رجال المال والتجارة كالمدائني والثوري، وزبيدة بن حميد.وهذا الاخير كان يمتهن الصيرفة وتجارة الرقيق ومنهم من امتهن اللصوصية والقرضة (الإقراض) والكدية كخالولية (خالد بن زيد المكدي).

إن البخلاء كانوا من المثقفين أو "المتعاقلين" على حد تسمية الجاحظ ومن بين اولئك الذين كان لهم شأن كبير في حركة الفكر والأدب في عصر الجاحظ سهل بن هارون، وثمامة بن أشرس، وابو الهديل العلاف، وأبو القاسم التمار.وعلي الأسواري.كانوا من أعلام المعتزلة. ومن البخلاء أيضاً من يتعاطى التعليم كأبي عينية أو رواية النادرة كأبي الحارث جمين.أو فرض الشعر كالخزامي ومحمد بن يسير أو سرد القصص كأبي كعب الصوفي وعبد الأعلى.القاص وهناك ايضا القضاة والأطباء والولاة والفقهاء [3].

وتناول الجاحظ في مقدمة كتاب البخلاء تحليلا لنفسية البخيل واظهار عجزه في إصلاح معايبه وهو ينتحل الأعذار ليخفي خلة البخل فيه ويجعلها اقتصاداً أو ادخاراً، وقد لا يكون الأمر على هذه الشاكله بشكل سافر ومعلن ولكن من المؤكد أن الجاحظ إن لم يكن غرضه تحليلاً لنفسية البخيل والتشنيع به عليه أو حتى الإصلاح الخلقي من خلال النقد الذي قد يصل حد التجريح إن لم يكن يهدف إلى هذا، فان غاية الكتاب الأولى المتعه الفنية والإضحاك، وربما كانت الحجة

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص86.

[2] انظر: العمد، هاني، صورة، ص 69.

[3] انظر: سعد، مع بخلاء، ص60-61.

التي استند إليها الباحثون هو ما لجأ إليه الكاتب من أسلوب البخلاء، ودار حول دفاعهم عن مناهجهم الحياتية وذم الإسراف تحسباً لتقلبات الزمن والذي لا يشك فيه باحث هو أن الجاحظ عندما لاحظ مشكله اجتماعيه تتفاقم ويتسع نطاقها سارع إلى التأليف فيها بأسلوبه الساخر الناقد المعروف [1].

يشير الجاحظ الى نوع من البخلاء وهو البخيل النفاج، وهذا أغيظ ما يكون، وكان يتخذ لكل جبة أربعة ازرار ليرى الناس أن عليه جبتين ويشتري الأعذاق والعراجين والسعف من الكلأ، فإذا جاء به الحمال إلى بابه تركه ساعة يوهم الناس أن له من الارضين ما يحتمل أن يكوم ذلك كله منها، وكان يكتري قدور الخمارين التي تكون للنبيذ ثم يتحرى أعظمها ويهرب من الحمالين بالكراء كي يصيحوا بالباب: يشربون السكر ويحسون الحمالين بالكراء؟ وليس له في منزلة رطل دبس). ويمكن ان نعد هذه الخطوط في مظاهر الحياة المختلفة فنجد هيكلا لنموذج إنساني ما أكثر ما تجده في حياتنا فهذا البخيل إنسان يهرب من نفسه وحقيقته في مظاهر حياته كلها [2].

ويقول الجاحظ يصف أبا جعفر الطرسوسي "ولم أر مثل ابي جعفر الطرسوسي زار قوماً فأكرموه وطيبوه وجعلوا في شاربه وسلبته غالية فحكته شفته العليا فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفه فخاف أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق " [3]، فلهذا البخيل صوره طويلة معبره عن إيجازها فإنه لا يمكن أن ينظر هذا الطرطوسي في أمور حياته وأمور نفسه وأسرته إلا يمثل هذه العين التي ينظر بها في أمر ضياع العطر من شاربه إذا حكه من فوق والذي يعين أن ننظر هذه النظرة إنها طبيعية، والطبيعة لا يمكن أن ننظر إلى الحياة بمنظارين ومن هنا يكون أدب الطبائع أدب الملامح الانسانية التي تغني فيه الخطوط عن التفصيل فالحقائق النفسية الحية كالدم تجده في كل عرق [4].

---

[1] انظر: العمد، هاني، ص45-46

[2] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص49

[3] م. ن، ج1، ص108

[4] انظر: الاشتر، عبد الكريم، محاضرات، ص234.

ويبين الجاحظ في كتابه البخلاء نقيض آداب الضيافة عند العرب، يصف قصة رجل (اسمه جبل) طرق باب أحد أصدقائه وكان الوقت ليلاً وخاف أن يدركه الطائفة فطلب منه أن يدعه يغفي في دهليز داره ريثما يطلع الصباح، بدل أن يدعه يدخل ويكرمه فيقول الجاحظ" فتساكر أبو مازن واراه ان وجومه إنما كان بسبب السكر فخلع جارحه وخبل لسانه وقال: سكران والله أنا والله سكران قال له جبل: كن كيف جئت نحن في أيام الفصل لا شتاء ولا صيف، ولست احتاج الى سطح فأغم عيالك بالحر ولست احتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثر بالدثار، وأنا كما ترى ثملاً من الشراب وشبعان من الطعام ومن منزل فلان خرجت وهو من أخصب الناس رحلاً، وإنما اريد ان تدعني أغفي في دهليزك إغفاء واحد ثم أقوم في اوائل المبكرين قال: أبو مازن- وارخى عينيه وفكيه ولسانه – ثم قال:سكران والله انا سكران لا والله أعقل أين أنا والله أن أفهم ما تقول ثم أغلق الباب في وجهه ودخل لا يشكي أن عذر قد وضح وأنه قد الطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة "، لكن الضيف – في العادة- مكرم وله احترام ويتساوى إكرامه مع مقدرة مضيفه ونفسيته، وقد تفنن البخلاء في إكرام الضيف ومعاملته أو في الدقة لهم نظام معين في تقدير الضيف واحترامه فيما يتنوع مع نزاعاتهم الكامنة [1].

يشير الجاحظ الى أن البخيل يرحب بأن يستضاف ولكنه ينكر الجميل ويرفض أن يقابل مضيفه بالمثل ويصر على هذا التنكر له، فهذا "رجل من أهل مرو كان لا يزال يحج ويتجر وينزل على رجل من أهل العراق فيكرمه ويكفيه مأنته، ثم كان كثير ما يقول لذلك العراقي ليت إني أن رأيتك بمرو حتى أكافئك لقديم حسانك، وما تجدد لي من البر في كل قدمة، فأما ههنا فقد أغناك الله عني " قال: فعرضت لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية فكان مما هو عليه مكابدة السفر ووحشة الإغتراب مكان النروزي هناك فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره، وفي عمامته، وقلنسوته وكسائه، ليحط رحله عنده كما يصنع الرجل بثقته وموضع انسه، فلما وجده قاعداً في أصحابه أكب عليه وعانقه فلم يره اثبته ولا سأل به سؤال من راه قط، قال العراقي في نفسه لعل انكاره إياي لمكان القناع فرماه بقناعه ابتدأ مسائلته فوجده أشد ما كان إنكاراً فقال:

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص254-255

فلعله إنما أتي من قبل القلنصوة "وعلم المروزي لم يبقى شيء يتعلق فيه المتغافل والمتجاهل فقال: لو خرجت من جلدك لم اعرفك" [1].

ذكر الجاحظ ان المحنة العظيمة تكون حين يحل بساحة البخيل ضيف وعندها لا يترك البخيل حيلة لضيفه حتى "يكتفه كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا" فالبخيل يجرب باديء الأمر أن يفوت على ضيفه فرصة المشاركة في الطعام فعندما يعرض احدهم على الضيف الغداء ويجيب "قد والله فعلت" يسارع البخيل مردفاً القول "ما بعد الله شيء" وإذا لم يفلح البخيل في وقف المحاولة وفي تفويت الفرصة على الضيف في مد يده إلى الطعام "لا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد كل ذلك ليشغله " [2].

وان اواء ابن السبيل واكرام طالب الحاجة يعدان من الفضائل في الإسلام ولكن البخلاء لم ينجحوا حتى في إرضاء هذا المستوى المقبول من الفضيلة الإسلامية وبخيل الجاحظ يهدد أحد أبناء السبيل بأن يدق ساقيه ثم يعنفه بشده لأنه ألح عليه في طلب المعروف [3].

ويتابع الجاحظ في كتابه أن البخيل يلام لأن خبزه قليل، ويعد بعض الناس بخلاء لأن الخبز الذي يقدمونه كان بعدد الآكلين بالرغم من أن الطعام قد أُعد بعناية فائقة، وقدم باهتمام كبير حيث يقول "كنت أنا وابو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وقطرب النحوي وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان والخوان من جزعه والغضار صيني ملمع والألوان طيبة شهية وغذية وكل رغيف في بيان الفضة كأنه البدر وكأنه مرآه مجلوة، ولكنه على قدر عدد الرؤوس فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ولم يمدوا بشيء فيتموا أكلهم، والأيدي معلقة وأنما هم في تنقير وتنتيف " [4].

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 53-54.

[2] م. ن، ص45

[3] م. ن، ج 2، ص 41.

[4] م. ن، ج 1، ص 101.

ويروى الجاحظ قصة بخيل اخر يوصف بالشح والتقتير رغم إنه ينفق ألف درهم على مائدته كل يوم إلا إنه يفضل أن يرى شخصاً يطعن في أركان الدين على أن يكسر الرغيف الثاني فيقول في ذلك: " قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم في كل يوم وعنده في كل يوم عرس ولأن يطعن طاعن في الإسلام أهون عليه من أن يطعن في الرغيف الثاني ولا شق عصا الدين أشد عليه من شق رغيف" [1].

تناول الجاحظ البخل موضوعا وصورا ونماذجا وشخصيا، كما انه وقف عند فصلين في كتابه المحاسن والاضداد، حيث عرضت محاسن السخاء مقابل مساوئ البخل بقالب أمثال وأبيات شعرية ونوادر ذات طابع إخباري وقيمتها تقدم في كونها تكاد تؤخر للسخاء والبخل عند العرب خاصة، فقال "الجواد من لم يضن بالموجود" و"وبحاتم يضرب المثل في السخاء قيل كان حاتم جواداً شاعراً وكان حيثما نزل عرف منزله وكان ظفراً إذا قاتل غلب وإذا غنم نهب وإذا سئل وهب وغذا ضرب بالقداح سبق وإذا أسر أطلق وقيل: نزل على حاتم ضيف ولم يحضره القرى فنحر ناقة الضيف وعشاه وغداه وقال: إنك قد اقرضتني ناقتك فأحتكم عليه قال: راحلتين قال: لك عشرون أرضيت؟ قال: نعم فوق الرضى قال: لك أربعون ثم قال: لمن بحضرته من قومه من أتانا بناقه فله ناقتين بعد الفارة فأتوه بأربعين فدفعها للضيف" [2].

وينوه الجاحظ إلى مساوئ البخل فقال:"المثل السائر في البخل هو أبخل من مارد وهو رجل من بني هلال بن عامر بلغ من بخله إنه كان يسقي إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فشلح فيه ومدد الحوض به فسمي مارداً " [3]. وفي قصة أخرى أن هناك شخص يسمى أبو عبس وكان بخيلاً إذا وقع الدرهم في يده نقره بأصبعه ثم يقول: "كم من مدينة قد دخلتها ويد قد وقعت فيها الآن استقر بك القرار واطمئن بك الدار ثم يرمي به في صندوقه فيقول آخر العهد به" [4].

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص99-100.

[2] الجاحظ، المحاسن، ص76-77

[3] م، ن، ص 82.

[4] م، ن، ص 84-85.

ويظهر أن الجاحظ قد عالج مشكلة البخل في كتابه باعتبارها ظاهرة إنسانية من ناحية وباعتبارها ظاهرة بصرية وجدها في الطبقات الاجتماعية البصرية جميعها من ناحية اخرى، شكلت فيما بينها ظاهرة إنسانية عربية بصرية وربما لاحظ أن استشراءه عند الطبقة الوسطى من البرجوازيين بخاصة وهي الطبقة التي عني المؤلف بإبرازها، ومن شخصيات هذه الطبقة زبيدة بن محمد وأحمد بن خلف اليزيدي وخالد بن زيد وغيرهم، وقد أراد أن ينتقد طبقة محدده ظهرت في المجتمع أرادت أن تسلك طرقاً جديده من العادات والتقاليد لم يألفها العربي، ويعلن عن رفضه لهذه المؤثرات الدخيلة التي يرى إنها ستحدث فجوات أخلاقية واسعه في عادات العرب وتقاليدهم [1].

2. السرقة والقراصنة

و من الظواهر الاجتماعية الأخرى التي ذكرها الجاحظ ظاهرة اللصوص التي أوردها في كتابه " حيل اللصوص" ولكنه كتاب مفقود، وقد وصلت إشارات في عدد من المؤلفات فكان بهذا الكتاب أول من نقل موضوع التلصص من الحياة الغابرة إلى الحياة الحاضرة، ويرتفع به عن الأسلوب الإخباري إلى الأسلوب الغني بل لعله كان من أهم كتب الجاحظ الغنية في تصويره لبعض نواحي المجتمع الإسلامي المعقد في تلك الفترة من الزمن وما كان يداخله من الشرور الاجتماعية التي لا يخلو منها مثله تصويرا فنيا رائعا يجمع إلى الدقة في الوصف روح الفكاهة والسخرية التي تستغل بعض نواحي الضعف ومظاهر الغفلة فاتخذها موضوعا لها وهو امر نعهده في روح الجاحظ وأسلوبه معا [2].

وأشار إلى كتابه مرة أخرى في مقدمة كتاب الحيوان وسماه " حيل اللصوص" [3]، كما وذكره البغدادي في الفصل الذي كتبه عن الجاحظية فقال في لهجة متحاملة " وأما كتبه المزخرفة

[1] انظر: العمد، هاني، صورة، ص 116.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 250.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص162.

فأصناف منها كتاب في حيل اللصوص وقد علم بها الفسقة وجوه السرقة " [1]، ومهما يكن من لهجة هذه العبارة فهي تشير اشارة واضحة الى المنحنى الذي انتحاه الجاحظ في تأليفه.

و تشير الباحثة الى ان كتاب اللصوص يعتبر من الكتب المهمة للجاحظ التي لم يصلنا نصها كاملاً إلا إننا نستطيع أن نجد وصفاً له ومقتبسات منه في مؤلفات أخرى تطلعنا على شيء من طبيعة موضوعه وطريقته في التناول، ونجد هذه المقتبسات في مؤلفاته نفسه أو لسواه من الكتاب المتأخرين فوصف الجاحظ كتابه بقوله" إنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار وفي تفصيل حيل سراق الليل وإنك سددت به كل خلل وحصنت به كل عورة وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ونبهك عليه من غرائب الحيل فيما عسى ألا يبلغه كيد ولا يجوزه مكر وذكرت أن قدر نفعه عظيم وأن التقدم في درسه واجب" [2].

ويبين الجاحظ حيل اللصوص في الليل فذكر عن رجل إنه قال "كنت نافذاً بالأبله لرجل تاجر فأقتضيت له من البصرة نحو الخمسمائة دينار عيناً وورقاً ولففتها في فوطة وأردت السفر مساء إلى الأبلة فما زلت أطلب ملاحاً فلم أجد إلى أن رأيت ملاحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة فسألته أن يحملني معه وجعلت الفوطة بين يديه، فإذا برجل ضرير على الشط فصاح بالملاح ليحمله معه فشتمه الملاح، فقلت يا هذا إحمله، فدخل إلى الشط فحمله فلما قربنا من الابله لم أرى الفوطه واستغثته بالملاح، فقال لم أدخل الشط بعد ولا لي مواضع أخبئ فيها شيئاً فتتهمني بالسرقة، فاتقي الله، وفعل الضرير مثل ذلك، فرجحت وقلت هذه محنة فأخذ كل منا طريقه فاعترضني رجل فأخبرته، فقال امضي إلى السجن وسل عن رجل محبوس يقال له أبو بكر البغاش، فجأته فقال امضي الساعه إلى بني هلال فأنك تشاهد بابا شعثاً ففتحه وادخله بلا استئذان، وقل لمن فيه خالي أبو بكر البغاش يقول ردوا على ابن اختي الفوطه، فخرجت فردت الفوطه علي بعينها.

---

[1] البغدادي، الفرق بين الفرق، ص 162.

[2] الجاحظ، البخلاء، ص41

ويضيف "ورأيت الملاح وصاحبه فقلت كيف فعلتما؟ فقال الملاح أنا أدور في أول أوقات المساء وقد سبقت بهذا المتعامي فأجلسته حيث رأيت من معه شيئاً له قدر ناديته وأرخصت عليه وحملته، فإذا بلغت المتعامي وصاح شتمته حتى لا يشك الراكب في براءة ساحتي، فإن حمله الراكب فذاك وإن لم يحمله رققت عليه حتى يحمله، فإذا بلغنا الموضع الفلاني فإن فيه رجلا متوقع لنا يسبح حتى يلاحق السفينة والراكب لا يفطن له، فيأخذ المتعامي الشي الذي مع الراكب في حيلة خفيه فيأخذه هذا ويسبح إلى الشط فإذا أراد الراكب النزول وافتقد ما معه عملنا كما رأيت، فاذا كان الغد اجتمعنا واقتسمنا ما أخذناه واليوم كان يوم الفسحه فلما جئت برسالة أستأذنا سلمنا إليك الفوطة" [1].

ومن الحيل التي يتخذها اللصوص إزاء الكلاب التي يتخذها حراس الأسواق فإن اللص إذا أراد دار أهله أطعم الكلب الذي يحرسهم قبل ذلك مراراً ليلاً ونهاراً ودنا منه ومسح ظهره حتى يثبت صورته فإذا أتاه ليلاً أسلم إليه الدار بما فيها [2].وتصل السرقة حتى إلى المقابر فأخبرنا الجاحظ بأنه يسمى النباش المختفي لأنه يستخرج الكفن من القبر ويظهره [3].

وذكر أيضاً من حيل اللصوص إنه كان رجل من الجاهلية كان معه محجل وهي العصا المعوجه يتناول بها متاع الحجاج فإذا قيل له سرقت أجاب لم أسرق إنما سرق محجني [4].

و أشار الجاحظ أيضاً إلى القيقان وهم اللصوص، والقطريه وهم من القراصنه الذين كانوا ينطلقون من سواحل القطر، ويذكر أحد الباحثين أن الجاحظ اكتفى بتلك الظلال العابره لهؤلاء اللصوص وقطاع الطرق والقراصنة دون أي تفاصيل عنهم خلافاً لعادته في الاستطراد بإعتبار أنه في كتابه "اللصوص" المفقود قد تطرق بكثير من التفصيل إليهم هذا مع العلم إنه يستهل كتاب البخلاء بالتذكير بكتاب اللصوص[5].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص303

[2] م. ن، ج2، ص214.

[3] م. ن، ج 6، ص 130.

[4] م. ن، ج 3، ص 6

[5] انظر، السعد، فاروق، مع البخلاء، ص 87.

3. العيابون

ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي تناولها الجاحظ في كتبه ظاهرة العيابة، إذ أورد إلى عدد من العيابين في مجتمع البصرة بخاصة والمجتمع العراقي بعامة. وكان أساسها العيابة ويسمى أتباعها بالعيابين، وهم أولئك الذين يتناولون العيوب والنواقص وينشرونها منسوبة إلى أصحابها، وربما زادوا المشكلة تعقيداً وهم ينشرون العيوب ويذيعونها بما يزيدون عليها مما يرونه مناسباً[1].

ويورد الجاحظ رسالة سهل بن هارون خير ما يمثل هذا الاتجاه، فهو يبدأ بذكر صفات العيوب والعيابين وقال " إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عياباً فأنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب، وهذا يعني أن المجتمع قد شهد وجود طائفة من الناس كان همهم الأول ان يعيبوا ما في الناس وان يتتبعوا هفواتهم ربما خوفاً من قيام الناس هؤلاء بتتبع هفوات أصحابها وسقطاتها لذلك نرى أن العياب إنما يعيب إما بفضل ما فيه وإما دفاعاً عن نفسه [2].

ويرى سهل بن هارون أن" أول العيب أن تعيب ما ليس بعيب " وهذا يعني وجود هذه الفئة التي احترفت الاجتراح على الناس وإدارة عيوبهم وتكبيرها وتعظيمها والإنتقاص منهم بأمور لا يعترف المجتمع بأنها عيب، والمجتمع لا يرى أن ذكر العيوب حتى لو كانت قائمة، ويعتبر براً وفضلاً، وإنما العيب إن كان قد حصل يمكن أن يكون اجتهاداً أُصدر عن حسن نية.

ومن الواضح أن العيب الذي أخذ عن سهل بن هارون كان سببه إما إشاعة في أحاديثه وكتاباته من انتصار لضرورة الاقتصاد في النفقات وإدارة الأموال إدارة حكيمة وهذا يعني إن كان مجال حسد في القدرة على التدبير ونماء الأموال ودوام النعمة فالتمس العيابون الأسباب الواهية لإبطال المواقف الاقتصادية التي تبناها سهل بن هارون على شكل رسالة دعا فيها إلى مذهبه هذا ودعمه بالحجج والنصوص واستشهد بالأقوال التي صدرت عن كبار رجال الخبراء والعلماء المجربين[3].

---

[1] انظر، العمد، هاني، صورة، ص 78

[2] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص9

[3] م. ن، ص 34.

ويذكر الجاحظ أسماء عدد من العيابين في حين أخفى أسماء بعضهم فكان يقول " لقد رأيت رجلاً ضخماً فخم اللفظ فخم المعاني، تربية في ظل ملك مع علم جم اللسان عضب ومعرفة بالغامض من العيوب والدقيق من المحاسن مع شدة تسرع إلى أعراض الناس وضيق صدر بما يعرف من عيوبهم"[1]

ومن الواضح أن الجاحظ يرى في العياب أن يكون فخم اللفاظ والمعاني ذا لسان عضب ومعرفة بالعيوب واضحها وغامضها وقادراً على سلب أعراض الناس مع شدة تسرع إلى خصوصياتهم وضيق صدر بما يعرف من عيونهم لا يستر شيئاً مما يبيحه العرف أو لا يبيحه.

ويشير الجاحظ إلى أن العيابين قد صبوا معظم اهتمامهم حول الطعام فمنهم من كان يدعى للموائد لإضفاء جو الفكاهة والضحك على موائد الموسرين متناولين أخلاق الناس ومتندرين حول بخل بعضهم، وأحداث هذا البخل مصورين الأحداث كما وقعت أو كما يحلو لهم أن يصوروها دفعا لما يفرضه الجو العام ويكفي أن نستشهد بكلام أبي فاتك الذي كان لديه معجم من ألفاظ العيابة يستخدمه وقتما شاء وهو يعتقد بأن الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافاً ولا مرساً ولا لكاماً، فكيف لو رأى ابو الفاتك اللطاع او القطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول وما من شك في أن هذه الألفاظ وأمثالها تدل على قدرة لا يستهان بها في تصوير الآكلة وما يمكن أن يعابوا به.

ويرى الحارثي أن الإنسان أيا كان ما يمكن أن يعيبه عند الأكل ويقول: وإني لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ما ذمه، وبعض ما شنعه وقبحه، وهذا يعني أن الإنسان معرض من هذه الناحية للمؤاخذة والمراقبة وتتبع الهفوات والسقطات فكيف إذا قصد ترصده؟ وكيف إذا ظهرت عيوبه واتضحت للناس مساوئه؟ والتندر بها وإضافة ما يمكن أن يضاف عليها [2].

ويرى بعض الباحثين أن كتاب البخلاء مبني أساساً على العيابة والعيابين فالبخلاء مرضى بالعيب، ومن كتب عنهم إنما أراد أن يرصد عيوبهم وربما أتهم بتصيد العيب وتمجيده، فإذا كان

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 57.

[2] م. ن ص 67-69.

ذلك كذلك فقد يكون الجاحظ نفسه الذي كتب في ظاهرة البخل والبخلاء من أكبر العيابين في عصره ذلك إن رصد العيب وتتبع العيوب، وسجل للعيابين ملاحظاتهم ولم يقصر هذه الظاهرة على البخلاء وإنما أراد أن تطال الكرماء كذلك [1].

4. اللوط والزنى

يتناول الجاحظ ظاهرة اجتماعية أخرى هي ظاهرة اللوط، فيقول والناس يسمون الرجل إذا بلغ من حرصه ألا يدع ذكراً غلاماً كان أو رجلاً وخصياً كان أو فحلا إلا نكحته من فرط غلمته، ومن قوة فحلته صيصية ويقولون ما فلان إلا صيصية وهو عندهم إسم لمن اشتد لوطه تشبيهاً منهم بصيصية الديك في الحدة والصلابة [2].

ويذكر الجاحظ ما فعله أصحاب هذه الظاهرة الاجتماعية من التعرض للنساء في الطرقات فيقول وبينما داوود بن المعتمر الصبيري جالس معي إذ مرت به امرأة جميلة لها قوام وحسن وعينان عجيبتان وعليها ثياب بيض فنهض داوود فلم أشك أنه قام ليتبعها فبعث غلامي ليعرف ذلك فلما رجع قلت له: قد علمت أنك إنما قمت لتكلمها فليس ينفعك إلا الصدق ولا ينجيك مني الجحود وإنما غايتي أن أعرف كيف ابتدأت القول وأي شيء قلت لها وعلمت أنه سيأتي بابدة وكان بالأوابد قال: ابتدأت القول بأن قلت (لها): لولا ما رأيت عليك من سيماء الخير لما أتبعك قال: فضحكت حتى أسندت إلى الحائط ثم قال إنما يمنع مثلك من اتباع مثلي والطمع فيها ما يرى من سيماء الخير فأما إذا قد صار سيماء الخير هو الذي يطمع في النساء فإنا لله وإنا إليه راجعون [3].

اما موقف الجاحظ من اللوط والزنى فأنه ذمها، كما وأن احتقاره لهذه الظاهره التي ظهرت في عصره كان لها أنصارها والمدافعون عنها فيقول فيها:"والذي يدل على أن هذه الشهوة معيبة في نفسها قبيحة في عينها أن الله تعالى لم يعوض في الآخرة بشهوة الولد أن من ترك لوجهه في الدنيا شهوة الغلمان كما سقى في الآخرة الخمر من تركها له في الدنيا [4].

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 86-87.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 133.

[3] م. ن، ج3، ص 18-19.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص43

اتضح ايضا ان موقف الجاحظ من اللواط كما يظهر من خـــلال رســـالتيه مفـــاخرة الجـــواري والغلمان وتفضيل البطن على الظهر موقف سلبي للغاية [1].

5. الاخصاء

ويتطرق الجاحظ الى ظاهرة الخصاء وخطر استمرارها وآثارها في المجتمع حيث عدها إحدى المشكلات الاجتماعية التي لها آثار كبيرة في المستوى الفردي والاجتماعي، وقد أرجع جذورها إلى أسباب اجتماعية ذات صلة بطبيعة الضغائن والأحقاد البشرية ومنها أسباب ذات صلة بالدين لأجل العبادة وتقليل خطر الشهوات بحسن نية ثم انتقل إلى أهم نتائجها المترتبة علـــى الحســـد والعداوة تجاه الفحول من الأفراد إلى جانب المعاناة النفسية والجسمية التي يتركها الخصاء على الفرد وتفاعله مع الآخرين في ضوء الدور والمكانة الاجتماعية في المجتمع.

ويشير إلى الإخصاء في البشر من خلال القصص، فقال وكان من طرائف ما يـــأتي بـــه عبـــد الأعلى القاص قوله في الخصي وكان لغلبة السلامة عليه يتوهم عليه الغفلة وذكر الخصي فقال: إذا قطعت خصيته قويت شهوته وسخنت معدته ولانت جلدته وانجردت شعرته واتسعت فقحتـــه وكثرت دمعته، وقالوا الخصي لا يصلع كما لا تصلع المرأة وإذا قطع العضو الذي كان به فحلاً تاماً أخرجه ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم وإذا أخرجه من ذلك الكمال صـــيره كالبغـــل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً وتصير طباعه مقسومة على طباع الذكر والانثى.

ويبين الجاحظ ما يعتري الانسان بعد الخصاء على ما كان عليه قبل الخصاء فقالوا كل ذي ريح ممتنه وكل ذي دفر وصنان كريه المشمه كالنسر وما أشبهه فأنه ما خصي نقص نتنـــه وذهـــب صنانه فإن الخصي يكون أنتن وصنانه أحد، ويعم أيضاً خبث العرق سائر جسده حتـــى لتوجـــد لأجسادهم رائحه لا تكون لغيرهم. وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدام وإعوجاج في أصابع اليد وإلتواء في أصابع الرجل وذلك في اول طعنهم في السن وتعرض لهم سرعة التغيـــر والتبـــدل

[1] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص 89-137.

وانقلاب من حد الرطوبة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته وكثرة الماء وبريقه إلى التكـــرش وإلى التقبض والهزال وسوء الحال [1].

ويصف الجاحظ اخلاق الخصي بأنه ليس برجل ولا إمراه وأخلاقه مقسمة بين أخـــلاق النســـاء وأخلاق الصبيان كما إنه وصف الخصي كالسيوف تلمع في وجه كأنه مرآه صينية وكأنه قضيب فضه قد مسه ذهب وكان في وجناته الورد فإن مرض مرضه أو طعن في السن ذهب ذهابـــاً لا يعود [2]. ومن صفات الخصي الأخرى سرعة الغضب والرضا وذلك من أخلاق الصبيان والنساء ويعرض له حب النميمه وضيق الصدر بما أودع من السر وهذا أيضاً مـــن أخـــلاق الصـــبيان والنساء كما ويعرض له دون أخيه لامه وأبيه ودون ابن عمه وجميع رهطـــه البصـــر بـــالرفع والوضع والكنس والرش والطرح والبسط والصبر على الخدمة وهذا يعـــرض للنســـاء، كمـــا ويتصف بالصبر على الركوب والقوة على كثرة الركض، حتى يجاوز في ذلك رجال الأتـــراك وخراسان الخوارج ومتى دفع إليه مولاه دابته ودخل إلى الصلاة أو ليغتسل في الحمام أو ليعود مريضاً لم يترك أن يجري تلك الدابة ذاهباً وجانباً إلى رجوع مولاه إليه [3].

ويرى الجاحظ أن الخصيان يتولون الصناعات الصغيرة والبسيطة كالخدمة والحجامة وإجـــراء الخيل وكان بعضهم يحسن صناعة الدبوق ويجيد دعاء الحمام الطـــورى (الوحشـــي)، وزعـــم الجاحظ إنه لم ير أحدهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شـــيء مـــن الحكمة [4].

وتألف المجتمع العباسي كغيره من المجتمعات الإنسانية، العديد من الفئات والشرائح التي تتدرج ضمن طبقة العامة، لعب كل منها دوراً بارزاً داخل طرقات المجتمع مسببين له نوع من القلـــق والاضطراب، فكان لكل منهم طرقها الخاصة للحصول على المال، فأطلق عليهم اسم الشحاذين او الظرفاء، من هذه الفئات "المخطراني "، إذ يظهر الرجل وكأنه مقطـــوع اللســـان، وبجانبـــه

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص100 –114

[2] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص123.

[3] م، ن، ج 1، 113–114.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 114–127.

شخص يعبر عن حالته، "والكاغاني "الذي يدعي بأنه شخص مجنون أو فيه صرع، ليشفق عليه الناس ويقدمون له الدراهم، "والقرسي " الشخص الذي يعصب ساقه أو ذراعة، ليختنق الدم فيها، ثم يمسحه بشيء من الصابون المخلوط مع دم الأخوين (نبات يسمى العندم)، فيظن الناس بأنه مصاب بمرض الآكلة.[1]

وظهر أيضاً "المشعب "وهو الشخص الذي يحتال للصبي حين يولد ليعميه أو يجعل في يده أو رجله عوج للإنتفاع من ورائه[2]، وهناك "العواء" الذي يسأل بين المغرب والعشاء، وذلك من حيل الشحاذين حتى لا يردهم أحد، "والأسطيل " الذي يجعل الناس يعتقدون بأنه أعمى أو في عينه ماء، "والمزيدي " وهو شخص يحمل الدراهم ويطلب الزيادة فيها، ومنهم من كان يحمل طفلاً بأنه لقيط، "والمستعرض " إذ يكون في أجمل ثيابه ويعترض الناس في الطرقات ليكلمهم سراً بأنه بحاجة إلى المال، و" المعدس " إذ يقف على الدواب الميته في الطريق ويبكي لينال بدلاً منها أو مالاً تعويضاً عنها، وقيل بأنه يتعلم عدة لغات حتى يستطيع إقناع الناس بأنه خارج من بلده ومات ما كان معه من دواب [3].

ب. العادات الاجتماعية

يتحدث الجاحظ في مؤلفاته عن كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التي سادت المجتمع في عصره كعادة الزواج والطلاق، كما أشار الى انغماس الناس في المجتمع العباسي في حياة اللهو والترف نتيجة تحسن المستوى الاقتصادي، وبدا واضحاً في حياة القصور من خلال التفنن في الطعام والشراب والأزياء ووجود أماكن خاصة للهو والطرب والغناء، ووجود الجواري والغلمان في قصور الخلفاء لأغراض شتى، إذ أصبحوا عنصراً أساسياً في حياتهم [4]، حتى إنه تطرق للحديث عن الأحوال الاجتماعية السائدة من حيث التعليم والحالة الصحية والمناسبات الدينية والشعبية.

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص97 –99.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص (97–99) – البرصان، ص 237.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص 97–99

[4] انظر: الطريفي، هويدا، ملامح، رسالة ماجستير، ص76،

1. الــزواج

تناول الجاحظ موضوع الزواج والطلاق، وبين ميلهم للزواج من الحرائر ونظرتهم إلى الإمــاء وإلى أبنائهم الهجاء هي التي أدت الى حرصهم على التزوج من الحرائر مــن ذوات الشــرف والحسب أو كما كانوا يسمونهم (عقائد القوم)، وكان يوصى النظر إلى آباء النساء وإخوتهن عند الزواج ولما جلس عثمان بن عفان على المنبر قال " يا أيها الناس إن الله قد فتح عليكم إفريقيــة وقد بعث إليكم ابن أبي السرح عبدالله الزبير وبالفتح قم يا ابن الزبير " قال: فقمت فخطبت فلما نزلت قام فقال: " يا أيها الناس إنكحوا النساء على آبائهن وإخوتهن فإني لم أر لأبي بكر الصديق ولداً أشبه من هذا " [1]، وكان من سننهم في خطبة النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب [2].

ويشير الجاحظ إلى أن الزواج عن طريق الخاطبات لم يكن يخلو من المخاطر وذلك أنهن كــن يتسترن على عيوب العرائس، لذا كان الزواج يتم عن طرق أخرى أيضاً منها الإتصال المباشر بين الخطيبين حيث يتعارفان في الأسواق التجارية أو عن طريق الصداقات العائلية وعلى العموم فإن الرجال كانوا يتشددون في اختيار نسائهم [3]، وكانوا لا يرون بأساً بأن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج ولا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها.

ويحرص الجاحظ على ضرورة أن يرى الرجل وجه العروس أثناء الخطبة قبل الزواج، فيقول " وإن بعض من احتج للعلة التي من أجلها أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات وان الرجل قبل أن يملك الآمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة فأقدم على ابتياعها بعــد وقوعها بالموافقة، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء والنساء لا يبصرن من جمال النســاء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً والرجال بالنساء أبصر وإنما تعرف المرأة ظــاهر الصفة وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك [4].

---

[1] الجاحظ، البيان، ج1، ص406.

[2] م، ن، ص 117-118.

[3] م، ن، ج31، ص 227

[4] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 157-158.

ويبين الجاحظ أن البعض كان اختياره للزوجة بناء على صفات معينة، بحيث تكون إمرأة بكراً أو ثيبا بقوله: " كبكر حصاناً عند جارها، ماجنة عند زوجها، قد أدبها الغني وذللهـــا الفقـــر، لا ضرعة ولا صغيرة ولا عجوز كبيرة، وتكون قد عاشت في نعمة وأدركتها حاجة، لهـــا عقـــل وافر، وخلق طاهر، وجمال ظاهر صلته الجبين، سهلة العرنين، سوداء المقلتين، خدلجة الساقين، لفاء الفخذين، نبيلة المقعد كريمة المحتد، رحيمة المنطق لم يداخلها صلف، ولم يشـــن وجههـــا كلف، ريحها أرج، وجهها بهج، لينة الأطراف ثقيلة الأرداف، لونها كـــالرق وثـــديها كـــالحق، أعلاها عسيب وأسفلها كثيب، لها بطن مخطف وخصر مرهف، وجيد أتلع ولب مشـــبع تتثنـــى تثني الخيزران، وتميل ميل السكران، حسنة الماق في حسن البراق، لا الطـــول أزرى بهـــا ولا القصر".

وأشار أيضاً إلى تحذيره من الزواج من بعض النساء بقوله على لسان خالد بـــن صـــفوان " لا تتزوج واحدة فتحيض إذا حاضت وتنفس إذا نفست وتعود إذا عادت وتمرض إذا مرضـــت ولا تتزوج اثنتين فتقع فيما بين الجمرتين ولا تتزوج ثلاثاً فتقع بين أثافي ولا تتزوج أربعا فيحقرنك ويهرمنك ويفلسنك." [1].

وتباينت المواقف واختلفت الأقوال في الزواج والزوجات، فكانت النظرة المتعلقة التي تحـــرص على الحياة الزوجية وتقدس الزواج وتؤكد على حسن الاختيار فيقول" وتنظر إلـــى الزوجـــات نظرة الاحترام والود وكانت تقابلها في ذلك الجانب الصاخب العابث من المجتمع النظرة التـــي ترى الزواج عبئاً ثقيلاً وهماً مستديماً، وترى في الزوجـــات الشـــريكات مســـتقبحات الشـــركة مستكرهات العشرة سيما بعد مرور السنين ونضوب سمات الجمال والشباب وما حاجة أمثـــالهم إلى الزوجات ومجتمعهم يعج بالإماء الحسان ويزخر باللذة الرخيصة المبذولة، وقد بدت آثـــار هذين الموقفين المتباينين في أقوالهم وأشعارهم وأخبارهم، فهناك إشارات كثيرة إلـــى تفضـــيل التزوج بالحرائر وعدم التسري بالجواري [2]، فقيل " لا تفترش من تداولتها أيدي النخاسين ووقع

[1] الجاحظ، المحاسن الاضداد، ص 183-184.

[2] م. ن، ص 300

ثمنها في الموازين " وقيل " لا خير في بنات الكفر وقد نودي عليهن في الأسواق ومرت عليهن أيدي الفساق " كما قيل أيضاً " الجواري كخبز السوق والحرائر كخبز الدور" وقال الشاعر يحث على التزوج من الحرائر ونبذ الجواري:

إذا لـــم يكـــن فـــي منـــزل المـــرء حـــرة رأي خلـــلا فيمـــا يـــولى الولائـــد

فـــلا يتخـــذ مـــنهن حـــر قعيـــدة فهـــن لعمـــر الله شـــر العقائـــد

ويوضح الجاحظ الصفات الواجب توافرها في الزوج بقوله نه دخل على الوليد فتى مـــن بنـــي مخزوم وطلب الزواج من ابنته، فسأله إذا كان يقرأ القرآن، وعندما أجاب الآخر بالنفي قيل أن الوليد ضرب عمامته وقرع رأسه بقضيب كان معه ثم قال إذا قرأ القرآن زوجناه [1]. كما كـــانوا ينظرون إلى الزوج نظرة خاصة فقيل على لسان عثمان بن أبي العاص بأن الناكح مغترس لذلك أوصى بأن ينظر المرء أين بضع غرسه، وقالت هند بنت عتبة " المرأة غل ولا بد للعنق منـــه فأنظر من تضعه في عنقك " [2]. وأشار الجاحظ إلى صداق المرأة فإما أن يكون عينـــاً أو نقـــداً ومنه قولهم ساق إلى المرأة صداقها فقالوا: وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصـــداق إبلاً وتلك الإبل يقال لها النافجة. وبذلك قال الشاعر: [3]

ولـــيس تـــلادى مـــن وراثـــة والـــدي ولا شـــاد مـــالي مســـتفاد النـــوافج

تناول الجاحظ في حديثه التقاليد المتبعة في الزواج فذكر إنهم كانوا يضربون على العروس البناء كالقبة والخيمة والخيام على قدر الإمكان [4]، وقد تشترط المرأة على الرجل قبل الزواج شروطاً معينة مثلما اشترطت أم موسى الحميرية على المنصور بعدم التزوج أو التسري عليها، والأكثر من هذا فإنها كتبت عليه بذلك كتاباً أكدته واشهدت عليه بذلك فبقي مدة عشر سنين من ســـلطانه فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه، ويحمل إليه الفقيه من أهـــل الحجـــاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب يفتيه برفضه، فكانت أم موسى إذا علمـــت مكانـــه بادرتـــه

---

[1] الجاحظ، البيان، ج2، ص203

[2] م. ن، ج3، ص 267

[3] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 312.

[4] م. ن، ص 312.

فأرسلت إليه بمال جزيل فإذا عرض عليه أبو جعفر المنصور الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد.[1]

زاد التسري في العصر العباسي حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من أولاد الجواري [2]، وقد بين الجاحظ العلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات بأن الرجل قبل أن يملك الآمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة. أما الحرة إنما يستشار في جمالها النساء وهؤلاء لا يبصرن من جمال بعضهن وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، فأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فأنها لا تعرف ذلك [3].

و أشار الجاحظ إلى أن الغيرة عند النساء تكون أكبر وذلك لضعفهن حتى إنهن " يغرن على الظن والحلم في النوم وتغار المرأة على أبيها وتعادي امرأته وسريته [4]. أي أن الغيرة تعمدت غيرة المرأة على ضرتها أو سرية زوجها إلى غيرة المرأة على زوجة أبيها أو سريتها.

2. الأطعمة

قدم الجاحظ في مؤلفاته صورة عن الحياة الاجتماعية في العصر العباسي فيما يخص الأطعمة، موضحاً حاجة الناس اليومية إلى الطعام لأن الغاية من ذلك " هو الشبع لدفع ألم الجوع، وفاخر الطعام ودنيئه جميعاً مشبعان، فليس للمبالغة في تجويد الطعام كبير حظ والأولى هو التوسط في أنواع المأكل، وأن يكون من الجنس الذي نشأ عليه الإنسان واعتاده وألفه "[5].

تنوعت الوان الأطعمة في المجتمع العباسي تنوعاً ظاهراً واختلفت من بلد إلى بلد ومن طائفة اجتماعية إلى أخرى وغدت في تنوعها صورة واضحة لإمتزاج العناصر المتباينة في المجتمع.

---

[1] الجاحظ، المحاسن، ص 192

[2] م. ن، ص 230– 231

[3] م. ن، ص 157

[4] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص 158

[5] الجاحظ، تهذيب، ص 43.

كما تباينت عادات القوم في مأكلهم وتفضيل صنف من الأطعمة على الآخر حتى غدا لكل بلد من البلدان لون بعينه من الطعام عرفت به وفي ذلك يقول الجاحظ "سئل بعضهم عن حظوظ البلدان في الطعام وما قسم لكل قوم منها فقال ((ذهبت الروم بالحشو والحسو وذهبت فارس بالبارد والحلو)) وقال دوسر المديني (لنا الهرائس والقلايا ولأهل البدو اللبأ والسلاء والجراد والكمأة والخبز في الرائب والتمر بالزبد).

وقد قال الشاعر:

الا ليت خبزا قد تسربل رائبا وخيلا من البرني فرسانها الزبد

وتطرق الجاحظ إلى مزاعم الناس في تناول الطعام بأن النساء آكل من الرجال، موضحاً السبب في ذلك " أكل النساء يكون متفرقاً، من غدوة إلى الليل، والرجل أكلة في الدفعة أكثر من هذا في الجملة " [1].

ويبين الجاحظ اهتمام خلفاء بني العباس بأنواع الأطعمة، فحرصوا على جلبها من الأقطار المجاورة إلى قصورهم فطلبوا العديد من أنواع الفاكهة واللحوم لتوضع على موائدهم[2]، متأثرين بعادات الشعوب التي احتكوا بها، فتفننوا في إعداد الموائد فاحتوت في عصر المأمون على ثلاثين صنفاً من الطعام، بالإضافة إلى الفاكهة[3].

و أطلق العرب على الموائد التي كانت تقام في المناسبات أسماء عدّة، فأقاموا وليمة الخرس وهو الطعام الذي يتخذ للرجال والنساء في صبيحة الولادة، ابتهاجاً بالمولود، فقيل [4]:

شركم حاضر وخيركم در خروس من الأرانب بكر

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 341.

[2] الجاحظ، التاج، ص 49-50

[3] الجاحظ، التاج، ص 49-50. البرصان، ص 345.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص179-181. أنظر: اللقاني، رشيدة، ص 35.

وهناك أيضاً العقيقة (الشاه التي تذبح في اليوم السابع من ولادة المولود)، والأعذار التي تحضر عند ختان الأولاد، والوكيرة التي تقام بعد الانتهاء من البناء، فكان الرجل يطعم من يعمل لديه، وإذا فرغ من البناء، يدعو أصحابه للطعام للدعاء له، فقيل:[1]

خبـــــر طعـــــام شـــــهد العشـــــيرة العـــــرس والأعـــــذار والـــــوكيرة

وذكر أيضاً النقيعة، وهو الطعام الذي يصنع للقادم من سفره او للرجل ليلـــة زواجـــه او كـــل جزورة تجزر للضيافة [2].

ويبين الجاحظ أسلوب الدعاء إلى الطعام في هذه الأصناف من الولائم، فكان منه المذموم وهـــو النقري، والممدوح وهو الجفلي، فقيل أجيبوا إلى طعام فلان فجعلهم جفلة واحدة وهـــي الجفالـــة فذلك هو المحمود وإذا انتقر فقال: قم أنت يا فلان وقم أنت يا فلان فدعا بعضاً وتـــرك بعضـــاً، فذلك مذموم، فيجب أن تكون للجميع دون تمييز [3].

وقد أظهر الأدباء والشعراء اهتمامهم بالأطعمة من خلال أشعارهم ورواياتهم الأدبية، فجاء ذلك إرضاءً للملوك والخلفاء، الذين حرصوا على انتقاء ما لذ وطاب من الطعام[4].وزاد اهتمام الناس بأصناف الطعام في ظل الدولة العباسية، مما جعل الخلفاء يوظفون لديهم مـــن يهـــتم بالطعـــام والموائد، فأطلق عليه اسم "الطباخ " ويعد السندي أفضل من غيره في إعداد الطعـــام[5]، فعرفـــوا عدة أنواع، صنع بعضها بالدقيق، مثل الحريرة (دقيق يطبخ بلـــبن او دســـم)[6]، وقيـــل يقصـــد بالحريرة اللحم المقطع إلى قطع صغيرة ويطبخ مع الدقيق [7]، والعصيدة [8](وهو دقيق يطبخ بالماء

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص179–181. أنظر: اللقاني، رشيدة، ص 36 –37.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 179 – 181. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 37.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 72. البخلاء، ج 2، ص 181.

[4] انظر: يوسف، مي، الاطعمة، مجلة البلقاء، م(6)، ع(1)، ص 85–87.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 224.

[6] الجاحظ، البرصان، ص345.

[7] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 102.

[8] الجاحظ، البرصان، ص345 –البخلاء، ج(2)، ص52.

الخالي من اللحم، وفي مصر يضاف إليها اللبن ثم السكر أو العسل، ويوضع بجانبه الخبز[1]، والأرز[2]، والمثلثة التي يذهب نصفها خلال الطهي[3] (وهي طعام يتخذ من الدقيق وماء ودهن، وعرفت عن طريق الفرس[4])، والثريد، التي تحتوي على فلفل وبهارات، ويصبح لونها دكناء اسود[5]، والبهيطة (أرز يطبخ بالسمن واللبن)[6]، وسكرجة كافح (طعام يصنع من البقوليات والملح واللبن)[7]، وأكلوا أيضاً اللبئ (أول اللبن عند الولادة)[8]، واللباء السلاء (ما يطبخ ويصفى من السمن)[9].

واتجه الناس إلى طهي البقوليات، فتناولوا الجزر الصافي[10]، والجزر المسلوق مع الخل والزيت والزبد والفلفل[11]، وتناولوا الباقلاء مع قشره لما تحتويه من فائدة[12]، اذ وجد نوع منه أطلق عليه الباقلاء العباسي[13]، وهناك أيضا الكمثري[14]، والزيتون[15]، والفجل والكرنب[16]، والبصل والباذنجان[17]. واشتهر عندهم الطفشيل، وهو نوع من المرق التي تكثر فيه اللوبيا[18]، وقيل أنه

---

[1] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 102.

[2] الجاحظ، البرصان، ص345.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص79،

[4] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 92-93.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص130.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص52. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 96.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص3.

[8] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص45.

[9] م. ن، ص130.

[10] م. ن، ج(1)، ص180.

[11] م. ن، ص181.

[12] م. ن، ج(2)، ص 7.

[13] م. ن، ج(1)، ص180.

[14] م. ن، ص180.

[15] الجاحظ، البيان، ج(4)، ص12. الحيوان، ج(3)، ص22، 68. البخلاء، ج(1)، ص56-57.

[16] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص125.

[17] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص389.

[18] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص 125.

من الألفاظ الفارسية، وهو نوع من المرق المطبوخ باللحم، وهو من التنوريات، أي التي تنضج في التنور)[1].

ويقدم الجاحظ صوراً غريبة عن طعام أهل بلاد فارس، فذكر أكلهم للديدان والجرذان والفئران والضفادع، فذكر رواية تبين طريقة أكلهم للفئران، فقيل:"دخل رجل على رؤبة، فاذا هو يمل(يشوي) جرذانا فإذا نضجت أخرجها من الجمر فأكلها، فقلت له:أتأُكل الجرذان؟ قال:هي خير من اليرابيع والضباب، فهي عندكم تأكل التمر والجبن والسويق وتحسو الزيت والسمن "، ويقال بأنها تؤكل مقمورة ومملوحة، ويطلقون عليها اسم "جنك جنك، وال وال "، وذلك من شدة شهيتهم لها [2].

الخبز

يشكل الخبز العنصر الاساسي في غذاء الناس، بالرغم من وجود العديد من الأصناف، فهم يأكلون الخبز الذي يخمر عجينه [3]، وكان خبزهم من دقيق الخشكنار (الدقيق غير المنخل [4]، وقيل الدقيق الخشن المصنوع من الشعير [5])، وعرفوا السويق (الخبز المصنوع من الشعير والحنطة)[6]، وعرفوا الكعك الذي يصنع من دقيق الشعير [7]، والبسيسة، إذ يقومون بوضع الماء على الدقيق، ثم يؤكل [8]، وقيل دقيق يخلط بالسمن أو الزيت [9].وفضل العباسيون الطحين الذي يطحن على البغال من المطحون على رحى الماء في القرى، واعتبروا ذلك أشهى وأطيب[10].

---

[1] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 68.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص 171. انظر:المجالي، رابعة، صورة الاقوام، مجلة عين شمس، م(40)، ص 115.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص34.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص 175. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 116.

[5] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 116.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص131.

[7] م. ن، ص 43.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص302.

[9] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 98.

[10] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص353-354.

اللحوم

شكل اللحم العنصر الرئيس والمفضل عند العرب في طعامهم، فظهر منه العديد من الأصناف في العصر العباسي مثل، لحم الدجاج الذي يميلون اليه اكثر من أي نوع آخر، إذ قدمه الخلفاء على جميع الفراخ والنواهض والبط والدراج ولحم الجداء والعتق الحمر (أولاد الماعز، إذ تعددت أنواعه وأسماؤه فمنه الخلاسي والهندي والزنجي والكسكري،)[1]، فأكثر اللحوم استهلاكاً عندهم هو لحم الدجاج فيأكل مشوياً وحاراً وبارداً ويستخدم في العديد من الأطعمة مثل البزماورد (طعام مكون من اللحم والبيض، وقيل تعرف بلقمة القاضي، وفي المحاشي، والملاقسطي والإسفرجات [2]، والهرائس (طعام يتخذ من الحنطة واللحم)[3].

وذكر الجاحظ انواعاً أخرى من اللحوم كلحم الماعز فذكر أنواع الماعز وصفاتها ومنافعها دليل على فضلها، ومن ذلك أن الصفية أحسن من النعجة وفي إسمها دليل على تفضيلها ولبنها وأولادها أكثر إضعافاً وزبدها أكثر وأطيب، لذلك فهي تحلب خمسة مكاكيك (مكيال عند اهل العراق) ومن منافعها كذلك الانتفاع بشحم الثرب والكلية وهما فوق شحم الالية واذا مدحوا اللحم قالوا: لحم الماعز الخصي الثني وقال الشاعر:

كان القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون قد مالت طلاهم

وقيل بأن الجدي أطيب من الحمل وأكرم وربما قدموا على المائدة الحمل مقطوع الآلية من أصل الذنب ليوهموا إنه جدي، ويحمل الملوك معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحوامل، والجداء هي المثل في المعز، وكانوا يعمدون إلى قلي اللحم ويعملون منه الطباهج وهو طعام من بيض وبصل ولحم وقيل إنه الكباب والعرب تسميه الصفيف، بالإضافة إلى ذلك فإن اللحم كان يدخل في طبخ الشبارقات والاخبصة والفالوذجات.

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(2)، ص138–139. القاضي الرشيد، الذخائر، ص 103. انظر:يوسف، مي، الطعمة، البلقاء. م(6)، ع(1)، ص100

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(2)، ص138–139.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج(2)، ص138–139. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 97.

وقد ابتعد البعض عن تناول لحم الجدي، لإعتقادهم بأنه يورث الهم والنسيان لآكلـــه، إلا إنهـــم قاموا بحشو الذبيحة [1]، وتناولوا الرأس لما يحتويه من عقـــل[2]، والكبـــد والقلـــب والأحشـــاء[3]، والكرش[4]، ووجدت أنواع من الأطعمة مكونها الاساس من اللحم، مثل العصافيرية (اللحم المقلي أو المشوي)، والطباهجات (الكباب[5]، وقيل طعام مكون من بيض وبصل ولحـــم، وقيـــل اللحـــم المقلي[6])، والرقطاء المصنوعة من الحمص واللحم [7]، والجواذاب التي تتكون من الأرز والسكر واللحم[8]، والشبارقات الذي يطبخ بعد تقطيع اللحم إلى قطع صغيرة[9]، والبزماورد، الذي يصـــنع من البيض واللحم[10].

الأسماك

يظهر إنه كان في أسواق مدن العراق حوانيت تعد أنواعاً من الأطعمة يبتاعها الناس وكانت هذه الحوانيت تعرف باسم الكرابج، ومن الأطعمة الأخرى التي لا يقل تناولها أهمية عن اللحوم هي الأسماك، الذي اعتبر من الأطعمة المهمة في العصر العباسي، وظهر منه أنواع كثيرة، فأقبـــل عليه النصارى بشكل كبير، مما أدى إلى ارتفاع أسعاره محددين لهم أيـــام الســـبت والثلاثـــاء والخميس لشرائه [11].و تناول أهل السودان والحبشة والنوبة السمك النيء غير المطبوخ[12].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(5). ص 311–320،

[2] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص16..

[3] م. ن، ص45.

[4] م. ن، ص85.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص151.

[6] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 81.

[7] الجاحظ، الخلاء، ج(2)، ص130.

[8] م. ن، ص52.

[9] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص163. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 73–74.

[10] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص57 – التاج، ص284–285.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص258–259. انظر:يوسف، احلام، الاطعمه، مجلة البلقاء، م(6)، ع(1)، ص106

[12] الجاحظ، الحيوان، ج(7)، ص288.

وقد وجد العديد من أنواع السمك، فهناك الشبوط الذي يعد من أطيب الأنواع وأجودها، لعيشه في المياه العذبة[1]، " وأرفعها ثمنا واكثرها تصرفا في المالح، " وهناك الجري[2]، والنباني[3]، والأسبور[4]، والجواف [5]، والبرستوج الآتي من بلاد الزنج إلى مياه دجله ثم يعود إلى المحيط الهندي [6]،، وهو إسم فارسي معناه ناقص الشعر والأسنان[7]، والدلفين[8]، والبرستوك[9]، والسرطان[10]، والربيثاء (نوع من السمك الصغير)[11].وهناك سمك يقال له الكوسج غليظ الجلد أجرد يشبه الجرى وليس بالجري في جوفها شحمة طيبة فإن اصطادوها ليلاً وجدوها وإن اصطادوها نهاراً لم يجدوها وهذا الخبر شائع في الأبلة وعند جميع البحريين وهم يسمون تلك الشحمة الكبد. وفي المقابل يذكر الجاحظ نوع من السمك الرديء يسمى شلقة والمراد بالشلق والشلقة صنف من السمك رديء ويذكر "ما زال الشلق معروفاً في العراق وأهل السمك وباعته ولا سيما في جنوب العراق يعرفون هذا الصنف الرديء منه ".

وقدم السمك كطعام على مائدة الضيوف، فيبين الجاحظ ذلك بقوله: " تغديت مع راشد الأعور فأتونا بجام فيه بياح سبخي الذي يقال له الدراج فجعلت آخذ الواحدة فاقطع رأسها ثم اعزله ثم أشقها باثنين من قبل بطنها فأخذ شوكة الصلب والأضلاع فأعزلها وأرمى بما في بطنها وبطرف الذنب والجناح ثم أجمعها في لقمة واحدة وآكلها، وكان راشد يأخذ البياحة فيقطعها قطعتين

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص186 –الحيوان، ج(1)، ص 170. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 89.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص170

[3] م. ن، ج(3)، ص10.

[4] م. ن، ج(3)، ص143–144. ج(4)، ص56–58.

[5] م. ن، ج(3)، ص 143–144.

[6] م. ن، ص145.

[7] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 88.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص370.

[9] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص284،

[10] م. ن، ص52.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص52. انظر: يوسف، مي، الاطعمة، م(6)، ع(1)، ص 108. اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 91.

فيجعل كل قطعة في لقمة لا يلقى رأسا ولا ذنباً فصبر لي على لقم عدة فلما بلغت المجهود منه قال: (أي بني إذا أكلت الطعام فكل خيره بشره).

الحلوى

عرف المجتمع العباسي العديد من أنواع الحلوى التي تعد من الأطباق الرئيسة التي توضع على الموائد، لتناولها بعد وجبات الطعام، ومن هذه الأطباق الفالوذج المصنوع من اللوز[1]، فهو من الأطباق الفارسية التي دخلت على بلاد العرب[2]، وهو شديد الحرارة، فقيل أن رجلاً يدعى سيفويه القاص قال بعد تناوله للحلوى: " لقد مات لي ثلاثة بنين ما دخل جوفي عليهم من الحرقة ما دخل جوفي من حرقة هذه اللقمة"[3]. وهناك اللوزينج (وهي حلوى تصنع من اللوز)[4]، والفالوذق (وتصنع من لب الحنطة)[5]، والبِستَندود، التي تعد من أنواع الفطير[6] (هو طعام يصنع من الدقيق والتمر أو من خبز حار دسم ودبس[7])، ويعد الجميز من أشهر أنواع الحلوى، فقيل "قدموا الى أبي الحارث جميز، وقالوا له:أهذا أطيب أم الفالوذج؟ قال:لا أقضي على غائب"[8]

كما وجدت بعض أنواع الحلوى التي يكون التمر المكون الأساس فيها، مثل الحيس، الذي يخلط بالتمر والسمن[9]، والوطيئة التي تعجن بالتمر واللبن الرائب[10]، والإقط، وهو التمر الذي يعجن

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص131 –البرصان، ص345 – البخلاء، ج2، ص129. انظر:يوسف، مي، الاطعمة، مجلة البلقاء، م6، ع1، ص110.

[2] انظر: يوسف، مي، الأطعمة، ص110. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 111.

[3] الجاحظ، البيان، ج2، ص 239.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 129

[5] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص56. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 111.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص116.

[7] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 119.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 131.

[9] الجاحظ، البرصان، ص 345–الحيوان، ج 3، ص215 –البخلاء، ج 2، ص56. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 39.

[10] الجاحظ، البرصان، ص 345.

بسكر[1]، وزقاق الدبس المقصود به عسل التمر[2]، والدبس وهو عصارة التمر[3]، والخبيص، وهو المكون من تمر يخلط بالسمن والزبد [4].

الفاكهة

يعتبر التمر من أجود أنواع الفاكهة الموجودة عند الناس، لما فيه من فائدة تعود على الإنسان، ويكثر في أيام القحط، بينما يقل في الأيام المخصبة[5]، ويفيد النوى في عقد الشحم في البطن ليشعر آكلة بالدفء، وقيل بأنه يفرح القلب ويبيض الوجه[6]. وهناك العديد من أنواع التمور الجيدة مثل البرني المائل لونه إلى الأصفر، والشهريز[7]، والعجوة، ووجد البسر الأخضر (التمر قبل إرطابه)[8]، ومن أنواع الفاكهة التي كانت توضع على المائدة، البطيخ[9]، والموز (الطلح)[10]، والتين[11]، والتفاح[12]، والرمان[13]، والعنب بأنواعه النيروزي والرازقي[14].

3. الازياء والملابس

اختلف لباس الناس باختلاف الجنس والمركز الاجتماعي والمهنة، ولعب المستوى المعيشي دوراً بارزاً في تحديد لباس كل طبقه، إذ اختلف لباس الخلفاء عن الزهاد، والزهاد عن الشعراء، وتختلف أيضاً باختلاف فصول السنه حراً أو برداً. واهتم الانسان عبر التاريخ بالملابس وتفنن

---

[1] الجاحظ، البرصان، ص345. الحيوان، ج 3، ص 215.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص115. الحيوان، ج3، ص215.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص49.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص129. أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 120.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج(2)، ص68.

[6] الجاحظ، البخلاء، (2)، ص5.

[7] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص282-283.

[8] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص6.

[9] م. ن، ص77.

[10] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص129. الحيوان، ج(1)، ص237.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص155.

[12] م. ن، ص176.

[13] م. ن، ج(3)، ص9.

[14] م. ن، ج(7)، ص4.

فيها، فكان يغزل وينسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدلها حالاً بعد حال، ولـــه فـــي ذلـــك فوائـــد وصلاح، فهو يشتغل بصنعة اللباس عن العبث وما تخرجه إليه الكفاية، وكان يستريح إلى خلـــع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء، وكان أيضاً يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة لها جمال وروعـــه فيتلذذ بلبسها وتبديلها، ولبس أيضا ً الخفاف والنعال لوقاية قدميه[1].

وشغلت الملابس والأزياء حيزاً كبيراً إبان العصر العباسي، فتدرجت من التقشف إلـــى الغـــالي النفيس، وذلك لإحتكاكهم مع غيرهم من الأقوام، بسبب توسع حدود الدولة الإسلامية، إذ عـــرف العباسيون باللباس الأسود، ليكون بلون راياتهم[2]. وتفاوتت أنواع الملابس بين الغنـــي والفقيـــر والمتوسط، فغلب على الغني لبس القميص المصنوع من الحرير، وعليه رداء طويل[3]، ومن شدة تفاخر الأغنياء كانوا يلبسون الجبة (نوع من الثياب تلبس وحده أو مع رداء، ولها عدة ألـــوان[4]) وعليها أربعة أزرار، ليرى الناس بأنه يلبس جبتين[5]، بينما لبس الفقراء خلق الثياب، وهي مـــا أطلق عليها الثياب البالية، لتكون نوعاً من التواضع، إلا أن الجاحظ وجه انتقاداً لهذه الفئة بلبسها البالي من الثياب، بقوله:" حتى تشعر بما هو جديد"[6].

امتاز العباسيون في اللباس الذي يتلاءم مع الظروف المناخية، فلبسوا أيام البرد الجبة المحشوة[7]، والثياب الصوفية[8]، والمبطنات (المبطنة بالفراء)[9]، والخز والوبر[10]، والقلنسوة الحدرية (نوع من

---

[1] الجاحظ، الدلائل، ص 30.

[2] الجاحظ، الملوك، ص 222 – الرسائل، ج 1، ص202–203. انظر، العبيدي، صلاح، الملابس، ص 14.

[3] انظر:الحسيني، رحمن، تطور، لارك، ع30، ص200.

[4] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 173–174

[5] الجاحظ، البخلاء، ج2، 49. انظر، العبيدي، صلاح، الملابس، ص 272.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص39.

[7] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص109. – التاج، ص261. القاضي الرشيد، الذخائر، ص 89.

[8] الجاحظ، البيان، ج 3، ص115.

[9] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص47. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 290.

[10] الجاحظ، المحاسن، ص74.

لباس الرأس[1])[2]، والعمامة للوقاية من البرد[3]. وكانوا يتقنعون بالعصابة[4]، ويلبسون القلانس[5]، كما لبسوا أيام الصيف السراويل والقمصان[6].

وتفاوتت الملابس حسب نوعها وشكلها ولونها من بلد إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى فأصبح لكل طبقة زي خاص بها، وأصبحت طريقة للتباهي والتفاخر وكانت سبباً لحالة البذخ [7]. وبين اليعقوبي بأن زوجة هارون الرشيد هي أول من اتخذت من اللباس زينة، واضعة اللؤلؤ وشمع العنبر على قميص لها[8].

و اختلف لباس الخاصة عن لباس العامة من الناس[9]، فلبس خلفاء بني العباس اللون الأسود لمقابلة الناس، إلا ان الخليفة العباسي عبد الله المأمون ترك السواد، متشدداً في لبس الخضرة[10] وقيل بأنه ظهر في عهده من لبس الثياب البيضاء، وأطلق عليهم "المبيضة"[11].

ويشير الجاحظ إلى حالة البذخ والترف في العصر العباسي وسعي الخلفاء وراء التباهي وحب الزينة[12]، فكانوا يلبسون القميص[13]، لساعة واحدة من الزمن، أو لمدة ثلاثة غسلات ثم يخلع على الولد والقرابات من العم والأخ[14]، ويلبسون الجبة حتى يذهب رونقها[15]، (وهي رداء مفتوح

---

[1] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 187.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص188. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 16 / 57.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج 4، ص 188. القاضي، الذخائر، ص 89. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص15.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص89 – البيان، ج 3، ص99.

[5] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص215–214، ج 4، ص 250. اليعقوبي، مشاكلة، ص 37.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 10. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص35.

[7] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 113–122. انظر:الحسيني، رحمن، تطور، لارك للفلسفة، ع(30)، ص186. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 44.

[8] اليعقوبي، مشاكلة، ص 38.

[9] الجاحظ، التاج، ص260.

[10] الجاحظ، الملوك، ص 222–الرسائل، ج(1)، ص202–203. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 35

[11] الجاحظ، الرسائل، ج(1)، ص 203،

[12] الجاحظ، تهذيب، ص35–36.

[13] الجاحظ، التاج، ص 260. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 18.

[14] الجاحظ، التاج، ص 260.

[15] الجاحظ، التاج، ص260. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص241، 36.

يوضع فوق الرداء الأول وهو القفطان، وتبطن الجبة في الشتاء ببطان من الفرو)[1]. ولبسوا أيضاً الجباب والأردية والمطرف (هو رداء من خز مربع له اعلام[2]، وقيل بلغ سعر المطرف مائة ألف درهم)[3]، والطيلسان الأبيض[4] (وقيل بأن الطيلسان نوع من الأكسية التي توضع على الكتف، وخالي من التفصيل والخياطة[5]) والدراعة[6] والسروال والرداء (وقد اتخذه الخلفاء لباس رسمي في مناسباتهم)[7].

ويوضح الجاحظ بأن لباس الوزراء لم يختلف عن لباس الخلفاء، فهم أيضاً يعدون من علية القوم وخاصته، فلبس احمد بن أبي دؤواد مبطنة ملونة، واضعاً على رأسه رصافية وعمامة خز سوداء، لها طرفان من خلفة ومن أمامه، ويأتي فوقها خف أصغر منها، ويحمل في يده عكازة من الأبنوس مموجة بالذهب، ويضع في إصبعه خاتم مضيء من الياقوت[8]. كما لبس الوزراء وحاشية الخليفة المبطنة[9]، والدراعة (جبة مشقوقة المقدم)[10]، والقباء[11] (وهو ثوب واسع يشبه ثياب النساء وله كمان قصيران[12]، وقيل ثوب يلبس فوق الثياب يصنع من السندس والديباج والخز أو الكتان، ويكون مبطن بالحرير[13])، والبازبكند (هي كلمة فارسية، وهو كساء يلقى على الكتف)[14]، وكان البعض منهم يعلق الخنجر والجرز(نوع من السلاح)على صدورهم، ومنهم من لبس الجمة [15].

---

[1] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 241.

[2] الجاحظ، التاج، ص261. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 292.

[3] انظر: العبيدي: صلاح، الملابس، ص 292.

[4] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص 342. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص58.

[5] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 179.

[6] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص 342. القاضي، الذخائر، ص123. أنظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 37.

[7] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص342. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص38.

[8] الجاحظ، التاج، ص98-100. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 57.

[9] الجاحظ، البيان، ج3، ص 114-115. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 298.

[10] الجاحظ، البيان، ج3، ص 114-115. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص255.

[11] الجاحظ، البيان، ج3، ص 114-115. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 38.

[12] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 280.

[13] أنظر: اللقاني، رشيدة، ألفاظ، ص 186.

[14] الجاحظ، البيان، ج3، ص 114-115. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 44.

[15] الجاحظ، البيان، ج3، ص114-115.

وكان للقضاة لباسهم الخاص بهم الذي يميزهم عن باقي الناس، فلبسوا القلانس العظام المكشوفة الطويلة لتكون فوق جميع الناس[1]، وكان أيضاً لأصحاب القضاة زي خاص بهم[2]، وبين العبيدي بأن الطيلسان يعد من لباس القضاة والفقهاء[3]. بينما ارتدى الزهاد اللباس الخشن من الثياب[4]، وكان الخطيب لا يلبس الملحفة ولا الجبة ولا القميص ولا الرداء الطويل إلا أنه يمسك بالعمامة، لإعطائهم نوعا من الهيبة، وفي يده مخصرته، بقولهم:" الذي لا بد منه العمة والمخصرة"[5].

وأشار الجاحظ الى لباس الحجاج في غير الأشهر الحرم "وكانت سيما أهل الحرم إذا خرجوا إلى الحِلّ في غير الأشهر الحرم، أن يتقلدوا القلائد، ويعلقوا عليها العلائق"[6].

ولبس الحكماء الوبر[7]، وكان الكاهن لا يعرف المصبغ، وعرف العرافين بتذييل قمصانهم وسحب ردائهم[8]. ولبس الرهبان مظلة وبرطله (قلنسوة)، تختلف عن غيرهم[9]. وكان لباس النصارى مكون من الملحم والطبقة، ومنهم من قام بعقد الزنانير،وهناك من تركها[10].

أما الشعراء فقد لبسوا الوشي والمقطعات من الثياب (هو شبه الجباب، وهو كل ما يفصل ويخاط من قميص وجباب وسراويل)، والأردية السوداء، وامتاز لباسهم بكثرة الأزرار، ومنهم من قلد الشعراء الماضيين في إرتداء البرد الأسود في الصيف والشتاء، لذلك هجاه يعض الشعراء في إحدى القصائد بقوله:[11]

بِـــع بُـــردك الأســـود قبـــل البَـــرد فـــي قُـــرةٍ تأتيـــك صـــماً صَـــردِ

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 3، ص117-114. انظر العبيدي، صلاح، الملابس، ص 115.

[2] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 114.

[3] العبيدي، صلاح، الملابس، ص 269-270.

[4] الجاحظ، تهذيب، ص35-36. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 50.

[5] الجاحظ، البيان، ج3، ص90-92. انظر:العبيدي، صلاح، الملابس، ص 116.

[6] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 95.

[7] م. ن، ص 96.

[8] م. ن، ص96.

[9] م. ن، ص90.

[10] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص317. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 265.

[11] الجاحظ، البيان، ج(3)، ص115.

وذكر الجاحظ أن لقادة الجيش زي خاص بهم كالأقبية السوداء والعمائم، ولبسوا المغافر والدروع والبيضات للحماية من الخطر خلال الحروب[1]، وكذلك الخوذ (لباس ينسج من الدروع، ويلبس تحت القلنسوة)[2]

اما العامة فقد لبست الثياب المصنوعة من الخيش ذات الخيوط الغلاظ [3]، فقالوا:

فرش الهجر في بيوت هموم تحت رأسي وسادة البرحاء

حين هيأت بيت خيشٍ من الوصل لأبوابه ستور البهاء[4]

ومنهم من لبس الطيلسان الأبيض المطبق والسراويل المسدولة [5]، واضعين العمامة والعصابة[6]. ويلبسون القلانس عند دخولهم على الخلفاء، لأن ذلك يبعد التبذل والاسترسال، ويفصلون بين تواجدهم في منازلهم ومكان انقباضهم[7]. وفضل البعض الثياب السبنية المصنوعة من الكتان المخلوط مع الحرير[8]، والكرابيس(ثوب من القطن الابيض)[9]، والثياب المدرعة (ثوب من الصوف)[10]، بينما كان لباس أهل غانة من جلود النمور[11].

وإلى جانب ذلك، اهتمت الخاصة والعامة بلباس الرأس لما يعطي صاحبة نوعاً من الوقار والهيبة، فلبس الخلفاء العصابة والعمائم السوداء[12]، التي تعتبر من أقدم لباس الرأس فبين الجاحظ بأن جمال الرجل في عمامته[13]، معتمداً على قول عمر بن الخطاب "إن العمائم تيجان العرب"،

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص42. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 116، 288.

[2] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 18.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص4.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 393.

[5] الجاحظ، البيان، ج 2، ص342.

[6] م. ن، ج 3، ص99.

[7] م. ن، ج3، ص114.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص23.

[9] م. ن، ج 1، ص68.

[10] الجاحظ، البيان، ج3، ص 153.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج 7، ص85.

[12] الجاحظ، البيان، ج 3، ص99 – الحيوان، ج 4، ص250. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 33.

[13] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 88. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 15.

وقال علي بن أبي طالب " جمال الرجل في عمته"[1]، فقيل لأعرابي:"إنك لتكثر لُبس العمامة؟ قال: إن شيئاً فيه السّمع والبَصر لجدير أن يوقي من الحرّ والقَر"[2]، فقالوا لمن يلبس العمامة:

يمشـــون فـــي البـــيض والـــدروع كما تمشـــي جمـــال مصـــاعب قطـــف[3]

وبين أبو أسود الدؤلي استخدامات العمامة بقولة:" جُنة في الحرب، ومسكنّة من الحر، ومدفأة من القُر، ووقار في النّدى، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة، وهي بِعد عـــادة مـــن عـــادات العرب"[4].

وكما كان لكل فئة وطبقة وأصحاب الحرف لباس خاصبها، فكذلك العمائم فهـــي مختلفـــة عنـــد الخلفاء عنهم عند الفقهاء والبقالين والأعراب واللصوص والروم والنصارى[5]، فلكل منهم عمتـــه الخاصة، فامتازت العمامة بمكانه عظيمة عند العرب، فهي رمزٌ للشرف والرفعة، فكان الرجـــل ينزع عمامتة ويلقيها على الأرض عند تعرضه للإهانة، فهو يُهان عندما تهان، ونظراً لمكانتهـــا اتخذت كلواء(راية) إثناء الحرب، وكانت تُشَدُ على أوساطهم عند السير الطويل والتعب، فقالوا:[6]

فســـيروا فقـــد جَـــنّ الظّـــلام علـــيكم فباستِ امرئ يرجو القرى عنـــد عاصـــم
دَفعنـــــا إليـــــه وهـــــو كالـــــذيخ خاطيـــاً نَشـــد علـــى أكبادنـــا بالعمـــائم

وظهر من الشعراء من تغنى بالعمامة، لدلالتها على الشرف والنخوة والشجاعة، وبقاء العـــرب في قوتها، فقالوا:[7]

تَنَّخيتهـــا للنســـل وهـــي عربيـــةٌ فجـــاءت بـــه كالبـــدر خِرقـــاً معمّمـــاً
فلو شـــاتمَ الفتيـــان فـــي الحـــيّ ظالمـــاً لمـــا وجـــدوا غبـــر التكـــذُّب مَشـــتماً

---

[1] الجاحظ، البيان، ج3، ص 98 –100.
[2] م. ن، ص100.
[3] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 101. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 15–16.
[4] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 100.
[5] م. ن، ص 114.
[6] م. ن، 104–105.
[7] م. ن، ص 99.

وكانت العمائم تسمى بالرصافية، فقيل لبس الخلفاء الرصافيه[1]، (وبين العبيدي في كتابه الخاص بالملابس بأن الرصافية من لباس الرأس)[2]، حيث كان المأمون يتأفأف من أخية القاسم، لتشبهه به في لبسها [3].وبين اليعقوبي في كتابه "مشاكلة الناس لزمانهم" بأن المعتصم كان يلبس الثياب ذات الأكمام الضيقة والشاش المربعة (هي نوع من لباس الرأس وقيل قطعة من القماش[4])[5]، وكان للعمامة ألوان منها الأصفر[6]، والأحمر[7]، وهناك من إرتدى العمامة السوداء[8].

وتعد القلنسوة (لباس للرأس وهي أضخم وأطول من العمامة، ومصنوعه من الفرو)[9]، لباس القضاة، وأصبحت فيما بعد من لباس الخلفاء ولا يسمح للعامة وضعها على رؤوسهم بل قاموا بإطالتها حتى تكون فوق قلانس جميع الامة[10].

وأورد الجاحظ أيضاً أن من لباس الرأس أيضاً " القناع "، حيث ذكر أن الرسول "صلى الله عليه وسلم " كان لا يرى إلا مقنعاً[11]، فهو أهيب للصدور وأجل للعيون واعتبر المقنع أروع من الحاسر، لعدم مفارقته للحجاب[12]، كما عُد التاج من لباس الرأس الذي لم يقتصر لبسه على ملوك فارس، إذ ارتداده خلفاء بني العباس ويتوجون به عند توليتهم للمناصب[13].

---

[1] الجاحظ، التاج، ص 100–101. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 16، 36.

[2] العبيدي، صلاح، الملابس، ص 16، 136

[3] الجاحظ، التاج، ص100–101. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 97.

[4] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص100.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 20. اليعقوبي، مشاكلة، ص 43.

[6] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 97.

[7] م. ن، ص 101.

[8] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص365.

[9] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 16.

[10] الجاحظ، البيان، ج1، ص 90، ج 3، ص 117. اليعقوبي، مشاكلة، ص37. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 16، 34

[11] الجاحظ، البيان، ج 3، ص 102، 118.

[12] م، ن، ص 118 –119.

[13] الجاحظ، البيان، ج3، ص 115. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 83.

أما عن لباس القدم، فيذكر الجاحظ أنّ الخفاف والنعال كانت من لباس القدم ، وكانوا يحثون على لبسها بقولهم: " استجيدوا النعال فأنها خلاخيل الرجال"[1]، وأما الخف فيُعد علامة من علامات جمال المرأة[2]. واشتركت جميع الطبقات في لبس النعال، فلبس الخلفاء النعال كغيرهم من الناس[3]، فقيل إذا لبس عبد الملك بن مروان الخف الأصفر، لم يلبس أحدٌ من الخلق خفاً أصفر حتى ينزعه[4].

وظهر من الناس من يحافظ على خفه، فكانوا يمشون ثلاثة أشهر على صدور أقدامهم، وثلاثة أشهر على أعقاب أرجلهم، وذلك حتى لا تنثقب نعالهم[5]، وقام البعض بتصليحه عن طريق الخياطة أو الترقيع، ويعد المخصوص من أعظم النعال وأكثرها راحة ووقاية للرجل[6]. كما كره الناس لبس النعال ذات اللون الأسود لإعتقادهم أنها تورث الغم والنسيان[7]. وهناك النعال السندية الخالية من الشراك التي لبسها المجوس[8]، وقام البعض بدهن النعل بالشحم ليقوى ويلين عند لبسة في الوقت نفسه[9].

وكان الخليفة هارون الرشيد قد اشترط على الشعراء لبس الخف الى جانب العمامة[10]، فالنعل بالنسبة للرجل بمثابة الخلخال للمرأة، " فالنعال خلاخل الرجال"[11]. وقيل بأن علي بن أبي طالب، قال:"جمال المرأة في خفها، وجمال الرجل في عمامته"[12]. وبين الجاحظ نهي الصحابة

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 2، ص88.

[2] انظر: الحسيني، رحمن، تطور، لارك، ع(30)، ص 197.

[3] الجاحظ، البرصان، ص108-109.

[4] الجاحظ، التاج، ص 45.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 62.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص37. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 322.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص257

[8] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 8-9. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 326.

[9] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص8-9.

[10] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 90. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 34.

[11] الجاحظ، البيان، ج 2، ص88.

[12] م. ن، ص 98.

نساءهم عن لبس الخفاف ذات اللون الأحمر والأصفر، لأنها من زينة نساء ال فرعون [1]، وأصبح في القرن الثالث الهجري الخف الأحمر من لباس الخلفاء [2].و تغنى الشعراء بالنعال لشدة اهتمامهم بها من زمن بعيد، إذ ورد في أشعارهم:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع وشركاً من استها لا ينقطع [3]

وتهادى الناس النعال، فقيل بأن أبو العتاهية، قدم للمأمون نعلاً كتب عليه:

نعل بعثت بها لتلبسها تسعى بها قدم إلى المجد

لو كنت اقدر ان اشركها خدى جعلت شراكها خدي [4]

وقيل بأن النساء قد استخدمت النعال للضرب به على صدورهن إثناء الحزن وحدوث المصائب فقال الشاعر:

وقام بناتي بالنعال جواسرا والصقن وقع السبت تحت القلائد [5]

بينما ذكر الجاحظ بأن الزهاد والمتصوفين في العصر العباسي بأن لبس النعال نوع من الزينة فكانوا يمشون حفاه [6].

أما بالنسبة للمرأة في العصر العباسي فقد ارتدت أنواعاً من الألبسة منها اليمنية (نوع من اللباس يأتي به من اليمن)، الذي يعتبر من أشهر لباسها[7]، وهناك السبوب (الخمار) الذي تغطي به رأسها، إذ قالوا: [8]

نُرامي فنرمي نحن منهن في الشوي ويرمين لا يعدلن عن كبد سهما

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 2، ص106.

[2] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 65، 319. الحسيني، رحمن، تطور، لارك، ع(30)، ص197.

[3] الجاحظ، البيان، ج 3، ص109.

[4] م. ن، ص 121.

[5] الجاحظ، البيان، ج 3، ص111 ا. نظر: الحسيني، رحمن، تطور، لارك، ع(30)، ص197. العبيدي، صلاح، الملابس، ص 333

[6] الجاحظ، تهذيب، ص35–36.

[7] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 164.

[8] م. ن، ص 354.

إذا مـــا لبســـن الحلـــي والوشـــي اشرقت وجـوه ولبـات يسـلبنا الحلمـا

ولـــئن الســـبوب خمـــرة قرشـــيةٌ زبيريـــة يعلمـــن فـــي لونهـــا علمـــا

وذكر الجاحظ أن هناك من النساء من كانت تلبس القميص، فقيل كانـت امـرأة تـدعى ليلـى الناعطة، ترقع قميصاً لها وتلبسه، حتى صار القميص الرقاع، وذهب الأول، فقيل:[1]

إلـبس قميصـك مـا اهتـديت لجيبـه فـــإذا أضـــلك جيبـــة اســـتبدل

وَعُدّ التُبان (كلمة فارسية، ويقصد به سراويل صغيرة يلبسه الملاحون والمصارعون)، من لباس المرأة الذي رفضته العرب، بقولهم:" أنا والله العربي لا أرقع الجربان ولا الـبس التبـان، ولا أحسن الرِطانة، ولا أنا أرسى من حَجَر، وما قَرقمني إلا الكرم " [2].

أما عن الزينة فقد أشار الجاحظ إلى أدوات الزينة التي تلبسها المـرأه وهـي العقـد والقـرط والسخاب [3]، كما كانت الجارية أو الصبية تضع في أذنها قرط فيه حجر أو حبة لؤلـؤ[4]، وقـد تلبس الجارية في أذنها قرط فيه درة [5]، كما لبسن الخلاخل والخدمة فـي أرجلهـن والأسـوار والدمالج في معاصمهن وزنودهن فكان هناك أنواع من الخلاخل النسائية منهـا ذات الصـوت فوصف الجاحظ مشية الجارية بقوله "كانت قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها" [6].

وأشار الجاحظ إلى زينة العروس يوم العرس فإن حلتها الذهب والفضـة، وكسـوتها المـروى والوشي والقز والخز وعلقت المعصفر وتعطر بالطيب [7]. وأضاف الجاحظ أن الاهتمام بالجمال والزينة لم يقتصر على المرأه وإنما كذلك الرجال، فقد اهتموا بهذا الأمر أيضاً، ومن مواضـع الجمال والزينة عندهم اللحية، وقالت إمراة في ولدها وزوجها "أشهب ذي رأس كرأس الديك فإن

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 74.

[2] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 97.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 152.

[4] م. ن، ج4، ص343.

[5] الجاحظ، المحاسن، ص116.

[6] م. ن، ص205

[7] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 19

للديك لحية ظاهرة وليست تكون اللحى إلا للجمل فأنه يوصف بالعثنون وإلا للتيس وإلا للرجل" وقال الراجز في الجمل:

مختلـــف العثنـــوني كـــالتيس الأحـــم ســـــام كـــــان رأســـــه فيـــــه وذم

أما قولها أشهب فإنها تريد أن شعر جسده قد أبيض من الكبر وإنما جعلت شعر رأســه كــرأس الديك لأنه كان مخضوب الرأس واللحية بالحمرة، ثم لم ترض له بشبه الرجال من هذا الوجــه حتى جعلت رأسه أفرق، وذلك شيء من الجمال والوقار والفضل لا يتهيأ للنــاس مــع كمــالهم وتمامهم إلا بالتكلف والإحتيال فيه [1].

وأخبرنا الجاحظ مما يتزين به الرجال لبس الخواتم إذ قال وجدنا فقهاءنا وعوامنا لا يتختمون إلا باليسار ومعاينة الخواتم في الأصابع ليس للخاصة [2]، ولقد كانت تــنقش عليهــا "حســبي الله " "وتوكلت على الله" [3].

4. شرب الخمر

بين الجاحظ بأن شرب الخمور والمسكرات بجميع أنواعها من النواهي التي نهــى الله ســبحانه وتعالى عنها، وإنها من الأخلاق المذمومة [4]، إلا أنهم في العصور الإسلامية وبالأخص العصر العباسي قد خالفوا ما جاء به القران من نص صريح في تحريمه، وأصبح عادة عنــد الخاصــة والعامة [5]، مقدمين أعذاراً لتناولهم إياه كإبعاد شاربه عن الهم وأن يدخل في قلبه الفرح والسرور والسعادة [6]، فأطلق على من يتناوله بكثرة اسم " الخالع " [7].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 44.

[2] الجاحظ، البرصان، ص 345

[3] الجاحظ، البخلاء، ص51.

[4] الجاحظ، تهذيب، ص 41-43.

[5] الجاحظ، تهذيب، ص 41-43 – الرسائل، ج(3)، ص114-115. انظر:الحلي، صفي الدين، مظــاهر، مجلــة العلــوم الانسانية، ص 141.

[6] الجاحظ، التاج، ص137 –الرسائل، ج(3)، ص120-122.

[7] الجاحظ، البيان، ج1، ص 31.

تعارضت أقوال الجاحظ، فظهرت إحدى رواياته كمدافع عن النبيذ وألف رساله في " مدح النبيذ وصفة أصحابه " بالرغم من المعارضة الدينية والأخلاقية والاجتماعية لشرب النبيذ والخمور[1]، مدعماً قوله برغبة الخلفاء والأدباء والخطباء وسعيهم في تناوله [2]، لاعتقادهم بأنه يرد الشيوخ إلى طبائع الشبان، والشبان إلى طبائع الصبيان [3]، وأكد ذلك بقوله " إذا وقع في الجوف حرك الدم، وإذا حرك الدم حرضك على طباع السرور، ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم، زائداً في الحركة المولدة للسرور"[4].

ويقدم الجاحظ صورة عن خلفاء بني العباس والمبدأ الذي ساروا عليه في شرب الخمر، إذ عمدوا إلى تحديد أيام لتناوله كمبدأ من المبادئ الذي يسيرون عليها عنها، فشرب السفاح يوم الثلاثاء، والهادي والمهدي يشربون يوما ويتركون يوما، وشرب الرشيد في يوم الجمعة، بينما شرب المأمون يومي الثلاثاء والجمعة، وكان المعتصم والواثق يشربون في جميع الأيام ما عدا يومي الخميس والجمعة [5].وبالرغم من ذلك نرى الجاحظ محذراً من شرب الخمور بقوله عن الشارب " لا تجده الا جاهلاً مخذولاً، أو حدثاً مغروراً، أو خليعاً ماجناً، أو رعاعاً همجاً، ومن اذا غدا بهيمة " [6].

5. مجالس الطرب

حُظي المغنيون بمكانة خاصة في المجتمع العباسي، إذ يُعد الطرب والغناء مظهر من المظاهر التي كانت شائعة عند العرب قبل الاسلام، لإشاعة الحماس في نفوس المقاتلين، إلا إنه وصل الى أعلى مستوياته في العصر العباسي، إذ قام على اسس علمية كغيره من العلوم، لقولهم:" إن أصول الآداب يتفرع إلى أربعة: فمنها النجوم وبروجها وحسابها، والهندسة وما اتصل بها من

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 113.
[2] م. ن، ص 114-115.
[3] م. ن، ص120.
[4] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 205.
[5] الجاحظ، التاج، ص 259-260.
[6] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 273.

المساحة والوزن والتقدير، والكيمياء والطب الذي بهما صلاح المعاش وقوام الأبدان، واللحون ومعرفة أجزائها وأقسامها ومقاطعها ومخارجها ووزنها، حتى يستوي على الإيقاع ويدخل على الوتر وغير ذلك"[1].

ويعتبر الغناء من علوم الفلسفة والأدب، إذ تأثر الفرس واليونان والعرب بذلك، فاعتبر عند فارس أدباً، وعند الروم فلسفة، وكانت العرب تقوم بغناء الشعر المكسو نغماً، ذو الشجي الصادق [2]، وتصدى الجاحظ لآراء بعض الناس في تحريم الشعر الموزون والغناء، إذ اعتبر من المحارم التي تلهي عن ذكر الله سبحانه وتعالى، فاستطاع أن يدافع عن الغناء مبيناً أن الطعام والشراب والنظر إلى الرياحين والجنان والصيد، جميعها تلهي عن ذكر الله، إلا أن يؤدي الرجل الفرائض، فتصبح هذه الأمور مباحه [3].

لم يجد علم اللحون من يعقد قواعده ويضع مبادئه عند العرب، حتى جاء من اهتم به مثل أحمد بن خليل الفراهيدي الذي بين دلالاته ووزنه وتصاريفه ومخارج حروفه، ووضع كتاب خاص للغناء أطلق علية اسم "العروض "، فعرض فيه ما قيل من الشعر وممن اشتهر من الشعراء، ثم قام بتفسير الشعر وتلحينه [4]، إذ كانوا في البداية يسيرون على هاجس ما يسمعونه من الموسيقى الفارسية والهندية[5]، إلا أن ظهور ابراهيم الموصلي، الذي اشتهر بالحذاقة وقدرته على استخدام الكلمات الصحيحة ووزنه الدقيق ومعرفته بالنغم والتلحين والشعر الجيد من القبيح، وإيجاده آلات خاصة للغناء، التي كانت سبباً في براعته وشهرته بين الخلفاء [6]، إذ تعددت أسباب سعيهم وراء الغناء فمنهم من يسمع ليبعد عن نفسه الهموم والتفكير والحزن، وكانت إحدى طرقهم لشفاء المريض من علله[7].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 131.

[2] م. ن، ج 2، ص 158-160.

[3] م. ن، ج 2، ص 161.

[4] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص 83، الرسائل، ج 3، ص 132.

[5] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص 83.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، ص 132.

[7] الجاحظ، الرسائل، ج(3)، 146-179. الحيوان، ج(1)، ص 204-205.

ويقسم الجاحظ المغنيين الى ثلاث طبقات، لكل طبقة ميزات خاصة بها وطريقة في إعطائهم الهدايا، فتكونت الطبقة الأولى من أصحاب الحذاقة بالموسيقى والأغاني، والثانية من هم على معرفة بالموسيقى، والثالثة هم العازفون على آلات الغناء كالونج (وهي كلمة فارسية، وتعرف عند العرب باسم الونَ بتشديد النون)، والمعازف والطنابير[1]، وهناك الصناجة (الدف) [2].

وجد لكل خليفة من خلفاء العصر العباسي طريقة خاصة به للتعبير عن طربه، فمنهم من كان يفقد صوابه ويمزق ثيابه لشدة طربه، فكان السفاح يصيح بأعلى صوته عند طربه من وراء الستارة ويقول " أحسنت والله"، ولا يترك نديمه يذهب الا بصلة او كسوه [3]، وأما المنصور فلم يظهر لنديم قط ولا رآه أحد يشرب إلا الماء، وكان عندما يطرب يأمر خادمة وهو خلف الستارة ليقول لهم "احسنت بارك الله فيك "، أما المهدي فكان في بداية الامر يحتجب تشبهاً بالمنصور، إلا إنه ظهر لندمائه للتمتع بلذة المشاهدة [4]. أما الهادي فتميز بأنه صعب المراد سيء الظن، وعند طربه يطلب منهم إعادة الغناء، ويأمر لهم بالمال الخطير فيقولون، لا يعطي بعده شيئاً، فيعطيه بعد أيام وكأنه لم يعطه من قبل، فقيل عندما غنى له ابراهيم الموصلي وأطربه، أمر بإدخاله إلى بيت المال، ليأخذ ما يريد فخرج بسبعمائة ألف درهم[5].

وتشبه الرشيد بالمنصور في الأخلاق، إلا في العطايا والصلات للمغنيين، فقيل قدم لمن أعجب بصوته مئتي ألف درهم، كما كان أول من قسم المغنيين إلى طبقات حيث قدم لهم العطايا وإذا وصل واحد منهم بالمال جعل لأصحابه نصيباً منه [6]، وأعطى الأمين لمن يطربه الذهب والفضة، ويقال بأنه كان يسرق ماله عندما يطرب [7]، ويقال بأن من المغنيين من حصل على ولاية أو اقطاع أو يطلبون فك أسير أو قضاء دين، اذا أطربوا الخليفة، وكذلك المأمون أقام

---

[1] الجاحظ، التاج، ص 68-69 -86

[2] الجاحظ، البيان، ج 4، ص 90

[3] الجاحظ، التاج، ص 86.

[4] م. ن، ص 78-82.

[5] م. ن، ص 82-83.

[6] م. ن، ص 89-90.

[7] م. ن، ص 91.

عشرين شهراً لم يسمع حرفاً واحداً، ثم سمعه من وراء الحجاب متشبهاً بالرشيد [1]. وذكر الجاحظ أيضاً بأن من شدة تعلق الناس بالغناء والسماع للأصوات الحسنة، اعتادت الحيوانات على السماع أيضا، فهي تفرح وتزداد نشاطا ومشيا [2].

6. الألعاب

يتحدث الجاحظ عن ألعاب عدة وجدت في المجتمع العباسي، وسعت الخاصة والعامة لإتقانها كنوع من التسلية، وبين اليعقوبي بأن هارون الرشيد من بين الخلفاء المهتمين بالألعاب ويجري عليهم الأرزاق [3] مثل الشطرنج [4]، والصيد [5] التي تعد من أهم الألعاب في ذلك العصر، فقيل إنهم كانوا يصطادون عيراً ويكتبون أسمائهم عليه ثم يتركونه، ليعرف من بعدة بأنه اصطاد خليفة قبله [6]، كما يعمدون إلى صيد العصافير بالحيل، إذ يأخذ الرجل فراخ العصافير من أوكارها ليضعها في قفص، بحيث تراها آباءها وأمهاتها، لتأتي لهم بالطعام، فيقوم باصطيادها [7].

كما وجدت العديد من الألعاب التي أقبل عليها الناس بغرض الحصول على الاموال [8]، مثل اللعب بالودع (خرز أبيض مجوف، وبداخله شق كشق النواة، فيه دويبة كالحلمة)، والنرد (كانت أحجار النرد تصنع من الطين)[9]، والقمار الذي اعتبر من الألعاب التي تمارس في حياتهم اليومية[10]، فقالوا: "عليكم بالنرد ودعوا الشطرنج لأهلها، ولا تلعبوا في النرد إلا بالطويلتين، والودع رأس مال كبير، وأول منافعه الحذق باللقف"[11].

---

[1] الجاحظ، التاج، ص 133.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص 108.

[3] الجاحظ، التاج، ص 139– 140. الحيوان، ج(2)، ص 215. اليعقوبي، مشاكلة، ص 36.

[4] الجاحظ، التاج، ص139–140. الحيوان، ج(2)، ص215. اليعقوبي، مشاكلة، ص 36. انظر: الطريفي، هويدا، ملامح، ص77.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص312. انظر: الطريفي، هويدا، ملامح، ص 77.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج(2)، ص 312.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص

[8] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص348.

[9] الجاحظ، الحيوان، ج(2)، ص215.

[10] الجاحظ، البيان، ج(2)، ص348.

[11] الجاحظ، الحيوان، (ج2)، ص 348

وبين الجاحظ أسماء لعب الأعراب كالبقيري، وهو أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله، ويقول لصاحبه اشته في نفسك ؛ فيصيب أو يخطئ، ولعبة عظيم وضاح وهو أن يأخذ بالليل عظاماً ذات لون أبيض ؛ ثم يرمي به في أحد الفريقين، فإن وجده واحد من الفريقين، ركب أصحابه من الفريق الآخر من الموضع الذي رموا به منه، وهناك لعبة الخطرة، وهو قيامهم بعمل مخراق ثم يرمي به واحد منهم من خلفه إلى الفريق الآخر، وإن عجزوا عن أخذه رموا به إلى أنفسهم، ووجد الدارة، والشحمة، والضب ووجدت لعبة "الضب " وهو أن يقوم الشخص بوضع يده على عضو من أعضاء جسمه، وعلى الشخص المقابل معرفة العضو، وأن أخطأ فإنه يتعرض للسؤال، وإن أصاب يكون هو السائل [1].

ومن الألعاب الأخرى أيضاً الطبطابة، وهي خشبة عريضة يلعب بها بالكرة [2]، والصوالجة والرمي في التنبوك والمجثمة (كل حيوان يُنَصَب ويُرمى ويُقتل)، والطير الخاطف ورمي البنجكاز (و هي كلمة فارسية بمعنى الغصن، وهي خمس خشبات تنصب هدفاً)، والدبوق (من لعب الصبيان) والنفخ في السبطانه (وهي قناة جوفاء يرمى بها الطير)، وهناك الفروسية واللعب بالرماح والسيوف والمشاولة (حمل الأثقال)، والمنازلة والمطاردة [3].

واشترط الخلفاء على من يلعب معهم، أن يكون متمتعاً بالمساواة، ولديه القدرة على استرجاع حقه بعيداً عن النداء وكلام السوء، وأن لا يعلو صوته فوق صوت الخليفة، كما كان الخلفاء لا يحبذون اللعب بحكم غائب، لخوفهم من الحكم عليهم بشيء لا يريدونه [4].

ج. الأحوال الاجتماعية

1. الأمراض والأوبئة

يعتبر المرض من الظواهر الطبيعية التي ترافق الإنسان والحيوان منذ الوجود، لذلك سعوا إلى البحث عن علاج لإزالته، فأشار الجاحظ بأن الاهتمام بالناحية الصحية والعامة للإنسان تؤدي

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص92.
[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 341.
[3] م. ن، ج 3، ص 32، ص 179.
[4] الجاحظ، التاج، ص 136-138.

الى طول العمر، فقيل وجدوا أطول أعمار الناس في ثلاثة مواضع:" سَر وحميـــر، وفرغانـــة، واليمامة"[1].

ويشير الجاحظ إلى أثر الشمس والحركة في الجو والأبدان، فقيل "صحة الأبدان مع الشـــمس "، وفضلوا الحركة على السكون لتقوية الجسم وكسب المناعة، بقولهم:" الحركة خيرٌ مـــن الظـــل والسكون " [2].ويؤثر النسيم في صحة الأبدان أيضاً، فاعتبروا النفس من جنس النسيم لما له مـــن تأثير على الأجسام وراحتها، فقيل " النفس من جنس النسيم، وبفساده تفسد الأبدان، وبصـــلاحه تصلح"[3]. ويعد الماء من العوامل التي تؤثر على الإنسان وصحته، فيؤدي انقطاعه عن الجســـم إلى حدوث بعض الأمراض، فهو يُصلح الإنسان والحيوان[4].

ويعتبر النوم من مظاهر الصحة البدنية، فبين الجاحظ أوقات النوم التي تفيد الجسم، فاعتبر نوم الضحى من أفضلها، إذ قيل لأعرابي:" ما يدعوك الى نوم الضحى؟ فقال:" مبردة في الصـــيف، ومسخنة في الشتاء "، ونوم الضحى مجعره مجفوه مبخرة"[5].

ويشير الجاحظ إلى بعض العادات الصحية إذ كان كثيراً ما كان يقول لأصحابه:" اذا أبكروا عليه لما لا نشرب أقداح على الريق؟ فأنها تقتل الديدان ونحفش لأنفسنا قليلاً فأنها تأتي على جميـــع الفضول وتشهي الطعام بعد ساعة". كما ذكر من المظاهر الصحية الأخرى إنهم يكرهون دنـــو الحائض من اللبن ويقول رأيت ناس من الأطباء وهم فلاسفة المتكلمين منهم معمر ومحمد بـــن الجهم وابراهيم بن السندي يكرهون دنو الطامث من إناء اللبن لتسوطه، أو تعالج منه شيئا فكأنهم يرون أن لبدنها ما دام ذلك العرض يعرض لها رائحة لها حدة وبخار غليظ يكون لذلك المسوط مفسداً[6].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 127.

[2] م. ن، ج 5، ص 71-72.

[3] م. ن، ص 76-77.

[4] م. ن، ص 77.

[5] الجاحظ، البيان، ج 2، ص 72.

[6] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص140

ويبين الجاحظ بأن السبب الرئيس للوقاية من الأمراض والتمتع بالسلامة والعافية هو الاهتمام بالنظافة، لذلك وجد العديد من الحمامات في العصر العباسي، مستخدمين "النورة " (أحجار من الكلس وهي الصابون) فيها، لاغتسال الأشخاص[1].

ويقدم صورة عن طرق تعامل الدولة مع الحالات المرضية التي يصعب علاجها كالأمراض المعدية التي تنتشر بسرعة، وذلك عن طريق إبعاد الشخص المصاب عن بلده، لعدم انتقال المرض إلى باقي أفراد المجتمع[2].

وفي العصر العباسي انتشرت بعض الأمراض غير المعدية بين الناس مثل، مرض العضال (السرطان)، الذي لم يبرأ صاحبه منه وإن برأ لم يكن سرطان، والقروح التى تظهر في الكلية والمثانة، والغرس الذي يعد من أشد الامراض، وأبعدها برءاً[3]، والبرص والبرش[4] والصلع، الذي يصيب الرجال عند الكبر[5]، والنقرس[6]، والفالج[7]، واللقوة "التواء الوجه"[8]، والحمى[9]، وارتعاش المبرسم (التهاب الصدر)[10]، والبلغم[11]، وهناك أيضاً مرض العقم[12]، والطحال، وأعاد الجاحظ سبب ذلك المرض لأكلهم السمك النيء وشربهم للماء العكر[13].

---

[1] الجاحظ، الخلاء، ج 2، ص 70. الثعالبي، ثمار القلوب، ص 656.

[2] الجاحظ، البرصان، ص 35-37، 52-53.

[3] م. ن، ص 36-37.

[4] م. ن، ص 38.

[5] م. ن، ص 50

[6] م. ن، ص 200.

[7] الجاحظ، البيان، ج3، ص 68. البرصان، ص277.

[8] الجاحظ، البرصان، ص 271-275.

[9] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 8-9

[10] الجاحظ، البيان، ج3، ص 68.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص104.

[12] م. ن، ج7، ص56.

[13] م. ن، ص 88.

ومن الأمراض أيضاً الصرع[1]، والغشي والجنون (وقيل بانه نوع من الصرع، يفوق صاحبه منه ويعود إلى كامل عقله كأنه كان نائماً أو سكراناً)[2]، وقيل بأن هناك نوع آخر من الصرع، وهو أن يصحى الإنسان المصاب به نصف سنه، ويصيبه في نصفها الآخر[3].

ومن الأمراض التي كان العرب يخشونها لسرعة انتشارها بين أفراد المجتمع الجذام[4]، وكذلك مرض الجرب والعدسة[5]، والماء الأصفر (وهو ماء أصفر يجتمع في البطن)[6]، ومرض الطاعون[7]، والقمل، الذي يصيب العامة ولم يعرفه الامراء والخلفاء[8]، والجدري الذي تخاف منه العرب[9]، وداء الفيل (وهو تعظم في القدم والساق، وقيل لم يبرأ صاحبه)[10]. ومن الأمراض الأخرى مرض القمل الذي يسبب النسيان[11]، وأيضا هناك مرض الحمى ويقال لمن ضربته الحمرة قد ضربته الشوكة لأن الشوكة إذا ضربت إنساناً فما أكثر ما يعتريه من ذلك الحمرة[12]. وينوه الجاحظ إلى الأمراض التي تؤدي إلى هلاك الإنسان ومنها الشبع وإن الشبع داعية البشم والبشم داعية السقم والسقم داعية الموت ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة وهو قاتل نفسه[13].

ويشير الجاحظ إلى وجود بعض النباتات التي تلحق الضرر بالإنسان مثل الباقلاء، إذ تعمل على إفساد العقل والدم، وتورث السقم في الجسم والضرر بالدماغ والخيشوم والسماخ(خرق الذهن)[14]،

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 126.
[2] م. ن، ص127
[3] م. ن، ج 6، ص107.
[4] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص86
[5] الجاحظ، البرصان، ص 36-37.
[6] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص17، ج 5، ص 99. البرصان، ص 36-37.
[7] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 77.
[8] م. ن، ج 5، ص 250-251.
[9] الجاحظ، البرصان، ص 36-37.
[10] الجاحظ، الحيوان، ج 7، ص53
[11] م. ن، ج5، ص257.
[12] م. ن، ج2، ص
[13] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 20.
[14] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 192-193.

وقيل:" ما أقام أحد أربعين يوماً في منبت باقلاء وخرج منه إلا وقد أسقمه سُقماً لا يزايل جسمه"[1]. كما ويؤدي أكل التين بكثرة إلى حدوث وجع الأسنان، ولكن له فوائد عدة تستخدم في العلاجات فهو نافع للسلّ وفي الأضمدة وفي علاج البواسير[2]. وقيل أن البصل والباذنجان والزيتون والتفاح تضر بمن يأكله، فتسبب كثرتها فساد العقل والنسيان[3].

ووجدت أنواع من النباتات تفيد الانسان، مثل حب البلاذر، الذي يصلح العقل ويورث الحفظ والعصب، وقيل بأن كثرته تؤدي الى إصابة الإنسان بالجنون[4]. وقد تعرض اصحاب البساتين، ومن يعمل بها الى امراض مثل الحمى والعمى والعور، وذلك لكثرة وقوع ابصارهم على الخضرة[5].

ذكر الجاحظ العديد من النباتات الطبية التي تستخدم بالعلاج منها نوى التمر والرطب فإن النوى يعقد الشحم في البطن ويدفي الكليتين[6]، كما استخدموا ماء النخالة فهي جلاء للصدر أي للسعال وقوتها[7]. وأشار إلى طرق أخرى لعلاج الأمراض كاكتواء المريض بالنار، فيشفى من مرضه وهناك من اكتوى ومات، وقيل:" أن ناساً من العرب ومن قريش خاصة، أصابهم الماء الأصفر والبرص جميعاً، وان بعضهم اكتوى فبرأ منهما جميعاً، وبعضهم اكتوى ومات"[8].

ويتعرض الإنسان أيضاً لأمراض مثل السموم، وذلك لتعرضه للسعات الحيات والعقارب، إذ يقتل السم بالكم (المقدار) والكيف (الحد) والجنس(عين الجوهر وذاته)[9]، فتعمل لسعة العقرب على تجمد الدم، فيموت الملسوع في بعض الأحيان، وأعاد الجاحظ سبب ذلك إلى قوة غذائه

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 192.
[2] م. ن، ج 1، ص155.
[3] م. ن، ج 5، ص389-257.
[4] م. ن، ج 3، ص193.
[5] م. ن، ج 3، ص300.
[6] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص
[7] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 66.
[8] الجاحظ، البرصان، 52.
[9] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 185.

وموضع الجسد، كما يزداد سم العقارب في موسم الصيف لسخونة البدن وحرارة الهواء، ويكون سمومها في الليل أشد من النهار، ليسكن عند طلوع الشمس، لاعتقادهم " إن أجواف الناس في برد الليل أسخن وفي حر النهار أفتر"[1].

وقد استخدمت طرق عدّة لعلاج لسعة العقرب بالمسوس (الترياق)، ووضع الجمر مكان اللدغة، أو عن طريق الحجامة للتخلص من السموم الموجودة داخل الجسم[2]، وكان الحجام يأخذ أجرة على ذلك وقيل بأن هناك من كان يحتجم كل سبعة أيام مرة[3]، وكذلك يعالج الملسوع بالعقرب بشق بطن الضفدع ليوضع على اللسعة[4].

و يتعرض الجاحظ أيضاً إلى سموم الأفاعي، حيث تعمل سموم الحيات ذوات الانياب والعقارب ذوات الإبر، على تجمد الدم[5]، ويختلف ضررها حسب اختلاف البلدان فمنها ما يقتل كأفاعي الرمل وقرى الأهواز وثعابين مصر وهنديات الخرابات، وهناك الطبوع وهو شديد الأذى[6]، ووجد حية صغيرة الحجم تقع في البلدة التي تسمى باليونانية "طبقون"، وتعالج حسب اعتقادهم بحجر يخرج من قبور قدماء الملوك[7]. وتلحق الحية مرض الفزع إلى الشخص الملدوغ فوق الألم الذي أصابه، فقيل نام رجلاً تحت شجرة فتدلت عليه أفعى، وعضت رأسه، ففزع منها فتقلصت إلى الشجرة، ولم يراها، وعندما أخبره من شاهد ذلك، فزع فزعة وصرخ صرخة كانت فيها نفسه، إذ كان السم مغموراً ممنوعاً فزال مع الفزع ووصل إلى موضع الصميم والدماغ وعمق البدن[8].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 4، 125 –126.

[2] م. ن، ج 5، ص241–249.

[3] الجاحظ، البرصان، ص 99.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 363

[5] م. ن، ج 4، ص 71.

[6] م. ن، ص 129.

[7] م. ن، ص 129.

[8] م. ن، ص 68–69.

واستخدم في علاج لدغة الحيه، الترياق الذي يقتل صاحبه إذا أخذ بعد ساعة أو ساعتين من نهشة الأفعى[1]. كما استخدموا اللبن فقيل:" كنت إما برماي وإما يباري وهما بلاد حيات وأفاعي، ونحن في عرس، إذ أدخلوا الخدر العروس فأبطئوا عليه شيئاً، فأغفى وتلوت على ذراعيه أفعي، فذهب ينفضها وحجمت على ذراعه _ وصرخ وجاءوا يتعادَون، فوجدوها فقتلوها، وسقوه في تلك الليلة لبن اربعين عنزاً، كلما استقر في جوفه قعبٌ من ذلك اللبن قاء فيخرج منه كأمثال طلَع الفحال الابيض، فيه طرائق من دَسَم تعلوه خضرة، حتى استوفى ذلك اللبن كله، وقيل مات بعد أيام " [2].كما استخدموا الرُقيَة في العلاج، فهم يزعمون إخراج الراقي للحية من جحرها، فهي تخرج عند سماعها الصوت وذكر الله لتنظر ما هو الصوت[3]، كما لجأوا إلى الحجامة[4].

أما عن استخراج الدواء فيضيف الجاحظ إنه استخرج من الحيوانات والنباتات[5]، فاستخدموا روث الحيوانات لعلاج بعض الأمراض، فبعر الفئران لفك الأسر (حصر البول)[6]، وبعر الضب علاج لبياض العين والظهر[7]، وروث الحمار للحصى ووجع الأضراس والبطن، وروث الكلب، علاج للذبحة الصدرية[8]، فقيل:" أن أجود أدوية الذبحة والخانوق أن ينفخ في حلق من كان ذلك به، ما جف من رجيع الكلاب"[9]، ويفيد روث الثعلب في إطالة شعر الرأس والصلع، وروث الحمام للحصى[10]، وأعفاج الفرس لعلاج مرض الصرع والجنون، وأضراس الخيل لوجع المعدة[11]. وقيل استخدم روث بنات عرس للشفاء من الصرع والجنون[12]، وأكل الخلند لعلاج

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 70.
[2] م. ن، ص 71.
[3] م. ن، ص 105 -107.
[4] الجاحظ، البرصان، ص 99
[5] م. ن، ص 250-254.
[6] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص196.
[7] م. ن، ج 6، ص92.
[8] م. ن، ج 7، ص57.
[9] م. ن، ج 2، ص 116
[10] م. ن، ج 7، ص58.
[11] م. ن، ص88.
[12] م. ن، ص165.

النقرس[1]، والذبان للشفاء من العمى[2]، وكانوا يحرقون العقرب في التنور، ليصبح رماداً ويسقى للمصاب بمرض الحصوة فيشفى دون مضرة باقي الأعضاء[3]. وتناول البعض الجري (نوع من السمك)، لما يحتويه من فائدة للعميان، كما انه دواء مفيد للكليتين ووجع الظهر[4].

بين لنا الجاحظ الأمراض التي تصيب الجلد كمرض الصفار، ويكون علاجه بخلط العسل مع الخل وماء الورد[5]، ومرض البرص الذي يعالج بخلط العسل مع ماء المطر[6]، واغتسلوا ايضا بالسمن للتخلص من مرض الجذام[7]، ومرض الجرب إذ طلوا أنفسهم بالدهن للتخلص منه[8].

2. التعليم

ذكر الجاحظ ملاحظات علمية وتربوية صائبة بدأها استطرادا في سياق مؤلفاته فذكر صفات الكتاب بقوله "هو نعم الذخر والعقدة ونعم الجليس ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة واحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل" واستمر في نعته ووصفه بأنه الطبيب الرومي والهندي والفارسي واليوناني وهو القديم المولد والميت الممتع وهو الذي يجمع الأول والآخر والناقص والوافر والخفي والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين وهو الشكل وخلافه والجنس وضده [9].

ويعتبر الجاحظ الكتاب الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك وهو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر ولا يعتل بنوم ولا يعتريه السهر كما اعتبره المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة [10].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج6، ص264.
[2] م. ن، ج3، ص175.
[3] م. ن، ج5، ص239-241.
[4] م. ن، ج1، ص170.
[5] م. ن، ج5، ص 99.
[6] م. ن، ج5، ص95.
[7] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص86.
[8] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص253.
[9] الجاحظ، الحيوان، ج1 ص 57-58. والجاحظ، مدح الكتب، مجلة المجمع العلمي العراقي، م 8، ص 335 _336
[10] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 64.

ويعقد الجاحظ مقارنة علمية بين السماع والكتابة فيقول فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ولا بد من ان تكون كتبه اكثر من سماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم ولا يختلف إليه حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذ عنده من الإنفاق من مال عدوه ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذ عنده من إنفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب ايثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه[1].

ويشير الجاحظ الى جوانب علمية أخرى منها فضل التعلم فقيل عن بعضهم " كنا عند بعض العلماء فكنت اكتب عنه بعضا وادع بعضا فقال لي: اكتب كل ما تسمع فإن مكان ما تسمع اسود خير من مكانه ابيض وقال الخليل بن احمد: تكثر من العلم لتعرف وتقلل منه لتحفظ [2]. وتحدث الجاحظ عن فضل القلم فقال ولذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع ونوه بذكره في المنصب الشريف حين قال الله تعالى: "ن والقلم وما يسطرون"[3]، فاقسم بالقلم وبما يخط بالقلم[4].

ويتابع الجاحظ قوله إن للمعارف ثمانية أجناس واحد منها اختيار وسبعة منها اضطرار فخمسة منها درك الحواس الخمس ثم المعرفة بصدق الاخبار كالعلم بالقرى والامصار، والسير والاثار، ثم معرفة الانسان اذا خاطب صاحبه انه موجه بكلامه إليه وقاصد به نحوه، وأما الاختيار كالعلم بالله ورسله وتأويله كتابه والمستنبط من علم الفتيا وأحكامه وكل ما كان فيه اختلاف والمنازعة وكان سبيل علمه النظر والفكرة [5].

وتناول الجاحظ في حديث ضروب المعلمين فمنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة[6]، ولجميع أصناف العلوم معلمون فهم يقسمون طبقات

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 66 –67.

[2] م. ن، ص 68.

[3] سورة القلم، رقم الاية 1.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 63.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج4، ص 51–52.

[6] الجاحظ، البيان، ج1، ص 250.

وفئات ففيهم معلمو العامة ومعلمو الخاصة ومعلمو أبناء الملوك وإن لكل صنف من جميع ما بالناس إلى تعلمه حاجة معلمين، كمعلمي الكتاب والحساب والفرائض والقران والنحو والعروض والاشعار والأخبار والآثار [1].ورأى الجاحظ أن بعض المعلمين قد أخذوا يعلمون أبناء الرعية الفلاحة والنجارة والبنيان والصياغة والخياطة والسرد والصبغ وأنواع الحياكة وحتى علموا البلابل وأصناف الطير الألحان [2].

ويذكر الجاحظ إنه كان قد ألف كتاباً في المعلمين ملأه بالحكايات التي تدل على حماقات المعلمين وقلة عقلهم ورأيهم [3]، بينما قيل إنه رفض إطلاق هذه الصفات الرذيلة على طبقة كان منها الشعراء والفقهاء والعلماء والخطباء حتى إنه لم يوافق أن توجه تلك الصفات إلى معلمي كتاتيب القرى لأن كل طبقة فيها الفائق والمتوسط والرديء ولا يجوز إطلاق ما يختص به الرديء على جميع الدرجات من الطبقة نفسها ولهذا الفصل الذي كتبه الجاحظ ميزة أخرى وهي إنه يحتوي على جريدة بأسماء عدد كبير من المعلمين بعضهم مشهور كالسكائي وعبد الحميد الكاتب والحجاج بن يوسف [4].

وكان للجاحظ في رسالة المعلمين رغبة في رفع الضيم الذي لحق بهذه الفئة الاجتماعية الهامة في نظره من جراء تحامل بعض المعاصرين عليها وتحقيرهم وذمهم لها جاهلين أو متجاهلين أهميتها الاجتماعية والعلمية التربوية ويعود هذا التحامل في نظره إلى جهل هؤلاء المعاصرين وسخفهم وعدم إنصافهم فقد أقاموا حكمهم على الهوى دون تفكير وتثبت يحركهم في ذلك غضبهم وحقدهم على المعلمين فحاولوا عن طريق الحكماء إلى سبل الجهلاء لذا رأى الجاحظ أن من واجبه القيام بالكشف عن مواقع الخطأ والزلل في ذلك والقيام بإبطال حجج الذامين من ناحية وإظهار محاسن المعلمين وفضائلهم الخفية عن أعين الجهال من ناحية أخرى [5].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص 31-32.

[2] م. ن، ص 33

[3] الجاحظ، البيان، ج1، ص 248.

[4] الطيباوي، محاضرات، ص 77 -80

[5] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص27-28.

وتبرز أهمية المعلمين والمؤدبين حسب رأي الجاحظ في حاجة الملوك لهم ويظهر ذلك جلياً في عادة إتخاذ الملوك لتأديب أبنائهم على مر العصور وبعدم استنكاف أصحاب العلم والأدباء الكبار عن العمل في هذه المهنة يظهر ذلك جلياً في حقيقة كون بعض النحويين والعروضيين والحساب والرواة والقضاة والفقهاء والشعراء والخطباء وغيرهم من أصحاب العلم والأدباء معلمين ومؤدبين، وكذلك لحاجة الناس إلى معلمين في كل ميادين الحياة العملية [1].

تحدث الجاحظ عن تعليم البنات فذكر أنه كان يوصى بعدم تعليمهن الكتاب والشعر وإنما بتعليمهن القران وبخاصة سورة النور [2].ويظهر جلياً في منهاج الجاحظ أنه معد لتربية الذكور دون الاهتمام بالإناث وإغفال الإناث ليس صدفة، فالجاحظ يورد في كتاب البيان والتبيين قولين ينهيان عن تعليم البنات الكتابة والشعر ويحثان على تحفيظهن القران وبخاصة سورة النور [3]، والدعوة الى تحفيظ البنات هذه السورة ترجع إلى طابعها التربوي الأخلاقي، فهي تبين حد الزنا وتفظع هذه الفعلة وتتحدث عن وسائل الوقاية من الجريمة وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية، وتحذر من دفع الفتيات إلى البغاء خلال تذكر حديث الإفك وقصته، كما وتتناول آداب الإستئذان والضيافة في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء [4].

ويلاحظ أن منهاج الجاحظ لا يختلف عن الكثير من المسلمين في ذلك العصر، الذين كانوا يرون أن التعليم للرجال فقط، وإن كان بعضهم قد أظهر اهتماماً بتعليم الفتيات أيضاً، فالقابسي مثلاً يهتم بتعليم البنات ويطالب بفصلهن إثناء الدرس عن الصبيان [5]، أما الغزالي فقد أهمل موضوع تعليم البنات فقد صب جميع اهتمامه على تعليم الولد [6].ويذكر بأنه مر الوليد بن عبد الملك بمعلم صبيان فرأى جارية فقال: ويلك ما لهذه الجارية؟ فقال أعلمها القرآن، فقال:فليكن الذي يعلمها

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج3، ص30-33.

[2] الجاحظ، البيان، ج2، ص180.

[3] م. ن، ص180

[4] قطب، سيد، في ظلال القران الكريم، ص 55-56.

[5] الاهواني، احمد، التعليم في رأي القابسي، ص 68-87)

[6] سليمان، فتحية، المذهب التربوي عند الغزالي، ص70

أصغر منها[1]. ومال البعض إلى تعلم الحساب لما فيه من سهولة، بينما مال البعض إلى تعلم الطب، والبعض الدراسة الهندية والنجوم وعلم الفلك والغناء، وهناك من تعلم فنون القتال ليدرج اسمه في ديوان السلطان[2]، وهناك من تعلم الهندسة واللحون[3].

وتناول الجاحظ آداب المتعلم فكان يقال: اول العلم الصمت والثاني الإستماع والثالث الحفظ والرابع العمل به والخامس نشره [4]، ومن التعليم عندهم إخراج الصبيان إلى البادية فذكر أن عبد الملك كان يقول " أضر بالوليد حبناً فلم نوجهه إلى البادية " [5]، كما ركزوا على تعليم النحو فقيل في ذلك " تعلموا النحو فإنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف " وقال عمر" تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض"[6].

ودعا الجاحظ الناس إلى صرف نظرهم نحو القراءة والإحاطة بالعلوم الحقيقية وقراءة كتب الأخلاق وتصفح كتب السير والسياسات، والسماع من أهل الفضل والحكماء، للوصول إلى الأمان، ويكون ملماً بمحاسن الأخلاق، موضحاً بأن ذلك يساعدهم في التقرب إلى الخليفة، فهم يجعلون خاصتهم من أهل العلم والأدب والوقار والفهم والفطنة[7].

ويبين الجاحظ ما اشتملت علية كتب الزنادقة، فهي تخلو من أصناف العلم والأخبار الطريفة والأدب والأحكام الغريبة والفلسفة والمسائل الكلامية والمواعظ الحسنة والأحاديث المنمقة، والطرق والأساليب لتدبير المعاش والسياسات العامة، إلا أنها اشتملت على ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت وما شابه ذلك من خرافات وأساطير[8].

---

[1] الجاحظ، البيان، ج2، ص 203.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 151-152.

[3] م. ن، ج 3، ص 63.

[4] الجاحظ، البيان، ج2، ص198

[5] م. ن، ص205.

[6] م. ن، ص219.

[7] الجاحظ، تهذيب، ص 49-50.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 68.

3. الأعياد والمناسبات

ويستعرض الجاحظ في كتبه المناسبات الإسلامية ومنها يوم الجمعة نظرا لاكتساب صلاة الجمعة أهمية خاصة فقد كان المسلمون يحافظون على طهارتهم في هذا اليوم بدخولهم الحمامات واغتسالهم، فيقول وكان منهم من يدخل بساتين الكرخ ويحمل زاده معه حتى اذا حانت صلاة الجمعة اغتسل ومضى إلى المسجد [1]، وكان البعض يقضون أوقاتهم في زيارة أصدقائهم، وكانت معظم العائلات تجعل راحتها في دورها مما يجعل من الضروري إعداد الولائم التي تستلزم كمية أكبر من اللحوم لذا إن القصابين كانوا يعملون قبل ظهر يوم الجمعة ليتمكنوا من تلبية رغبات زبائنهم[2].

ومن المناسبات الأخرى التي تناولها الجاحظ مناسبة عيد الأضحى، فقد حرص المسلمون على اختلاف طبقاتهم على نحر الأضاحي، وكان الناس يوزعونها ويتهادونها وكانوا جميعا حريصين على لحوم الاضاحي حتى لم يكن يخلو منها دار يوم العيد حتى الفقراء منهم [3]، ومن مراسيم احتفالية الأعياد خطبة العيد فيقول على لسان ابي الحسن: خطبه عبيد الله بن الحسن على منبر البصرة في العيد وأنشد في خطبته: [4]

أين الملوك التي عن حظها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

تلك المدائن بالآفات خالية أمست خلاء وذاق الموت بانيها

ويتناول الجاحظ في حديثه أعياد الفرس حيث انتشرت في المجتمع العربي ومارسوها بطقوسها، وكانوا يحتفلون بعيد النيروز وهو رأس السنة الشمسية عند الفرس، ففي هذا العيد من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز، والعلة في ذلك أنهما فصلا السنة، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد والنيروز إذن بدخول فصل الحر، إلا أن في النيروز أحوالاً ليست في المهرجان، فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج وتوليه العمال والاستبدال وضرب الدراهم والدنانير، وتذكية بيوت

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ص24-25.

[2] م. ن، ص133-111

[3] م. ن، ص107.

[4] الجاحظ، البيان، ج1، ص120

النيران وصب الماء وتقريب القربان وإشادة البنيان، وما أشبه ذلك فهذه فضيلة النيروز على المهرجان[1].

ويتابع الجاحظ قوله أن هذا العيد لم يفقد شيئاً من رونقه وأهميته في الأوساط الشعبية في كل البلاد، وعند عامة الناس الذين كان الاحتفال به وممارسة سنته وتقاليده عادة متأصلة في نفوسهم، ولم يكن ليؤثر في ذلك المؤثرات الخارجية وتغير الدول أو انقلاب الأحوال، ولقد ترك الفرس بعد إسلامهم كثيراً من التقاليد والسنن الناشئة عن ديانتهم القديمة، إلا أن النيروز لم تكن له صبغة دينية فقط بل كان كذلك عيداً شعبياً اجتماعياً، ولذلك نرى إنهم احتفظوا به وبالغوا في الإحتفاء به ولم يروا في ذلك ما يتنافى مع دينهم الجديد على أن الأمر زاد مع الزمن فإذا النيروز يتطور في معتقد الناس حتى يكتسب مسحة دينية [2].

ويشير الجاحظ كذلك إلى أنه من حق الملك أن يهدي إليه الخاصة والعامة، والسنة في ذلك عندهم أن يهدي الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية، فإذا كان يحب المسك أهداه مسكاً لا غيره، وإن كان يحب العنبر أهدي عنبراً، وإن كان صاحب بزة ولبسه أهدي كسوة وثياباً، وإن كان الرجل من الشجعاء والفرسان فالسنة أن يهدي فرساً أو رمحاً أو سيفاً، وإن كان راميا فالسنة أن يهدي نشاباً، فإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدي الذهب والفضة، وكان الشاعر يهدي الشعر، والخطيب الخطبة، والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضراوات، وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثيرونه ويفضلنه، غير أنه يجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن هياتها، فإذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها في المنزلة ويزيدها في الكرامة ويعلم إنها قد آثرته على نفسها، وبذلت له ما لا تجود النفس به وخصته بما ليس في وسع الناس_ إلا القليل منهن_ الجود به[3].

---

[1] الجاحظ، المحاسن، ص277-278

[2] م. ن، ص279

[3] الجاحظ، التاج، ص145-146

وقد أخذ الناس بسنة تقديم الهدايا حتى بعد زوال الساسانيين، فكانوا يقدمونها إلى الأمراء والولاة والخلفاء من العرب والمسلمين، ولم تخرج في عهد الراشدين عن كونها هدية. وذكر أن قوماً من الدهاقين أهدوا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام جامات فضة فيها الأخبصة، فقل ما هذا؟ قالوا يوم نيروز، فقال نيروزنا كل يوم فأكلوا الخبيص وأطعم جلساءه وقسم الجامات بين المسلمين وحسبها لهم في خراجهم [1]، أما عن النيروز في العصر العباسي فذكر أن حسن بن وهب أرسل إلى المتوكل في تهنئته بالنيروز، كذلك أن شخص يقال له المازني أرسل يوم العيد بهذه الأبيات إلى الخليفة:[2]

جعلت فداك للنيروز حق فأنت علي أعظم منه حقاً

ولو اهديت منه جميع ملكي لكان جليلة لك مستدقاً

فأهديت الثناء بنظم شعر وكنت لذاك مني مستحقاً

[1] الجاحظ، المحاسن، ص281

[2] م. ن، ص286-287.

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية من خلال مؤلفات الجاحظ

الفصل الرابع

الحياة الاقتصادية من خلال مؤلفات الجاحظ

الفكر الاقتصادي عند الجاحظ

تناول الجاحظ في مؤلفاته مسألة الفكر الاقتصادي كونها من المسائل المهمة التي تحاكي المجتمع العباسي وغيره من العصور السابقة واللاحقة، حيث بدأ بالحديث عن الاقتصاد من وجهة دينية، فظهر من حرم المكاسب منصرفاً في العبادة، ولكل فئة النسك الخاص بها، فقال الجاحظ:" نسك الصوفي المظهر من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغض العمل تطرف ويحرم المكاسب وعاد سائلاً، وجعل مسألته وسيلة الى تعظيم الناس له، وإذا كان النصراني فسلا نذلا مبغضا للعمل، ترهب ولبس الصوف، لأنه واثق متى لبس وتزيّا بذلك وتحلى بذلك اللباس، وأظهر تلك السيما، انه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه، ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة " [1].

وأوضح الجاحظ بأن" نسك الخراساني الحج، والبنوي أن يَدَع الديوان، ونسك المغني أن يكثر من التسبيح والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم)، ونسك اليهودي إقامة السبت، ونسك المتكلم التسرع في إكفار أهل المعاصي وأن يرمي الناس بالجبر والتعطيل أو الزندقة " [2].

ويرى الجاحظ أن من واجب الإنسان الأساس في حياته هو البحث عن العمل والانتاج المثمر الذي يتيح له كسب قوته اليومي بعيداً عن حاجة الآخرين، مؤكداً على ضرورة الزهد في الحياة دون التعارض مع الواجبات الحياتية للإنسان، واعتمد في ذلك على أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم):" يا ابن ادم أحدث لي سفراً، أحدث لك رزقاً "، وهناك "سافروا تغنموا"، كما استعان أيضاً بأقوال العامة بقولهم: " من سعى رعى، ومن لزم المنام، رأى الأحلام"[3].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج1، ص 161.

[2] م. ن، ص 135.

[3] الجاحظ، المحاسن، ص 94- 97.

واهتم الجاحظ من خلال مؤلفاته بالوضع الاقتصادي للمجتمع الذي يعيش فيه، فأرشد الناس إلى حساب دخلهم، وطرق إسرافه، حتى لا يذهب الأصل، ويلحق بهم الفقر بعد الغنى [1]، مؤكداً بأن الكسب الحلال يصرف في الحلال، وينفق الحرام بالحرام، وزيادة الإسراف مضـــيعة للحقـــوق ولأشخاص آخرين[2].

وبين تخصص كل فئة وطبقة بعمل خاص بها، فاعتبر ذلك من مظاهر التقدم الإنساني والمادي والفكري والنضوج في المجتمع، وذلك لتخصصهم أولاً وتمتعهم بالمهارة العالية فـــي العمـــل، فأورد قصة دعوته إحدى النجارين لإصلاح باب من الخشب، موضحاً له مدى معرفته بالصنعة والصناعة، فقال له النجار:" قد أحسنت حين علمتني أنك تبصر العمل، فإن معرفتي بمعرفتـــك تمنعني من التشفيق فعلقه فأحكم تعليقه، ثم لم يكن عندي حلقة لوجه الباب إذا رأيـــت إصـــفاقه، فقلت له: أكره أن أحبسك إلى أن يذهب الغلام إلى السوق ويرجع، ولكن أثقب لي موضعاً.فلمـــا ثقبه وأخذ حقه ولأن ظهره للإنصراف، والتفت إليّ فقال: قد جودت الثقب، ولكن أنظر أي نجار يدق فيه الزرة، فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شق الباب، فعلمت أنه يفهم صناعته فهماً تاماً"[3].

ويؤكد الجاحظ على تشابه أصحاب الصناعات في الصفات والأخلاق في جميع البلاد والعصور، فذكر إنهم في مقدار واحد من السخط والحمق والغباوة والظلم[4]. واستخدم في مؤلفاته مصطلحات متنوعه للدلالة على التنظيمات الحرفية في المجتمع الإسلامي، فكان منها "الصنف"، إذ عبر عن هذه الكلمة لأهل الحرف، فذكر أصناف الجزارين والقصابين والشوائين والطهائين....، موضحاً بأن جميع هذه الأصناف هي الأقرب للفقر من الغنى، وإن توافرت لديهم الثروة سُـــلب حقهـــم، وبعث الله عليه المحق، ليقضي على نسله أو يقتل [5]. بينما تركزت الأموال في أيـــدي الكتـــاب،

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص40.

[2] م. ن، ص40.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 152.

[4] م. ن، ج 2، ص61.

[5] م. ن، ج 4، ص 257.

وأصحاب الجواهر والوشي والأنماط (ضرب البسط)، والصيارفة والبحريين والجلابين (الذين يجلبون الرقيق للتجارة)[1].

ويتحدث الجاحظ عن مدى ارتباط أصحاب الحرف بروابط ومصالح مشتركة لحماية أنفسهم وتنظيم أعمالهم، وجاء ذلك عن طريق الأسواق المخصصة لكل حرفة، وأشار إلى تكاتف أصحاب المهنة الواحدة، مشيراً إلى أن الفرد لا يستطيع بلوغ حاجته بنفسة، فكان القصابون يتعاطفون ويتعاونون فيما بينهم، ويتركون السوق لأحدهم يوماً إذا تلفت بضاعته، ليحقق الربح، ويسد خلته ويجبرون من كسرته[2].

ويرى أن أصحاب الحرفة الواحدة كانوا متعصبين لحرفتهم، فلا يُقبل من أحدهم التقصير في صنعته، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال له يا حجام، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه، قال له يا حائك[3].

ولم يقف الجاحظ عند تصنيف الصناعات للأفراد فقط، إذ تطرق إلى تصنيفها حسب الأمم، فخصص لكل أمة صناعة خاصة بها فاشتهر أهل اليونان بصناعة الملاهي التي تريح النفس والاسطرلاب والساعات لمعرفة الوقت ومعازف الموسيقى والآت الحرب كالمجانيق والعرادات والرتيلات والدبابات وآلة النفط لرمي النار بها أوقات الحرب[4]، بينما امتاز أهل الصين بحذقهم في الصناعات[5]، فاشتهروا بالسباكة والدباغة والإذابة والأصباغ العجيبة، كما أنهم أصحاب الخرط والنحت والتصوير والنسخ والخط الجميل[6]. بينما برع أهل الهند بعلم النجوم والحساب والخط الهندي، ولديهم أسرار الطب والعلاج، والاصباغ والسيوف القلعيه، وامتازوا بالعود الهندي الذي لا يعادله عيدان[7].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 160-161.
[2] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص201.
[3] م. ن، ج3، ص 242.
[4] م. ن، ج1، ص 68-69.
[5] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 24-25.
[6] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 89.
[7] م. ن، 223-224.

ويوجه الجاحظ انتقاداً لملوك وحكام العرب لعدم تهيئة المجتمع لإبداعهم الصناعة، فهم لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حساباً ولا أصحاب زراعة وفلاحة وزرع كغيرهم من الأمم، إذ قدم حكام اليونان لبلادهم حاجاتهم الأساسية كالزراعة والصناعة، فبرعوا في الأدب والحكمة والفلسفة، بعكس أهل الصين الذين برعوا في النحت والفن والتصوير، واهملوا الأدب والعلم [1].

1. الزراعة

تعتبر الزراعة إحدى العوامل المؤثرة في نشوء الحضارات وتطور الدول وازدهارها، لذلك اهتم خلفاء الدولة العباسية بالأرض وزراعتها؛ لما تشكله من مورد أساس في واردات الدولة وخزينتها[2]، فسعى الخلفاء إلى عمارة الأرض وإصلاحها، فأصلح الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الأراضي المهملة في منطقة الأهواز[3].وقدموا البذور للفلاحين وما يلزمهم وقت الحصاد [4]، واتجهوا إلى بناء الجسور المهدمة حفاظا على الأراضي عند وجود السيول[5].

ويصنف الجاحظ الملكيات الزراعية إلى أراضي الملك، وأراضي الوقف، أما الأولى اختلف أصولها فمنها إحياء الأرض الموات كأراضي المستنقعات والتي غلب عليها الدفل (نوع من الأشجار).أما أراضي الوقف فيدخل في هذا التصنيف مجموعة هامة من الأراضي، ويقصد عادة بالوقف الأراضي التي يخصها المسلمون لأغراض دينية إلا أن هذه القاعدة لم تكن ثابتة اذ توقف الأراضي لغرض تمتع الذرية والأثرياء بوارداتها بصورة دائمة ولا يكون الوقف إلا من الأملاك الخاصة[6].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 69-70

[2] الجاحظ، الدلائل، ص 18. انظر: الدوري، تاريخ، ص 16

[3] الجاحظ، الدلائل، ص 19.

[4] م. ن، ص 19

[5] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 206.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 49.

ويشير الجاحظ إلى أن الأراضي تقسم إلى قسمين، الأراضي غير الصالحة؛ لاحتوائها على نسبة عالية من الأملاح، وخلوها من الماء والرطوبة[1]، فأطلق عليها اسم الأراضي اليابسة[2]، أو القاتلة[3]، وقيل المظلومة[4]، وقيل أرض الموات أو الجماد[5]، وهناك الأراضي الصالحة للزراعة والتي سميت "القراح" [6]، ومن الأراضي الصالحة أرض الدحل [7](وهي الاراضي الواقعة في أسفل الوادي) [8].

وتميز الفلاحين في العصر العباسي بمعرفتهم الواسعة بطرق الزراعة والشؤون الزراعية، وكانوا يعلمون ابنائهم الفلاحة عن طريق الكتب[9]، فوجد عند الجاحظ كتب زراعية مثل كتاب " الزرع والنخل "، الذي لم يصل الينا[10]. واهتدى الإنسان في هذا العصر إلى مواعيد الزراعة والغرس من خلال مراقبته النجوم[11]، فتوصلوا إلى طرق المناوبة وأساليبها في زراعة الأرض، فزرعوا نصف الأرض وتركوا الآخر، وتمت حراثتها بالمحراث البسيط، الذي تجره الثيران، مستخدمين بعض الآلات، كالفأس والسكين والمخشاه[12]، والمعول[13]، كما أطلقوا على الحراث وزراع الأرض اسم "الأكرة"[14]، ووصفهم الجاحظ قائلاً:" لا تعلم قوماً الشر فيهم أعم ولا الغش فيهم أكثر من الأكرة"[15].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص 26-27.
[2] م. ن، ص 28.
[3] م. ن، ص 28.
[4] م. ن، ج(1)، ص 230.
[5] م. ن، ص 51.
[6] م. ن، ج(7)، ص 95.
[7] الجاحظ، الرسائل، ص 250 الجد
[8] انظر: الشذر، طيبة، الفاظ الحضارة، ص 223.
[9] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 32.
[10] الحموي، معجم الادباء، ج 8، ص 106.
[11] الجاحظ، الدلائل، ص 7.
[12] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 229. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 60.
[13] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 28.
[14] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص 53، 176. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص59.
[15] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 190.

واهتم الفلاحون بتسميد أراضيهم لما له من أهمية كبيرة في الزراعة، وأكد على ذلك بقوله:" إن كل شيء مثل الخضر لا يصلح ولا يزكوا إلا بالزبل والسماد " [1] فكانوا مزارعي البصرة يسمدون البذور والبقول قبل ظهور بذرتها، كما حرصوا بشكل خاص على تسميد الأشجار، مبتعدين عن تسميد الريحان والزهور[2]. مستخدمين مخلفات الإنسان والحيوان [3]، مثل الأباعِرة (مخلفات الجمل والناقة)، والأجثاء (وهو روث البقر)، فهو من أفضل أنواع الاسمدة[4].ويبدو أن طريقة التسميد كانت منتشرة في أراضي البصرة الزراعية أكثر من مناطق بغداد والكوفة حتى إنهم عابوا على أهل البصرة استعمال السماد في أرضهم ونخلهم [5].

واعتمد الفلاحون في سقاية مزروعاتهم على عيون الأودية والأنهار، وعدَ النهر مصدرهم الأول في عمليات الري[6]، فقامت الدولة العباسية بإحضار مهندسي الماء من الصين[7]، لحفر القنوات وتشييد الخزانات والقناطر من أجل تنظيم المياه بين الفلاحين، ومساعدتهم في إنجاح المواسم الزراعية [8].واعتمدت الزراعة في مناطق الجنوب على مياه الأنهار والقنوات، وتمت عملية السقاية عن طريق "السيح " أو بواسطة "الآلات الراوية "، مثل الدلو والنواعير والدواليب والدوالي(عبارة عن خشبة تثبت على براس الدلو على رأس البئر الذي يسقى منه) [9] والشوارين[10]، بينما اعتمدوا في منطقة الشمال على مياه الأمطار التي كانت تغمر الأرض لشدة انحدارها، فترويها وتفيض إلى البحر، فكانت أحياناً تؤثر على خراب الغلال، ولكن بالرغم من هذا الخراب إلا أنها كانت تقوم بغسل الأشجار والزرع من الآفات والداء الذي يصيب

---

[1] الجاحظ، الدلائل، ص 25.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص 176-177.

[3] الجاحظ، الدلائل، ص 25- الحيوان، ج(1)، ص 177. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 60.

[4] الجاحظ، الدلائل، ص 25- الحيوان، ج(1)، ص 177. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 60.

[5] الجاحظ، البلدان، ص 502.

[6] الجاحظ، الدلائل، ص 16. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 64.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص 65.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج(6)، ص 64-65. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 61.

[9] انظر: الشذر، طيبة، الفاظ، ص 233.

[10] الجاحظ، الدلائل، ص 12-18. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 62-63.

المزروعات ويطلق عليه اسم "اليرقان"[1]، فامتازت تلك المناطق بغلتها الكبيرة، فملئت خزينة الدولة بقناطر من الذهب والفضة[2]، ويضيف الجاحظ إلى أن أسلوب المد والجزر كأسلوب من أساليب الري إذ استغلت هذه الظاهرة الطبيعية في جنوب العراق في منطقة البصرة لري البساتين الكثيفة[3].

وساعد اتساع حدود الدولة العباسية في تنوع انتاجها الزراعي، فزرعوا محصولي القمح والشعير، في بلاد كثيرة المياه كالعراق ومصر والشام باعتبارهما الغذاء الأساس للإنسان[4]، وغرسوا الأشجار المثمرة مثل الكروم واللوز والجوز والزيتون[5]، والتفاح[6]، والنخيل الذي قدره الجاحظ بثلاث مائة نوع[7]. واهتموا أيضا بزراعة الأشجار غير المثمرة كشجر الصندل والساج والعاج والأبنوس ليستخدم في الصناعات الخشبية[8]. واهتم الفلاحون بزراعة البقوليات[9]، مثل الباقلاء[10]، والفاصولياء[11]، والبازاليا[12]، وحب البلاذر[13]، والذرة[14]، بالإضافة إلى اهتمامهم بزراعة الخضروات مثل القرع والقثاء[15]، واليقطين[16]، والفجل[17]، والبصل[18]، والجزر[19]،

---

[1] الجاحظ، الدلائل، ص 12-17-18.

[2] الجاحظ، الدلائل، ص 18. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 64.

[3] الجاحظ، الرسائل، ج4، ص 145.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص 33. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 67.

[5] الجاحظ، الدلائل، ص 12- 20. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 60-70.

[6] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص 176.

[7] انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 67.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج(7)، ص 86. القاضي، الذخائر، ص 129.

[9] الجاحظ، الدلائل، ص 12.

[10] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 191 – البخلاء، ج(2)، ص 7.

[11] الجاحظ، الدلائل، ص 19.

[12] م. ن، ص 19.

[13] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 193.

[14] م. ن، ج(5)، ص 298.

[15] الجاحظ، الدلائل، ص 23.

[16] م. ن، ص 23.

[17] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص 89.

[18] م. ن، ج(2)، ص41.

[19] الجاحظ، البخلاء، ج(2)، ص 181. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص71.

والكزبرة[1]، وركز أهل خراسان على زراعة العدس والجرجير[2]. واهتموا أيضاً بزراعة أصناف الفواكه المختلفة مثل: الرمان[3]، والتفاح[4]، والعنب[5]، والبطيخ الذي كانت تفضله مختلف فئات الناس، حتى أنه أطلق على سوق الفاكهة اسم "دار البطيخ"[6].

وفي موسم حصاد القمح والشعير وضع الفلاحون حبوبهم في موضع يسمى " البيادر "، لتدرس باستخدام الدواب[7]، مستخدمين بعض الآلات في ذلك مثل: آلة المسحاة (نوع من الأدوات الزراعية تصنع من الحديد، تستخدم لجرف وجمع التراب)[8] والكرك والمنجل والمعول[9]، وتنقل لاحقاً إلى أماكن خاصة للتخزين يقال لها " المطمورة"[10].

ويتابع الجاحظ قوله أن جميع نباتات الأرض على ثلاثة أصناف نجم وشجر ويقطين فما كان قائما على غير ساق فهو نجم وما كان متفرغاً ذا أغصان ومشبعاً بأفنان فهو شجر وما كان منبطحا منسطحا كالقرع والبطيخ وما اشبه ذلك فهو يقطين، وفي القران (والنجم والشجر يسجدان)[11].

2. الصناعة

تقوم الصناعة على العمل الذي يهدف إلى الانتاج، وعد الإسلام العمل كالجهاد ووردت في القرآن الكريم آيات تحث على العمل فقال تعالى " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج(7)، ص 86.

[2] الجاحظ، الدلائل، ص 20.

[3] الجاحظ، الدلائل، ص 20. الحيوان، ج(3)، ص 9.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج(1)، ص 176. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 70.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج(1)، ص 56-57.

[6] الجاحظ، الدلائل، ص23. انظر ايضا: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 70.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج(5)، ص 138 -139.

[8] انظر: الشذر، طيبة، الفاظ، ص 229.

[9] الجاحظ، الحيوان، ج(4)، ص 28.

[10] م. ن، ج(5)، ص 74.

[11] **سورة الرحمن الاية 6**

والمؤمنون"[1]. وأشاد القران الكريم بالعمل اليدوي فقال تعالى " ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون"[2]. فكان لهذه الايات ابلغ الاثر في نفوس المسلمين فأقبلوا على انواع الصناعات والاعمال ليتقنوها ويحاولون التفوق فيها على غيرهم من الشعوب بعد ان اثبت لهم الامر، ووجدوا فرص العمل والتصنيع متاحة للجميع [3].

وتعتبر الصناعة من الأعمال التي تهدف إلى الانتاج، واعتبر العمل في الإسلام كالجهاد، فكان ذلك نوع من التشجيع والسعي لكسب المال، فتناول الجاحظ في مؤلفاته الصناع والصناعة، وتحدث عن الصناعات المعدنية التي كانت من أعمال الحدادة والصفارة (النحاسون)، والنجارة، وهناك من يقدم على استخراج المعادن من باطن الأرض لاستخدامها في الصناعات، فاستخرجوا الكلس والجبص والزينج والزاج والمرتك والتوتيا والمرقشيثا(نوع من المعادن الكبريتية التي تقدح بالنار، ويقصد بها في اليونانية حجر النار[4]) والزئبق والنحاس والرصاص والكبريت[5]، والقار والزفت[6]، بالإضافة إلى اكتشافهم للعديد من عيون القطران والنفط[7]، إذ أطلق على العاملين به اسم "النفاطون"[8]، كما استخرجوا الجواهر مثل الذهب والزبرجد والياقوت واللؤلؤ[9].

وتعتبر صناعة النسيج من أهم الصناعات وأقدمها، فصناعة الملابس هي من مظاهر الترف، لكل طبقة ومهنة اللباس الخاص بها، وأعاد الجاحظ سبب ازدهار هذه الصناعة كونها من المطالب الاساسية للإنسان[10]. فأهل الكوفة اهتموا بصناعة أنواع الوشي الفاخر[11]، وعُرفت الموصل بصناعة المنتوجات القطنية مثل الشاش الذي اشتهر بشكل كبير والحرير الموشى

---

[1] سورة التوبة الاية 105

[2] سورة يس الاية 35

[3] الصالح، صبحي، النظم الاسلامية نشأتها وتطورها، ص400

[4] انظر: اللقاني، رشيدة، الفاظ، ص 395.

[5] الجاحظ، الدلائل، ص 14 والرسائل، ج 1، ص 33-34 والحيوان، ج 5، ص 74-75.

[6] الجاحظ، الدلائل، ص 14 والرسائل، ج1، ص 33-34.

[7] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 35-69.

[8] م. ن، ج6، ص280.

[9] الجاحظ، الدلائل، ص 14 والرسائل، ج 1، ص 33-34 والحيوان، ج 5، ص74-75.

[10] الجاحظ، البيان، ج 3، ص113 -122. أنظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 44.

[11] الجاحظ، التبصر، ص27.

والمسوح (ثوب يكون مخططا)، والستائر ذات الألوان الزاهية والأرجوانية[1]، واشتهرت أمد (من أشهر مدن ديار بكر[2]) بصناعة المناديل والطيالسة والوشي، وواسط بالسجاد، والبصرة بالخيم والحُصر[3]. وتقدمت صناعة الدباغة بشكل كبير في المجتمع العباسي[4]، مرتبطة بحياة البذخ والترف ونوع من الرقي عند النساء، فانتشرت الملابس ذات الألوان الصفراء والزرقاء واعتبرت واسط من أشهر الأماكن لصباغة اللون القرمزي[5].

وفي العصر العباسي تطورت صناعة الزجاج المصنوع من الصخور الرملية، فصنعوا الأقداح والأواني والكؤوس والقناديل[6]، والخزف من الطين الحار، إذ أطلقوا عليه اسم " الخِوان"[7]، وخير الزجاج البلوري الصافي الابيض النقي، والفرعوني الفائق[8]، وصنعوا من الفخار الجرار الكبيرة والصغيرة التي تستعمل في حفظ الماء والنبيذ[9]. وزاد اهتمام الناس بصناعة الصابون نظرا لحاجتهم له في الحمامات العامة، فصنعت على شكل قطع كبيرة وجامدة، مستخدمين النورة (أخلاط من أحجار الكلس) في صناعتها[10]. واستخدموا الحديد في صناعة الدروع والخوذ والمقاعد الحديدية[11]، والسيوف مثل القلعية (هي سيوف تصنع من الرصاص القلعي وهي سيوف هندية عتيقة[12]) واليمانية والفرعونية[13]، إذ اشترك في صناعة السيوف عدة صناع فمنهم من قام بإذابة الحديد وتمييعه وتصفيته، والثاني يمده، والثالث يصنع خشبه والرابع بإعداد قبعه خاصة

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 38. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 80.

[2] الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 56.

[3] الجاحظ، التبصر، 38. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 104 –105.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 74 والدلائل، ص 14. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص

[5] الجاحظ، التبصر، ص 24–27. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 107 –110.

[6] الجاحظ، الدلائل، ص 15 والبخلاء، ج 2، ص 74. انظر:الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 109.

[7] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 101.

[8] الجاحظ، التبصر، ص 22.

[9] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 27.

[10] م. ن، ص 70.

[11] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 74 والبيان، ج 4، ص 9 والحيوان، ج 3، ص 10.

[12] انظر: اللقاني، رشيدة، الفاظ، ص 381.

[13] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 90.

به، والخامس يقوم بدباغة جلده وتركيب نصله[1]. واستخدم النحاس في صناعة الأواني والحفر والنقش على الحافات وتزيين الأواني وتذهيبها، وأطلق على العاملين في النحاس اسم "النحاسون أو الصفارون"[2].

واهتم أصحاب الحرف في العصر العباسي بالصناعات الخشبية لصناعة المناضد والأبواب من خشب الساج[3]، وبرعوا في صناعة السفن والقوارب التي نشطت بشكل كبير في ذلك الوقت[4]. وينسب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق إنه أول من عمل السفن التي تخرز بالمسامير والسفن المطلية بالقير وذات الجؤجئ[5].

واستخدم أهل العراق جلود الحيوانات في صناعاتهم الجلدية، فصنعوا من جلود الماعز آلة المشاعل[6]، ومن جلد الفيل الترس الذي يمتاز بالقوة والصلابة[7]، ومن جلد البقر والإبل والثور النعال[8]، وقيل بأنهم صنعوا النعال من جلود الضباع، فقيل[9]:

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع وشركا من إستها لا ينقطع

3. المهن والحرف

قدم الجاحظ صورة عن الوسط الاجتماعي من خلال أخلاق الناس وممارساتهم اليومية وحرفهم المتوارثة، وقد نرى في مؤلفاته العديد من التشعب في الحرف والمهن، فبين النشاطات والفعاليات التي يقومون بها، موضحاً أهمية التنوع المهني، وإرادة الله في أن يخالف بين طبائع

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 218.

[2] الجاحظ، الدلائل، ص 63 والرسائل، ج 1، ص 219 والحيوان، ج 4، 181.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 74 والحيوان ج 3، ص 152 والدلائل، ص 14.

[4] الجاحظ، الدلائل، ص 24. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 111.

[5] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 161و 162.

[6] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 327.

[7] م. ن، ج 7، ص 55-56.

[8] الجاحظ، البرصان، ص 188.

[9] الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 287.

الناس ليوفق بينهم، ولو اجتمعوا على مهنة واحدة، لأدى ذلك إلى بطلان المصلحة وذهاب العيش[1].

وتعتبر مهنة بيع الرقيق، من اهم المهن التي اهتم بها التجار، وأطلقوا على العاملين بها اسم "الحلابين"[2]، وقيل " النخاسين" على من يمارس بيع الرقيق والدواب معا[3]، وكانوا في هذه المهنة يمتحنون لسان الجارية بقولها " شمس ثلاثة مرات ".واعتبر النخاس من أشرار خلق الله في المبايعة والمعاملة[4]، فاتهمهم بالسخف والجهل والغش والكذب في المواعيد ولم يميز بين كهولهم وشبابهم"[5].

ومن بين المهن الأخرى مهنة الحياكة[6]، من المهن الأساسية داخل المجتمع، ففيها تتحول القرية إلى مدينة[7]، لكنه وصف أصحابها بأنهم أشرار خلق الله في المبايعة والمعاملة[8]. وتحدث الجاحظ، عن مهنة صيد الحيوانات، واعتبرها من المهن الرئيسة التي سعى إليها الكثير من الناس، لما لها من دور وأهمية في توفير الدخل لهم، فصادوا السنانير والعصافير، بحيل بسيطة[9]، وأطلق على كل صائد اسم صيده الذي يختص به، فصائدوا الصقور أطلق عليهم الصقارون[10]، ووجد أيضاً الشواؤون والكلابون والفهارون[11]، وهناك القرادون، وهم المهتمون بتجارة القرود[12]. وأطلق على من يهتم بعلاج الحيوانات اسم البيطري[13].

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 242.
[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52 والبيان، ج 4، ص 9 والحيوان، ج 2، ص 61.
[3] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 160 -161.
[4] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52.
[5] م. ن، ج 4، ص 128.
[6] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52 – البرصان، ص 215 – الدلائل، ص 14 – الحيوان، ج 1، ص 117.
[7] الجاحظ، الحيوان، ج 2، ص 109. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 100.
[8] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52.
[9] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 162.
[10] م. ن، ج 4، ص 257.
[11] م. ن، ج 4، ص 257.
[12] م. ن، ج 6، ص 17.
[13] م. ن، ج 1، ص 129.

وقد شاركت النساء الرجال في بعض المهن، كمهنة الطحان ؛ فقيل كانت سندية (من بلاد السند) تطحن الدقيق في النهار ؛ وتعمل ليلاً في البيت[1]، مستخدمين في ذلك الحيوانات كالبغال والحمير والبقر والإبل، كما طحنوا على رحى الماء في القرى[2]. وشاركت النساء أيضاً في مهنة البقال (بائع البقول ؛ والبقل من النباتات)[3].

وتطرق الجاحظ الى بعض الهن الخدماتية منها مهنة الكناس[4]، ومهنة تنقية البالوعة، فكان المستأجر يدفع أجرة التنقية من إيجار بيته، وتزداد عند وجود ضيوف داخل البيت[5]. وقيل من شدة بخل صاحب البيت؛ كان يستغل تنقية بالوعته إلى يوم المطر الشديد، ليسيل الماء، وذلك ليكتري رجلاً واحداً، ليخرج ما فيها ويصبه في الطريق ليذهب مع السيل[6].

ومن المهن الصناعية؛ الصفارون الذي يتخذون الحجارة للطرق أكثر من الحديد[7]، والحدادة وشحذ السيوف وجلاؤها[8]، والنجارة[9]، وصباغة الملابس، الذي أطلق عليهم اسم القصار، إذ يهتمون ببياض الملابس[10]، وهناك مهنة أصحاب الخلقان، المهتمين ببيع الملابس القديمة "البالي"[11]. وذكر أيضاً مهنة عذق النخل (قطع عسفها)، وأصحاب الفسيل الذين يبيعون الأعذاق والعراجين والسعف والجذوع[12]، كما شاعت مهنة السماكين (بائعو السمك)[13] والجزارون[14]

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 240-241.
[2] م. ن، ص 353-354.
[3] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 258.
[4] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 349.
[5] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 146.
[6] م. ن، ج 2، 29.
[7] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 181.
[8] الجاحظ، الرسائل، ج 3، ص 218.
[9] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 74 – الدلائل، ص 14 - الحيوان، ج 3، ص 152.
[10] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 71.
[11] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52 – ج 3، ص 210 – الحيوان، ج 2، ص 61.
[12] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 49.
[13] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 52 وج 3، ص 210 والحيوان، ج 2، ص 61 وج 6، ص 12.
[14] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 257.

والقصابون[1] والطهاة [2]، ووصفوا بأنهم من أصحاب الفقر، بعيدين عن الغنى واليسر[3]، وهنـــاك مهنة الملاحون[4]، والخبازون الذين كانوا يعدون الخبز داخل التنـــور[5]، والطبـــاخون[6]، ووجـــد العطارون[7]، وأصحاب الحمام (مكان يغتسلون فيه)، وله مكان لوضع الثياب يقال له "الأنبـــار"، وباب يطلق عليه "الأتون"[8]، وأصحاب الشرابة " دار السكر"[9].

وفي العصر العباسي شاعت مهنة الحجامة، واتصف أصحابها بالدناءة في السلوك والأخلاق إذ يقومون بمصّ السم من جسم الإنسان عندما يلدغ من عقرب أو أفعى[10]، مقابل حصولهم علـــى درهمين عن معالجة كل حالة[11]، وقيل دنانير لأنه يعرض حياته للخطر، بقوله:" لأن ثناياه ربما نصلت، وجلد وجهه ربما تبطط من السم الذي يرتفع اليه، بمصته وجذبته من أذناب المحاجم"[12].

وأشار أيضاً إلى مهنة حفاري القبور، مقابل حصولهم على درهمين عن كل منها [13]، كما عرفوا مهنة تحنيط الموتى، وأطلق على أصحابها اسم "الحناطون" [14].

4. الصيارفة

ظهر العديد من العوامل السياسية والاقتصادية التي ساعدت على تطور أعمال الصـــيرفة فـــي العراق الى جانب التبادل التجاري الخارجي مع البلدان الأخرى، والقوة الشرائية التـــي حُـــدِدت

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 8 وج 4، ص 257.
[2] م. ن، ج 4، ص 257.
[3] م. ن، ص 257.
[4] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص241 والرسائل، ج 3، ص 48.
[5] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص386.
[6] م. ن، ص 390.
[7] الجاحظ، الحيوان، ج3، ص 215. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 112.
[8] الجاحظ، الرسائل، ج1، ص 387.
[9] م. ن، ص 390.
[10] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 119 وج 5، ص 243 – 244.
[11] م. ن، ج 4، ص 119.
[12] م. ن، ج 5، ص244.
[13] الجاحظ، البيان، ج 4، ص 11.
[14] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 160 – 161.

بكمية الذهب والفضة واختلاف سعرها من بلد إلى آخر، بناءً على الظـروف التجاريـة التـي تحكمها الكثافة السكانية وحجم النقد المتداول وكمية السلع، فقدم الجاحظ صورة عـن البصـرة وبغداد، بقوله:" ليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لا يغر بها النقـد وكـل سـلع بهـا يمكن..... وبغداد.. يكثر فيها الدراهم، وبالبصرة الأثمان ممكنة.." [1].

وجلب تجار الدولة العباسية العديد من العملات خلال تجارتهم، ما أدى إلى توجه أنظارهم نحو عملية الصرافة، فذكر الجاحظ الدنانير الخالصة القيسرانية التي جلبت من الصين وكانت معروفة عند تجار البصرة [2]، وكان للصيارفة طرق ووسائل تميز العملة المغشوشة عن غيرها، كالوزن واللمس والحمي على النار [3].

ولم يقتصر دور الصيارفة في تسهيل عملية التجارة بين التجار وعامة الناس من خلال تبـديل العملات لتلائم البيئة والسعر المحدد للسلعة [4]، بل أصبح التجار يقترضون الاموال ويستثمرونها في التجارة، بشرط إعادتها لهم بعد فترة، مع الزيادة على المال الأصيل، فهم من أكثـر النـاس ثروة وتركز الأموال في أيديهم[5]، لذلك اصبح لديهم أسواق خاصة بهم، كغيرهم من المهـن [6]، فقيل بلغ سعر التبديل في عهد هارون الرشيد اثني عشر درهما للدينار[7].

وكان الصيارفة يولون أكسيتهم (أعمالهم) لأهل السند وأبنائهم لبراعتهم في هذا المجال وطبيعتهم في الصرف فقالوا:" ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يولون أكسيتهم وبيوت صروفهم إلا السّـند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوهم أنفذ في أمور الصرف، وأحفظ وآمن، ولا يكـاد أحـد أن يجـد صاحب كيس صَيرفيّ ومفاتيحه ِابن رومي ولا ابن خراساني " [8].

---

[1] الجاحظ، البلدان، ص 503.

[2] الجاحظ، التبصر، ص 35.

[3] م. ن، ص 16-17.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 232 والرسائل، ج1، ص 224-225. انظر: الحياوي، فراس، جوانب، ع(1)، ص 283.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 71.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 225.

[7] انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 205.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 232 والرسائل، ج1، ص 224-225.

5. التجارة

اهتم الكتاب والمؤرخون بتناول موضوع التجارة لأهميتها في المجتمع العباسي، فصنفوا العديد من الكتب في هذا المجال فكان كتاب الجاحظ " التبصر في التجارة "، ورسالته " في مدح عمل التجار وذم عمل السلطان"، من أفضل الكتب التي عالج فيهما واردات الدولة وصادراتها وأنواع السلع الموجودة داخل الأسواق وأجودها، وكيفية التعرف على الأفضل منها، مشجعا على التجارة المربحة بقوله " إذا لم تربحوا في تجارة فاعتزلوا عنها إلى غيرها، وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها " [1]

ويبين الجاحظ الاهتمام الكبير بالتجارة وسبب مدح المؤرخون لها فذكر أنها معولهم وعليها معتمدهم وهي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم [2]. وأشار كذلك لأهمية التجارة إلى أن تسمية قريش ليس كقولهم، هاشمي وزهري وتيمي لأنه لم يكن لهم أب يسمى قريشا فينسبون إليه، ولكنه اسم مشتق لهم من التجارة والتقريش فهو أفخم أسمائهم وأشرف أنسابهم وهو الاسم الذي نوه الله تعالى به في كتابه وخصهم به في محكم وحيه وتنزيله فجعله قرآناً عربياً يتلى في المساجد ويكتب في المصاحف وبأن لهم سوق عكاظ وفيهم قال أبو ذؤيب:

إذا ضربوا القباب على عكاظ وقام البيع واجتمع الألوف[3]

يتناول الجاحظ طرق المواصلات التي كانت تستخدم في عصره، لتسهيل عملية التبادل التجاري، فاستخدموا الطرق النهرية إذ تصل السفن من الموصل إلى البصرة، فساعد ذلك على تركز النشاط التجاري في هذه المدينة وأصبحت مقصد للقوافل الواردة ومحطة الرحالة الذين جاؤوا من الشرق والغرب من الصين الى الصحراء الكبرى، فقيل:" ليس في الارض بلده واسطة ولا بادية شاسعه ولا طرف من أطراف الدنيا، إلا وأنت واجد به البصري"[4]. وهناك أيضاً المواصلات والطرق البريه، حيث اعتبرت الموصل والبصرة من أهم مراكز التجارة الداخلية،

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 14.

[2] الجاحظ، الرسائل، ج4، 225-226.

[3] م. ن، ص 256.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 7-8.

وملتقى المواصلات التي تربط العراق بالعالم الخارجي، وقد تميزت بسرعة مواصلاتها، بقوله:" في بياض يوم حتى تكون الحادثة غدوة "[1]. وتحدث الجاحظ أيضاً عن المواصلات البحرية التي ربطت مدينة البصرة بالخليج العربي، واتخذت مسلكين الأول إلى الهند والصين، ويدور الثاني حول سواحل الجزيرة العربية نحو شرق إفريقيا[2]، إلا أن التجار لا يشجعون التجارة البحرية، لما يتعرضوا له من مخاطر وهجوم من القراصنة[3].

وأشار الجاحظ الى أهم السلع المتداولة في التجارة والتي تركزت على أدوات الترف والزينة كالبسط والجواهر والاحجار الكريمة والعطور والعقاقير والرقيق من جميع البلاد، فقال:" جلبوا ما يستطرف من البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة مرتفعة القيمة ليكون ذلك مادة لمن مهنته التجارة وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب ".

وارتبط التجار بعلاقات اقتصادية خارجية مع الدول كالهند والصين وميسان (هي من القرى الواقعة بين البصرة وواسط [4]) وبلاد فارس وجرجان واصطخر ونواحي البربر والروم واليمن وعمان وسواحل البحر واصفهان.....، وساعدهم في ذلك تشجيع الخلفاء لهم لجلب البضائع والسلع من الخارج لإرضاء رغباتهم، فاستوردوا من الهند الياقوت الأحمر وعيدان الصندل الأبيض (نوع من الشجر طيب الرائحة ذات لون احمر او أصفر) والأبنوس (نوع من الشجر يرج من رائحة طيبة إذا حرق في النار) وجوز الهند، والحيوانات مثل النمور وجلودها واللبود(نوع من السباع) والفيلة [5]، ومن الصين الحرير والديباج والشبة (البخور) وأواني الفضة والذهب والدنانير الخالصة القيسرانية، والعديد من أنواع الحيوانات مثل البراذين (الدابة / البغال)، والسروج الخاصة بها، واللبود(نوع من الصوف يصنع منه الملابس [6])، وطيور الزينة

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 144-145.

[2] م. ن، ج 3، ص 145.

[3] م. ن.ج 3، ص 34

[4] انظر: اللقاني، رشيدة، الفاظ، 368.

[5] الجاحظ، التبصر، ص 34. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص110- 111.

[6] انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 96.

مثل الطواويس، والأقفال المحكمة والجواري والعقاقير والفرند (السيوف)، والدارصيني (نوع من البهارات) والمداد (الحبر) والغضائر (الخزف الصيني) [1].

واستورد تجار الدولة العباسية من البربر ونواحي المغرب العديد من الحيوانات مثل النمور بأشكالها، واللبود والبزاة السود والقرظ (نوع من الدباغة وقيل قشر البلوط) [2].ومن اليمن البرود (كساء تلبسه الأعراب)، والعديد من الحيوانات كالجواميس والزرافات، والنباتات كالعقيق والكندر(نوع من الصمغ) واللبان والخظر(نوع من النبات يوضع في الخضاب الأسود) والورس (نوع من النبات يستخدم في الزينة)[3].

وأخذوا من مصر الحمر الهماليج (الدابة) والثياب الرقاق والعديد من أنواع المعادن والزبرجد الفائق والقراطيس ودهن البلسان[4]، ومن قومس (هي ولاية تحتوي على مدن وقرى ومزارع، تقع في جبال طبرستان بين الري ونيسابور[5]) الفؤوس والمصابيح والأمساج (الملح) والجر والطيالسة من الصوف [6]، ومن حلوان (من المدن التابعة للعراق [7]) أشهر أنواع الفاكهة مثل الرمان والتين والكافح[8].

ومن بلاد فارس استورد التجار العديد من أنواع الثياب التي يسعى الرجال إلى اقتنائها مثل ثوب الكتان والتنوزي والسابري(ثوب رقيق وسميه بذلك نسبة الى سابور[9]) [10]، وكذلك بعض المواد المستخدمة في العلاج كماء الورد ودهن النيلوفر(نبات ينبت في الاجام والمياه) والياسمين،

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 34. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 111 –112.

[2] الجاحظ، التبصر، ص 35. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 113.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 35–36. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 114.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 36.

[5] الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 414–415.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 40. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 119.

[7] الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 290.

[8] الجاحظ، التبصر، ص 42.

[9] انظر: اللقاني، رشيده، الفاظ، ص 176–177.

[10] الجاحظ، التبصر، ص 40. انظر: العبيدي، صلاح، الملابس، ص 73.

والأشربة [1]، ومن كرمان (تقع بين فاس وسجستان وخراسان، والى الجنوب منها بحر فاس، وقيل اشتهرت بالشجار المثمرة[2]) النيلج (نوع من الصبغ يستخدم لصباغة الثياب) والكمون[3]. وجلبوا من دباوند (اصطخر) نصول السهام [4]، ومن جرجان(وهي بالضم، تقع بين طبرستان وخراسان[5]) العناب والرمان والتدرج (نوع من الطيور) واليرمق اللين (الدرهم) [6]، والإبريسيم الجيد (وهو نوع من الفرش المنزلي، وقدر ثمنه في عهد المتوكل عشرة الاف دينار) [7]، ومن أصفهان الشهد والعسل والسفرجل والكمثرى والتفاح والملح والزعفران والكحل والسرر المطبقة من الثياب والأشنان (نوع من العطور تغسل به الأيدي) [8]. ومن مدينة فسا (من أشهر مدن فارس[9]) الفستق وأصنافا من الفواكة وطرائف الثمار، والزجاج[10].

ومن عمان وسواحل البحر اللؤلؤ [11]، كما استوردوا من الخزر(هي من بلاد الاتراك[12]) العبيد والإماء، وآلات الحرب مثل الدروع والمغافر (نوع من دروع الرأس) والبيضات (الخوذة) [13]، ومن خوارزم المسك والقاقم والسمور والسنجاب وقصب الطيب [14]، ومن سمرقند (من بلاد الجزيرة [15])، الكاغد (الورق)، ومن بلخ (من مدن خراسان [16]) العنب الطيب [17].

---

[1] الجاحظ، التبصر ص 40. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 120.

[2] انظر: الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 454.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 40. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 119.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 39.

[5] الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 119.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 38. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 117.

[7] الجاحظ، التبصر، ص 38. القاضي، الذخائر، ص 113.

[8] الجاحظ، التبصر، ص 39. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 118.

[9] الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 260-261.

[10] الجاحظ، التبصر، ص 41.

[11] م. ن، ص 41.

[12] الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 366.

[13] الجاحظ، التبصر، ص 36. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 115.

[14] الجاحظ، التبصر، ص 36.

[15] الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 288.

[16] م. ن، ج 1، ص 479.

[17] الجاحظ، التبصر، ص 36-37.

وجلبوا من آمد أفضل أنواع الثياب، كالثياب الموشية والمناديل والقلانس الملكية[1]، ومن نصيبين الرصاص[2]، ومن ميسان الأنماط (نوع من ثياب الصوف) والوسائد[3]، ومن واسط المقاريض (أوعية الخمر)، وأنواعا من المأكولات كالجوز والزبيب والدجاج الكسكر والعديد من أنواع الثياب كالبزيون والسندس[4].أما الأهواز ونواحيها فأخذوا منها السكر والدبس والتمور والديباج والخز والصناجات(قطعة معدنية للموسيقى)[5]، ومن أرمينية وأذربيجان اللبود وأنواعا من الفرش والبسط الرقاق والصوف[6]، ومن الجور(هي من مدن فارس، وتسمى عند العجم باسم الكور[7]) الجوارشن (دواء للمعدة) وبزر قطونا (نبات بارد رطب، يسكن العطش)[8]، ومن بوشنج (تابعة الى هراة / نيسابور[9]) والكبر (نبات تستخدم جذوره في الطب) والمربى[10].

وأشار الجاحظ إلى صادرات العرب للدول المجاورة، والتي تمثلت بتصدير الخيل العراب والنعام والنجائب والقانة والأدم وجلود الحيوانات[11]والصوف والأكسية[12]، والسيوف والدروع[13]. واهتم عامة الناس وأشرافهم بشراء المعادن والجواهر النفيسة والأحجار الكريمة، وتناول الجاحظ تلك الأصناف في أبواب منفصلة في كتابه "التبصر" موضحاً أنواعها وكيفية امتحانها للكشف عن الجيد والرديء منها، إذ قام الناس عبر التاريخ بمحاولات كيميائية لصناعة الذهب بدلاً عن الذهب الأصيل، لكن دون جدوى[14].

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 38.

[2] م. ن، ص 40.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 41. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص121.

[4] الجاحظ، الحيوان، ج(3)، ص 160-161.

[5] الجاحظ، التبصر، ص 41 والرسائل، ج(4)، ص 144. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 121.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 42.

[7] الحموي، معجم البلدان، ج2، ص 180.

[8] الجاحظ، التبصر، ص 40. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 119.

[9] الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 508.

[10] الجاحظ، التبصر، ص 37. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 116.

[11] الجاحظ، التبصر، ص 35.

[12] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 73، 84.

[13] م. ن، ص 77.

[14] الجاحظ، الدلائل، ص 14-15. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 60.

ويعتبر الذهب من مظاهر الثراء والغنى والترف وهو من افضل المعادن وأثمنها وعرف بالعديد من الأسماء كالعسجد والأصفر والسيراء والعَين والسبك والقانئ [1]، ويرى الجاحظ بأن أفضل أنواع الذهب هو الأحمر الذي يزداد ثمنه كلما قدم عليه الزمن [2]، بقولة:" إنما دامت دولته لأنه لا يدحضه خبث الكير ولا يفسده على مر الدهور، وقيل إنما صار الذهب ثميناً لقلة تغيره وازدياد نضارته وحسنه إذا عتق، ولأن الأشياء تنقص عند اللمس والدفن ما خلا الذهب" [3].كما بين كيفية التعرف على الذهب الجيد من المغشوش، وذلك عن طريق التصاقه بالشعر واللحية وصعوبة استمراره بهما [4].

وتعتبر الفضة من المعادن المهمة التي جلبت من الهند لاستخدامها في سك العملة كالدرهم[5]، وأشار بأن أفضلها اللجين بقولة:" خير الفضة اللجين، ومذاق الفضة الصافية عذب، ومذاق الزيوف مر صديء، وهي صافية الطنين لا يشوبها صمم، وهي تقطع العطش إذا مسكت في الفم"[6]. وعرف الإنسان اللؤلؤ منذ العصور القديمة، عن طريق جمعهم للأصداف عن الساحل، إذ قام سكان بلاد الرافدين ومصر القدامى باستخدام اللآلئ للشفاء والزينة [7]. وبين الجاحظ أنواع اللؤلؤ فهي على نوعين، بقوله:" زعموا أن معرفة اللؤلؤ أنك تجد مذاقته على ضربين:عذب المذاقة عماني، وملح المذاقة قلزمي كلاهما يرسب في الماء، والمعمول منه تجده مر ّالمذاق مع دسومة فيه، وهو خفيف الوزن يطفو على الماء"[8].

ويوضح الجاحظ طرق التفريق بين أنواع اللؤلؤ، فمنه لين الملمس كاللحمي الجوهري، وهناك الملمس الخشن كالصدفي العظمي، واعتبر اللؤلؤ العماني هو من أفضل الأنواع لما يمتاز به من

---

[1] انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 60-61.

[2] الجاحظ، التبصر، ص 6. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 61.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 16.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 16. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 63.

[5] الجاحظ، التبصر، ص 16. الاصطخري، المسالك، ص 103. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 65.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 17

[7] الجاحظ، التبصر، 18. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 67.

[8] الجاحظ: التبصر، ص 18. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 68.

نقاء وعذوبة، بعكس القلزمي الذي يحتوي على ملوحة، كما ختم حديثه بإسم "مرجانة " وهي اللؤلؤ الصغير[1].

ويأتي الجاحظ إلى الياقوت ويصفه بأنه أنفس أنواع الجواهر وأغلاها ثمناً، ويتكون معدنه من الزئبق، موضحاً بأن خير الياقوت البهرماني ثم الأحمر المورد ثم الأسمانجوني، وأدونه الأبيض، وقيل خيره الصافي النقي المضيء[2]. ووضح للتجار كيفية التفريق والتعرف على الياقوت الأصيل من الرديء، إذ يمتاز الأصيل بالرزانة في الوزن والبرود في الفم عند المص، بينما يكون الرديء خفيف الوزن وحارٌ في المذاق[3].

واعتبر الزبرجد من الأحجار الكريمة التي تناولها الجاحظ في مؤلفاته، وأفضله الصافي المائل إلى الخضرة، الذي يعرف بوزنه وبرودة مذاقة[4]. كما تحدث عن الفيروز كنوع من الأحجار المحبذة لدي الناس وتطرق إلى أنواعه، فخيرة الشيريام الأخضر الأسمانجوني الصافي العتيق[5]. واعتبر العقيق نوع اخر من الاحجار التي عرفت قديماً في صناعة الحلي والزينة وبالأخص القلائد، وذكر أن خير العقيق " اليماني الشديد الحمرة الذي يرى في وجهه شبه الخيوط وكلما كان أصفى وأضوأ كان أجود في الثمن " [6]. وهناك البلور الذي يعد من ألطف الأحجار الكريمة وأصنافها، ويمتاز بالبياض واللمعان، وخيرة النقي والفرعوني الفائق [7].وهناك أيضاً البيجازي شبيه الياقوت إلا إنه امتاز بخاصية الكهرباء في الجذب، وتعرف جودته من لونه الملتهب كالنار واتساع ضوئه وانتشار شعاعه في الليل، كما يمتحن من جهة التجار من خلال حملة للريش [8].

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 18 والدلائل، ص 17.

[2] الجاحظ، التبصر، ص 20 والرسائل، ج4، ص 161 والدلائل، ص15. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 73.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 20. انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 74.

[4] الجاحظ، التبصر، ص 21.

[5] م. ن، ص 21.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 21 والرسائل، ج4، ص 161.

[7] الجاحظ، التبصر، ص 24.

[8] م. ن، ص 22.

وذكر الجاحظ الألماس كنوع من الأحجار الكريمة، إذ يتم الحصول عليها عن طريق النبش أو بوساطة السيول والأمطار[1]، وأفضل أنواعه البلوري الصافي الأبيض النقي ثم الأحمر[2].

ويشير الجاحظ إلى المتاجرة بأنواع الطيب والعطر والروائح الطيبة والعود والمسك والعنبر، فاعتبر العود الهندي المندلي من خير العيدان الخالية من الغش، وتزداد جودته كلما كان أصلب ورائحته أقوى وثقيل الوزن ويرسب في الماء، واعتبر خير المسك التُبتي اليابس ذات اللون الفاتح، واردأه البُدّي، ويغش عندما يختلط بالآنك (الرصاص)، وجند بادسير (مثانة حيوان بري اسمه القندر)، ودم الأخوين (هو صمغ أحمر، وقيل العندم، وقيل البقم)، وسياه دارو (صمغ الجوز الشامي)، كما زعموا بأن خير العنبر الأشهب الزابجي، ثم الأزرق ثم الأصفر[3].

وتحدث الجاحظ كذلك عن تجارة البعض بالفرش والاكسية واللباس والاردية والثياب، فخير الفرش المرعزي القرمزي الارمني المنير، ثم الخزّ الرّقم، ثم الخز المقطوع، ويأتي بعد ذلك الديباج الرومي والميساني، ثم البزيون، موضحاً بأن الفرش المنسوج بالذهب هو أجود وأبلغ في الثمن، ووجد نوع آخر من الفرش أطلق عليه البزيون وأفضله المسكي الدقيق والمخطط والمفلس والساذج والمعين والمنقط[4]. أما الأكسية فخيرها من " الصوف المصرية، ثم الخوزية الفارسية والمرعزي الفارسية والشيرازية ثم الاصفهانية، ثم الطبرية"[5]. وخير الثياب الوشي (الثوب) السابري والكوفي والابريسمي والمذهب المنسوج، ويأتي بعده الوشي الاسكندراني الكتان، ثم الوشي الغزلي[6].

ويرى الجاحظ أن التجارة لم تقتصر على السلع والبضائع ذات القيمة والجودة العالية فحسب، بل اهتموا أيضاً بتجارة جميع أنواع الحيوانات والطيور، واضعين أسس للتعرف عليها، ومعرفة

---

[1] انظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 82.

[2] الجاحظ، التبصر، ص 23. أنظر: العزي، رفعت، الجاحظ، ص 82.

[3] الجاحظ، التبصر، ص 24-25.

[4] م. ن، ص 29.

[5] م. ن، ص 30.

[6] م. ن، ص 27.

سعر كل منها، ووضح الجاحظ في كتابه " التبصر بالتجارة " ذلك في باب مخصص له، فـذكر البزاة بقوله:" خير البزاة البيض ما يقع من ناحية الترك الى جيلان، ثم السود الغرابيـة التـي بناحية الزنج الى الهند وإلى اليمن، ثم الحمر المشرقة ثم الديزج، وهناك الشـواهين، وخيرهـا الغرابية البحرية والبيض الجرجانية، وذكر نوع آخر وهي البواشق " ويسـتحب منهـا السـود الغرابية البحرية ثم البيض الهندية، ثم الحمر البحرية، الحمر البطن والصدر، المزهـر اللـون، الكبير الرأس، الغابر العينين من غير هزال، العريض المنخرين، الواسع الصدر مرتفعة، اللـين الزغب، الطويل الذنب، الأخضر الأرجل الذي رجله قريبة من الدستبان، الثقيل الوزن فإذا بلـغ وزنه مائة وثلاثين فذلك غاية " [1].

ويتحدث الجاحظ في مؤلفاته عن تجارة جلود الحيوانات لغرض استخدامها في صناعة الثيـاب، فجلبت من الصين والمغرب وارمينية وخراسان والبربر والهند، ومن هذه الجلود جلد السنجاب والقاقم والخزري، لأخذ الفرو، وكذلك جلود الثعالب ويفضل منها الاسود الخزري الغلـيظ ثـم الأبيض ثم الأحمر[2]، والنمور وخيرها البربري الموشح الشديد بياضه مشبع بالسواد، وفي وسطه نقطه سوداء صغيرة[3].

وتعتبر تجارة الرقيق من التجارات التي تعود إلى أصحابها بالربح الوفير فهم يتصرفون كغيرهم من التجار، إذ يهتم تاجر السلعة بجودتها وقيمتها، فهم يهتمون بصفاتها وجمالها ومن أي الـبلاد آتيه، وعبر الجاحظ عن ذلك بقوله: " لا يعرف مبلغه بكيـلٍ ولا وزن ولا مسـاحه، ويعـرف بالحسن والقبح " [4]. وجاء التجار بالرقيق من أماكن عديدة كالنوبة والحبشة والصومال، وبين أن حركة التجار العرب من الزنج إلى عدن هي من أهم مراكز بيع الرقيق السود[5].

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 45-46.

[2] م. ن، ص 28.

[3] م. ن، ص31.

[4] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 161، 120-122.

[5] م. ن، ج 1، ص 210.

وقد سعت جميع طبقات المجتمع لامتلاك الجواري والخصيان والغلمان، إذ عملوا في خدمة البيوت ونقل المياه إلى بيوت أسيادهم، وفضل الناس الغلمان السنديين، لما اشتهروا به من عمل في المطبخ والعقاقير والصيادلة والبربهارات (التوابل)، وعمل الغلمان من الروم في فرش البيوت[1].

6. الأسواق

ويتناول الجاحظ في كتبه الأسواق واهتمام الخلفاء بها، لتكون مراكز مهمة داخل المدن، ويعد سوق عكاظ في الجاهلية من اشهر الأسواق التي بقيت زاهرة[2]، وسوق الكلئ الخاص لوضع السفن، إذ احتوى على أنواع عدة من المنتوجات، مثل الأعذاق والعسف والعراجين[3]. ووجد سوق المربد الذي يعد من أشهر أسواق البصرة في هذه الفترة، ووصف بقولهم:" العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة"[4]، كما ضم المربد قصور لبعض الاشراف[5]. وهناك سوق الوراقين، وهو من الأسواق الكبيرة التي تحتوي حوانيت لبيع الكتب والمصاحف والحبر والأقلام، وصناع الورق البصري[6]. وسوق الكيزان والاواني الفخارية، القريبة من نهر سيحان في الزاوية الجنوبية الشرقية من البصرة[7]. وسوق الاهواز الخاص لبيع الأفاعي[8]. ووجد في سوق البصرة طوائف عديدة متنوعه دينيا وقوميا من العرب والموالي وأهل الذمة، يشتركون في تجارة واحدة وأسواق موحدة، ومن أشهرها سوق الأبله وبقة الأنهار والحيرة[9].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 3، ص 232.

[2] م. ن، ج 7، ص140.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 49، 77.

[4] الجاحظ، البلدان، ص 498. البيان، ج 4، ص 23.

[5] الجاحظ، المحاسن، ص 185.

[6] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 253.

[7] الجاحظ، البلدان، ص 499.

[8] الجاحظ، الحيوان، ج 4، ص 80.

[9] م. ن، ص 218.

ويعتبر أهل البصرة أكثر الناس إقبالاً على التجارة، لانتشارهم في جميع البلدان، فكانوا ينضمون فعاليات تجارية تستمر طيلة اليوم، ففي الصباح يجري التبادل التجاري في سوق خزاعة، ووقت الظهيرة في سوق عثمان، والمغرب في سوق القدامين[1].

7. العملات المالية

وتطرق الجاحظ الى العملات المستخدمة في الجانب الاقتصادي في عصره، وتقديرها في الأسواق، فالايرادات والنفقات تقدر بعملتي الدراهم والدنانير، فهما العملتان التي يتم التبادل والتعامل بهما، ووصف الجاحظ الدرهم بقوله: "الدرهم هو القطب الذي تدور عليه رحى الدنيا"[2].

وظهر داخل المجتمع العباسي فئة من الناس تحمل صفات البخل والحرص على المال، وتناول ذلك عن طريق القصص الطريفة، فذكر قصة رجل كان يوصي ابنه لحفظ المال "أي بني: إن إنفاق القراريط تفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك الدراهم، وإنفاق الدراهم تفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين، والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل، ويطمس على العين والأثر، ويحتمل القليل والكثير"[3]. ومن شدة ما اتصفوا به من بخل أورد قصة رجل يتحدث مع الدرهم ويقول له " كم من أرض قد قطعت! وكم من كيس قد فارقت ! وكم من حامل رفعت! ومن رفيع قد أحملت! لك عندي ألا تُعرى ولا تَصحى! ثم يلقيه في كيسة، ويقول له: أسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه!"[4].

وميز الناس بشكل طبيعي الدنانير الرديئة من الجيدة[5]، ووصفت الجيدة بأنها مثاقيل جياد، وأفضلها العتيقة ذات اللون الأحمر المائلة إلى الخضرة[6]، وعرفوا أيضا الدينار الهرقلي " نسبة

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 4، ص 23.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 116.

[3] م. ن، ص 12.

[4] م. ن، ص57.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص 23. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 219.

[6] الجاحظ، التبصر، ص 16. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 219.

إلى هرقل"[1]، ووصف الدينار بقوله " يدني من النار"، لإبعاد الناس عن جمع المال والاحتفاظ به، فمن الواضح أنّ عبارته جاءت ليبعد الناس عن البخل الذي كانوا يتصفون به[2]. وعرفت الدنانير الرديئة باسم "النبهرجة"[3]، ورفض التجار التعامل بها لاحتوائها على معادن رخيصة[4]، ووجدت أيضاً الدنانير المكسورة أو المفتتة، وأطلق عليها اسم "القراضة" المثلومة، إذ كانت مجزأة ومفتتة أنصافا وأرباعا، فقيل بأن الغلة كانت تدفع قراضة[5].

واستخدم الدولة العباسية الدرهم أيضاً في معاملاتهم، وكان له أنواع عدة، مثل الدرهم المزئبق (المغطى بالزئبق)، والمكحل (يحتوي على مادة سوداء حتى لا يظهر بأنه مزيف)، والزائف (الدرهم الرديء)[6]، ووجدت أيضا الدراهم التي كتب عليها عبارات مختلفة كالدرهم البغلي[7]، وكتب عليه بالفارسية "خش بخر" بمعنى " كل طيبا" [8]، فقيل " أراد رجل تقديم مساعدة لسائل، فأدخل يده في الكيس ليخرج فَلساً، وفلوس البصرة كبار، فغلط بدرهم بغلي، فلم يفطن، حتى وضعه في يد السائل، فلما فطن استرده وأعطاه الفَلس"[9]، وهناك أيضاً الدرهم البخي وكتب عليه "ضرب هذا الدرهم"[10]، ووجد الهميان الذي يوضع على الوسط ليجمع فيه المال[11]، وأشار الجاحظ بأن البخلاء في العصر العباسي أطلقوا على الدراهم اسم " دار الهم"[12].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج4، ص 145.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 12-13.

[3] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 153. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 219.

[4] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 23، 153. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 219.

[5] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 153. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص 220.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج1، ص 153.

[7] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 85 والرسائل، ج 2، ص 279. انظر: الدوري، عبد العزيز، تاريخ، ص

[8] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 85 والرسائل، ج 2، ص 279.

[9] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 85.

[10] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص280.

[11] الجاحظ، الحيوان، ج2، ص150.

[12] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 12-13.

وتداول الناس في العصر العباسي ذات الانصاف وأرباع الدراهم والدنانير[1]، واستعملوا للشراء أجزاء من الدرهم كالقيراط والطسوج[2]، والحبة والدانق[3]، وقيل بأن الدانق يساوي سدس الدرهم[4]، ويساوي قيراطان، وأربعة طساسيج[5]، ويعد الفلس الذي امتاز بكبر حجمه[6]، جزءا من ستة وتسعين جزءا من الدرهم[7]. وأجاز العلماء التعامل مع الدراهم والدنانير المفتتة (وهي المكسورة غير الصحيحة)، طالما كانت بعيده عن الغش والتزييف، موضحين سبب إجازتها بأن العملات تصنع خفيفة الوزن وتكسر خلال الاستعمال، فذكر قصة رجل أُسِرَ عند الترك، وطلبوا درهماً لفك أسره، فأعطاه ذلك، فكسره التركي إلى نصفين وقال:" هذا لا يساوي درهماً، وهذا غبن فاحش، فخذوا هذا النصف"[8].

8. الصكوك والمعاهدات

يعتبر الصك كالكتاب، وهي عبارة عن صكوك رسمية تستخدم لضمان وتنظيم حقوق الناس بشكل جماعي، وأطلق الخليفة العباسي عبد الله المأمون مجموعة من الصكوك لأهل بيوتات دهاقين سمرقند[9]. واختلفت قيمة الصكوك الموثقة، فذكر الجاحظ صك بألف دينار، ووجد من قضى صكاً بآلاف الدنانير والدراهم[10]. وصنعت الصكوك من الجلود[11]، واستخدموا طينة الصك (عبارة عن طين خاص يلصق بالصك ليختم به)[12].كما قاموا بالبحث عن طريقة أخرى للحفاظ

---

[1] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 63.
[2] م. ن، ص 47-51.
[3] م. ن، ص 63.
[4] م. ن، ص 123.
[5] م. ن، ص 51.
[6] م. ن، ج 1، ص 85.
[7] م. ن، ج 2، ص 47-51.
[8] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 84. البخلاء، ج 1، ص 153.
[9] الجاحظ، المحاسن، ص 10
[10] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 72.
[11] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 253.
[12] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 72.

على حقوقهم فوضعوا الشروط على بعضهم أثناء معاملاتهم التجارية من خلال العقود [1]، وقيل أطلق على القروض خلال تعاملهم بها اسم: الوهب[2].

ويوضح الجاحظ فضل الكتابة في تسجيل المعاهدات والعهود والسجلات والصكوك، كما بين فضل الصكوك لزيادة الثقة بين الناس، فقيل:" لولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات والصكوك، وكل إقطاع، وكل إنفاق، وكل أمان، وكل عهد وعقد، وكل جوارٍ وحلف، ولتعظيم ذلك، والثقة به والاستناد إليه، كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة ؛ تعظيماً للأمر، وتبعيداً للنسيان " [3]، وقيل ايضاً: " لولا الرقوم لهلك أصحاب البزّ والغزول، وأصحاب الساج وعامة المتاجر، وليس بين الوسوم التي تكون على الحافر كله والخف كله والظلف كله، وبين الرقوم فرق، ولا بين العقود والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق، وكلها خطوط، وكلها كتاب "[4].

9. الموازين والمكاييل

تطرق الجاحظ الى ذكر أنواع الأوزان والمكاييل والمقاييس المهمة التي تنظم التعامل التجاري بين الناس والتجار، فهي تختلف من منطقة إلى أخرى، ومن إقليم إلى آخر، فتباع السلع بالوزن أو العدد أو الكيل، وهناك ما قدر عن طريق المساحة كالأراضي لذلك حرص التجار على ذكر نوع الكيل أو الوزن في وثائق البيع والشراء[5].

ويعتبر "الكُر" من أكبر مقاييس الكيل العربية، وعبر الجاحظ عن ذلك بقوله في وصف رجل: " لو كان في كفه كُرّ خردل، ثم لعب به لعب الأبلى بالأكرة، لما سقطت من بين أصابعه حبةٌ واحدة"[6]، وقدر وزنه بخمسة آلاف وسبعمئة وستين رطلاً عراقياً [7]، بينما ورد في البيان بأن

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج 5، ص 73-74.

[2] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 71.

[3] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 75.

[4] م. ن، ص 76.

[5] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص 161. انظر: حياوي، فراس، جوانب، ع(1)، ص 277.

[6] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص131.

[7] م. ن، ص 131.

المكيال يتسع لخمسة عشر صاعاً [1]، وقيل بأن الكرَّ مكيال أهل العراق [2] وقد استخدموا لكيل الطحين وبيعه مكيال "العفيز" [3]، وقيل "المكوك " [4]، (الذي يتسع لصاع ونصف او نصف رطل[5])، وفيه يقدر حليب الماعز بقوله:" تحلب الماعز خمسة مكاكيك " [6]، وتعامل بعضهم بأداة يقال لها "الخرص "، وهو تقدير الشيء بالظن [7].أما الأطوال والمساحات المستخدمة الجريب " يملك خمسمائة جريب " [8].

10. الأسعار

وفيما يتعلق بالأسعار، فقد تناول الجاحظ أنواع السلع وأسعارها المتداولة في الأسواق، إذ يرتفع ثمنها في وقت الأزمات والحروب وترخص في وقت السلم؛ لوجودها بكثرة، وأشار لقاعدة تجارية هامة: بأن الشيء يرخص بوجدانه، ويرتفع ثمنه بفقدانه [9]، موضحاً بأن جودة السلعة ترتبط بسعرها [10].

واختلفت أسعار السلع من فترة إلى أخرى، فسعرها في الصيف ليس كما هو في الشتاء، وسعر رأس البقر في الشتاء يساوي رأسين في الصيف[11]، بينما بلغ سعر لحم البقر درهماً واحداً في فصل الشتاء، إلا أنه يقل في الصيف؛ لابتعاد الناس عن تناوله[12]. وبلغ سعر الجدي والشاة في العراق ثمانون درهماً، وقدم الجاحظ صورة واضحة لطريقة يقوم بها القصاب لبيع جميع ما

---

[1] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 199.
[2] الجاحظ، الرسائل، ج 1، ص 131.
[3] الجاحظ، الحيوان، ج 1، ص 236.
[4] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 348. البخلاء، ج 1، ص 65.
[5] الجاحظ، البيان، ج 1، ص 348. انظر: الشذر، طيبة، ألفاظ، ص 250.
[6] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 321.
[7] م. ن، ص 321.
[8] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 5.
[9] الجاحظ، التبصر، ص 13.
[10] الجاحظ، الرسائل، ج2، ص 179.
[11] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 26.
[12] م. ن، ص 41.

تشتمل علية الشاة، فيباع جلدها بثمانين درهماً، وبطنها بثمانين درهماً[1]، ويقال بأنه بلغ سعر الجدي في الكوفة عشرة دراهم، بينما ينخفض في البصرة عن ذلك السعر؛ لما فيها من خيرات[2].

وقام الجاحظ بعرض أسعار الدجاج والحمام، فبلغ سعر الدجاجة الكسكرية درهماً واحداً، أي ما يعادل أربعة وعشرين فروجاً [3]، وسعر الحمام الواحدة خمسمائة دينار، وقيل الأنثى عشرة دنانير، والذكر عشرين ديناراً وأكثر، بينما بيضة الحمامة الواحدة خمسة دنانير[4]، وبلغ ثمن الذكر من العقاب درهماً، والأنثى نصف درهم[5]، وسعر السنور الصغير درهما [6]، وكما كان للحيات سوق خاص بها، فلها أيضاً سعر خاص، فبلغ ثمن ثلاثون أفعى دينارين[7]. ولم تشر الجاحظ إلى توضيح أسعار الأدوية الخاصة بالحشرات، إلا أنه اكتفى بذكر سعر دواء الذبان الذي بلغ خمسين درهماً[8].

ويوضح الجاحظ أسعار الفواكه والخضروات التي وجدت داخل أسواق الدولة العباسية، فبلغ سعر البصل دانقا، والباذنجان دانقا[9]، والفلفل قيراطا[10]، والحمص قيراطا[11]، وبلغ ثمن الرطب في العراق درهماً، بينما بلغ في البصرة دانقين (الدانق سدس الدرهم) [12]، كما وصل سعر ست حبات من الخوخ في بداية الموسم إلى مائتي درهم، ثم يصبح في النهاية درهما واحداً [13].

---

[1] الجاحظ، الحيوان، ج5، ص 321-324.
[2] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 81-82.
[3] الجاحظ، الحيوان، ج2، ص 138.
[4] م. ن، ج 3، ص 119.
[5] م. ن، ج6، ص 199.
[6] م. ن، ج 5، ص 213.
[7] م. ن، ج4، ص 64-65.
[8] م. ن، ج 3، ص 206.
[9] الجاحظ، البخلاء، ج 2، ص 41.
[10] م. ن، ج 1، ص 66.
[11] م. ن، ص 66.
[12] م. ن، ج 2، ص 61.
[13] م. ن، ص 50-51.

ويستعرض الجاحظ أسعار الذهب والفضة والأحجار الكريمة، فبين سعر حبة اللؤلؤ التي يقدر وزنها مثقالاً، بألف مثقال ذهباً، بينما البالغ وزنها مثقالين عشرة آلاف دينار، وقيل مائة ألف دينار[1]، وبين القاضي الرشيد في كتابه الذخائر بان اللؤلؤ ليس له وزن ولا يقدر بثمن [2].أما الياقوت الأحمر الذي أطلق عليه البهرماني " فأجوده الصافي النقي المضيء من أي لون " ويرتفع قيمته على قدر الكبر والصغر، وإذا بلغ وزنه نصف مثقال فيقدر ثمنه بخمسة آلاف دينار[3].

ومن المعادن المرغوبة الدرة وبلغ ثمن الواحدة خمسون ألف دينار؛ لما تحتويه في داخلها من عنبر[4]، وقيل بلغ ثمنها في عهد الرشيد سبعون ألف دينار، بينما الدرة الصغيرة ثلاثون ألف دينار[5]، وقيل وصل ثمنها مائتي ألف درهم[6]، ومن الجواهر الأخرى " الزبرجد الشديد الخضرة...الصافي النقي " قدر ثمن قطعة وزنها نصف مثقال بألفي مثقال ذهباً[7]، والفيروزج الذي وزنه نصف مثقال عشرين ديناراً[8]، والبلور الذي يختار منه الصافي الأبيض النقي أولاً ثم الأحمر والبالغ وزنه نصف مثقال يقدر بمائة دينار[9]، وقطعة البيجازي الذي قدرة بثلاثين درهماً[10].

ويعالج الجاحظ طرق البناء في العصر العباسي، فبين أن البيوت شيدت من الطين واللبن والآجر والجص والأجذاع والساج والخشب والحديد [11]، والإشكنج (قطع حجارة صغيرة)[12]، واستخدم

---

[1] الجاحظ، التبصر، ص 19.
[2] القاضي، الذخائر، ص 198.
[3] الجاحظ، التبصر، ص 20.
[4] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 146.
[5] القاضي، الذخائر، ص 177.
[6] الجاحظ، التاج، ص 190.
[7] الجاحظ، التبصر، ص 21.
[8] م. ن، ص 21
[9] م. ن، ص 22-23.
[10] م. ن، ص 22.
[11] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 144-145.
[12] الجاحظ، البخلاء، ج2، ص 74.

البنائين التراب في بناء البيوت [1]، إذ تكون المنزل من ثلاث غرف، لكل منهـا عـدة نوافـذ، وبجانبه ساحة ذات مساحة كبيرة، ودرج للصعود إلى سطحه حيث وجد المطبخ، كما يوجد لـه مدخل ومخرج واحد [2].

واختلف سعر تكلفة بناء البيوت من مدينة إلى أخرى، فبلغت في بغداد والكوفة والأهواز مائـة الف دينار، بينما بلغت في البصرة خمسين ألف درهم، وذلك لتوفر مواد البناء فيها، وافتقار باقي الأمصار إلى ذلك[3]. ولهذا فضل بعض الناس استئجار البيوت على شرائها[4]، فبلغت أجرة البيت لعامٍ واحد ثلاثين درهما، وقيل أربعين، وقيل قد اعتمد إيجاره على عدد الأشـخاص القـاطنين فيه[5]، فلكل شخص خمسة دراهم[6]، وقد يرتفع مبلغ الإيجار إذا كان مفروشاً، وعليه قرميد[7].ويقوم المؤجر بوضع شروط عدة على المستأجر، كتنقية البالوعة[8]، وأخذ روث دابتـه ومـا يتبقـى وراءها من علف، وله نوى التمر وقشر الرمان، والغُرفَة من كل قِدر يطبخ في بيته[9]، وبلغ سعر النفط (الكاز) للإنارة ثلاثة أفلس في الليلة الواحدة[10].

أما الجواري فقد حصل عليها الناس عن طريق الشراء، إذ يُقدر ثمنها حسب ما تتحلى به مـن صفات وأخلاق حسنة[11]، فبلغ ثمن الجارية الحبشية مائة ألف دينار[12]، وقيل عشرين ألفـاً[13]، إذ قام إبراهيم بن المهدي بشراء جارية بثمانية آلاف درهم، ومن إعجاب المعتصم بها، دفـع لـه

---

[1] الجاحظ، الدلائل، ص 63.
[2] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 146-148، 156.
[3] الجاحظ، الرسائل، ج 4، ص 144-145.
[4] الجاحظ، البخلاء، ج 1، ص 159.
[5] م. ن، ص 156.
[6] م. ن، ص 146.
[7] م. ن، ص 150.
[8] م. ن، ص 146-147.
[9] م. ن، ص 145.
[10] م. ن، ج 2، ص 51.
[11] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 161-162.
[12] م. ن، ص 177.
[13] م. ن، ص 177.

سبعين ألف دينار، لكنه رفض بيعها[1]، وقدر ثمن الغلام أيضاً بحسن وجهه وحداثة سِنه، فبيع بعضهم بمائة دينار، ومنهم بعشرة دنانير[2].

11. الضرائب

فرضت الدولة العباسية على التجار في البر والبحر، ضريبة الخراج دون التفريق بين الطوائف والأمم [3] ففرضت ضريبة المكس على البضائع المحملة من السفن الآتيه من البحر الى البصرة[4]، واعتبر التجار ذلك نوع من الظلم والتغريم، وشكوا حالهم عن طريق الشعر، فقالوا: [5]

ألا تستحي من ملوك وتتقي محارمنا لا يبوؤا الدم بالدم

وفي كل أسواق العراق أتاوة في كل ما باع امرؤ مكس درهم

12. النفقات

زاد اعتناء الخلفاء بالمال وكيفية تدبيره والتصرف به؛ لينفق على الجند، ومستلزمات الدولة، كما يجب عليهم صرفه في وجوه الخير والبر والكرم والجود[6].واستخدم خلفاء بني العباس المال؛ لإشباع رغباتهم الخاصة، والتفاخر أمام الناس بالطعام والثياب والمجوهرات غالية الثمن، فقيل بأن المنصور قام بشراء خاتم أطلق عليه "اسم الجبل" بأربعين ألف دينار، وخاتم " البحر" بثلاثين ألف دينار[7]، بينما بين القاضي الرشيد بأن للمتوكل "فص أحمر يسمى الجبل " يبلغ وزنه مثقال ونصف وسعره ثمانون ألف دينار، وفص اسمه المنقار وزنه ثلاثة عشر مثقالا وسعره عشرة الاف دينار، وهناك الفص المطلبي الذي بلغ وزنه ستة قراريط وسعره ستة آلاف دينار [8]، وقدم

---

[1] الجاحظ، الرسائل، ج 2، ص 289.

[2] الجاحظ، الحيوان، ج 6، ص 318.

[3] م. ن، ص93

[4] م. ن، ص93-97

[5] م. ن، ص 93.

[6] الجاحظ، تهذيب، ص 54.

[7] الجاحظ، التبصر، ص 11. القاضي، الذخائر، ص 180.

[8] القاضي، الذخائر، ص 179.

الخلفاء المال للشعراء والشيوخ المادحين لهم، فقدم المنصور لابن أبي هرمة (ت) ألفي درهم لذمه بني أمية في أشعاره [1].

وقدم المنصور لأهل بيته عشرة آلاف درهم، وأعطى لبنات عيسى بن نهيك (ت) بعد وفاته ثلاثين ألف دينار لكل واحدة منهن، بالإضافة إلى تقديمه الضياع لهن عند زواجهن[2].وأنفق المهدي خلال خلافته ما ترك له والده، أي ما يقارب مائة وستين ألف دينار[3]، ليلقي القبض على أعدائه، فقيل دفع مائة ألف درهم؛ لإلقاء القبض على رجل هدر دمه[4]، وكان المهدي يقطع من الصوافي ليعطي خاصته[5].

[1] الجاحظ، التاج، ص 200-201.
[2] م. ن، ص 242 -246.
[3] م. ن، ص 175.
[4] م. ن، ص 182.
[5] م، ن، ص 178.

الخاتمة

ابو عثمان، عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، المولود في البصرة سنة (160هـ- 776م) والمتوفى سنة (255هـ- 869م)، يتيم الأب، فقير الحال، وهو ذو أهمية كبيرة في التاريخ لسعة علمه وثقافته، وبخاصة أنه تلقى تعليمه على أيدي عدد من الفقهاء والمحدثين والقراء والكتاب، مما أثر في شخصيته العلمية والأدبية وتخصصه في كثير من المجالات.

اهتم الجاحظ بالمجتمع العباسي في عصره، من حيث دراسة طبقات المجتمع وطوائفه الدينية ودور عناصر المجتمع من عرب وعجم وتأثيرهم في البيئة الاجتماعية، مركزا على تمجيد العرب على حساب العجم ومدافعا عنهم أمام الشعوبية المتعصبة ضد العرب.ويعود اهتمامه بدراسة الطبقات إلى تلك الفكرة الفلسفية الاجتماعية التي آمن بها والقائلة بأن المجتمع الإنساني كالعالم الكبير مكون من أجزاء متنوعة متباينة ومتناقضة لكل منها دوره في المجتمع.

ركز الجاحظ في حديثه على الطوائف الدينية من نصارى ويهود، موضحا اهم الفرق النصرانية والعادات والتقاليد الموجودة عند كل طرف. ومبرزا مدى القرب في العلاقة بين المسلمين والنصارى بعكس علاقة المسلمين باليهود والتي تميزت بالكره، معللا ذلك لقربهم منهم في يثرب، ومعرفة عيوبهم والاطلاع على امورهم.

تناول الجاحظ الحياة الاجتماعية في المجتمع العباسي بمختلف المجالات من حيث العادات والتقاليد في الزواج، وانتشار ظاهرة الطلاق، والحديث عن الاطعمة وأصنافها والألبسة وأنواعها، بالإضافة إلى أبرز الظواهر الاجتماعية التي ظهرت في المجتمع من حيث انتشار ظاهرة البخل والسرقة والعيابون والإخصاء واللواط والتي تناولها بأسلوب قصصي فكاهي ساخر مظهراً قدرته على النقد.

وأظهر الجاحظ غنى المجتمع العباسي بشتى النشاطات والمقومات الاقتصادية الزراعية والصناعية والحرفية والتجارية ووجود أنماط متعددة ومتنوعة اقتصاديا، مما يدل على مدى الاهتمام بتنوع الأنشطة والاتجاهات وتلبية المجتمع لاحتياجات الناس في حياتهم اليومية.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

البغدادي، أبو بكر، أحمد بن علي الخطيب، (ت 463ه / 1070 م)، **تاريخ بغداد او مدينة السلام**، 24 مجلد، الكتاب العربي، (بيروت – لبنان)، ب.ط، ب.ت.

البغدادي، أبو منصور، عبد القادر بن طاهر، (ت 429ه / 1037 م)، **الفرق بين الفرق**، دار الكتب العلمية، (لبنان، بيروت)، ب.ط، 1405ه / 1985 م.

التنوخي، أبو علي، علي المحسن، (ت 384 ه / 994 م)، **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، تح (عبود الشالجي)، 8 مجلدات، دار صادر، (لبنان، بيروت)، ط 2، 1415ه / 1995م.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **الآمل والمأمول**، تح (رمضان شيش)، دار الكتاب الجديد، (بيروت –لبنان)، ط2، (1983/1403م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **البخلاء**، جزءان، تح (أحمد العوامري)، دار الكتب العلمية، (بيروت –لبنان)، ب.ط، 1411هـ/1991م.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **البرصان والعوجان والعميان والحولان**، تح (محمد الخولي)، مؤسسة الرسالة، (بيروت –لبنان)، ط5، (1412هـ/ 1992م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **البلدان**، تح(صالح أحمد العلي)، مجلة كلية الاداب، (بغداد – العراق)، ب.ط، ع 12، 1388ه 1969 م

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **البيان والتبيين**، 4 أجزاء، تح (عبدالسلام هارون)، دار الفكر، (بيروت – لبنان)، ط.2، (1367هـ/1948م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **التاج في أخلاق الملوك**، دار الفكر، (بيروت – لبنان)، ب.ط، (1375هـ/ 1955م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **التبصر بالتجارة**، تح (حسن عبدالوهاب)، دار الكتاب الجديد، (بيروت –لبنان)، ب.ط، (1403هـ/ 1983م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **تنبيه الملوك والمكائد**، تح (ياسر محمد الحسيني)، (دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان)، ط 1، (1428ه / 2007م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **الحيوان**، 8 أجزاء/ مطبعة البابي الحلبي، (القاهرة –مصر)، ط 2، (1388هـ/ 1968م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير**، المطبعة العلمية، (دمشق – سوريا)، ط 1، (1346 ه / 1928 م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **رسائل الجاحظ**، مجلدان، تح (عبد السلام هارون)، دار الجيل، (بيروت – لبنان)، ط1، (1411هـ/ 1991م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **رسائل الجاحظ**، تح (باسل عيون السود)، دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان)، ط 2، 1420 ه / 2000 م.

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **العثمانية**، تح (عبدالسلام هارون)، دار الجيل، (بيروت– لبنان)، ط1، (1374هـ/1954م).

الجاحظ، أبو عثمان، عمرو بن بحر، (ت255هـ/ 868م): **المحاسن والأضداد**، تح (فوزي عطوي)، دار صعب، (بيروت–لبنان)، ب.ط، (1389هـ/1969م).

ابن الجوزي، ابو الفرج، عبد الرحمن بن علي، (ت 597ه / 1200م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، جزء، تح (محمد عطا ومصطفى عطا)، دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان)، ط.1، 1412ه / 1992م.

الجوهري، أبو نصر، اسماعيل بن حماد، **تاج اللغة وصحاح العربية**، (ت 392 ه / 1002 م)، تح (أحمد عبد الغفور عطار)، دار الكتاب العربي، (بيروت –لبنـــان)، ط 3، 1377 ه / 1982 م

ابن حجر العسقلاني، ابو الفضل، شهاب الدين احمد بن علي، (ت 852 ه / م)، **لسان الميزان**، جزء، دائرة المعارف النظامية، (حيدر اباد – الهند)، ط.2، (1390 / 1971 م).

الحموي، **معجم الادباء**، 20 جزء، 20 مجلد، دار الفكر، (بيروت – لبنـــان)، ب.ط، 1400 ه / 1980 م.

ابن خلدون، عبد الرحمن الحضرمي، (ت 808ه / 1405 م)، **مقدمة ابن خلـــدون**، دار القلـــم، (بيروت –لبنان)، ط 5، 1404ه / 1984 م.

ابن خلكان، أبو العباس، شمس الدين، أحمد بن محمد، ت(681ه / م)، **وفيات الأعيـــان وأنبـــاء ابناء الزمان**، 8 جزء، تح (احسان عبـــاس)، دار الثقافـــة، (بيـــروت – لبنـــان)، ط(1)، 1390ه/ 1970م.

الذهبي، ابو عبد الله، محمد بن احمد بن عثمان، (ت 748ه / 1347م):

الذهبي، ابو عبد الله، محمد بن احمد بن عثمان، (ت 748ه / 1347م): **سير اعلام النبلاء**، 25 جزء، تح (صالح السمر، شعيب أرنؤوط)، مؤسسة الرسالة، (بيروت – لبنـــان)، ط(1)، (1402 ه / 1982 م).

الذهبي، ابو عبد الله، محمد بن احمد بن عثمان، (ت 748ه / 1347م): **العبر في خبر من غبر**، 4 أجزاء، تح (محمد السعيد زغلول)، دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنـــان)، ب.ط، ب (ت).

الذهبي، ابو عبد الله، محمد بن احمد بن عثمان، (ت 748ه / 1347م): **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، 3 اجزاء، تح (علي محمد البجاوي)، دار المعرفة (بيروت – لبنـــان)، ب.ط، ت 1382ه/ 1963 م.

السيوطي، ابو، جلال الدين عبد الرحمن، (ت 911 ه / 1505م)، **بغية الوعاه في طبقات اللغويين والنجاة**، دار المعرفة (بيروت– لبنان)،

ابن شاكر، أبو، محمد الكتبي، (ت 764 ه / 1362م)، **عيون التواريخ**، تح (عفيف نايف حاطوم)، دار الثقافة، (بيروت – لبنان)، ب.ط، 1416 ه / 1996.

الصفدي، أبو الصفاء، صلاح الدين خليل، (ت 764ه / 1362 م)، **نكت الهميان**، تح (أحمد زكي)، مطبعة الجمالية، ب.ط، 1326 ه / 1908 م).

ابن عساكر، ابو القاسم، علي بن الحسن، (ت 571ه / 1175 م)، **تاريخ مدينة دمشق**، 62 جزء، تح (محب الدين العموري)، دار الفكر، (بيروت، لبنان)، ط (1)، 1417ه / 1996م.

ابن العماد، ابو الفلاح، عبد الحي بن عماد الحنبلي، (ت 1089 ه / 1678 م)، **شذرات الذهب في اخبار من ذهب**، 4 أجزاء، دار المسيرة، (بيروت – لبنان)، ط(3)، 1399ه / 1979م.

القاضي الرشيد، أبو الحسن، أحمد بن علي، (ت 561 ه / م)، **الذخائر والتحف**، تح (صلاح الدين المنجد)، دائرة المطبوعات والنشر، (الكويت، الكويت)، ب (ط)، 1378 ه/1959م.

ابن كثير، ابو الفداء، اسماعيل (ت 774 ه / 1372م)، **البداية والنهاية**، 4 اجزاء، مكتبة المعارف، (بيروت – لبنان)، ط(2)، (1397ه / 1977 م).

ابن المرتضى، أحمد بن يحيى، (ت 840ه / م)، **المنية والأمل في شرح الملل والنحل**، تح (توما ارتلو)، دار المعارف العثمانية (أفغانستان، حيدر أباد الدكن)، ب.ط، 1316 ه / 1898 م.

ابن منظور، أبو الفضل، محمد بن مكرم الحصري، (ت 711 ه / 311 م)، **لسان العرب**، 15 جزء، دار صادر، (بيروت – لبنان)، ب.ط، 1374 ه / 1954م.

ابن نباته، جمال الدين محمد بن شمس الدين الفاروقي، **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون**، تح (ابو الفضل ابراهيم)، دار الفكر العربي، (القاهرة–مصر)، ب.ط، ه/ 1964م.

ابن النديم، ابو الفرج، محمد بن ابي يعقوب، (ت 380 ه / 990م)، **الفهرست**، تح (يوسف علي طويل)، دار الكتب العلمية، (بيروت – لبنان)، ط(1)، (1416ه / 1996).

الهمداني، ابو الفضائل، احمد بن الحسين بن يحيى، (ت 398ه /1007 م)، **مقامات بديع الهمذاني**، تح (محمد عبده)، دار المشرق، (بيروت – لبنان)، ط 7، (ه / 1986 م)

ابن الوردي، ابو، زين الدين عمر، (ت 749 ه / 1348 م)، **تتمة المختصر في اخبار البشر**، جزء، تح (احمد البدراوي)، دار المعرفة، (بيروت – لبنان)، ب(ط)، ب(ت).

اليافعي، ابو محمد، عبد الله بن أسعد بن علي، (ت 768ه / 1366 م)، **مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، جزء، مؤسسة الأعلى للمطبوعات، (بيروت – لبنان)، ط(2)، (1390ه / 1970م).

اليعقوبي، أبو العباس، أحمد بن واضح بن جعفر، (ت 284 ه / م)، **مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر**، تح (محمد كمال الدين عز الدين)، عالم الكتب، ب (م)، ب (ط)، ب (ت).

المراجع

الأشتر، عبد الكريم، **محاضرات الموسم الثقافي**، مطبعة الوزارة، (دمشق – سوريا)، ب.ط، 1383ه / 1964 م.

أمين، أحمد، **ضحى الاسلام**، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة – مصر)، ط 7، 1383ه / 1964م.

الأهواني، أحمد، **التعليم في رأي القابسي**، ب.ن، (القاهرة – مصر)، ب.ط، 1364ه/ 1945 م.

البغدادي، اسماعيل، **هدية العارفين واسماء المؤلفين واثار المصنفين**، 3مجلدات، مكتبة المثنى، (بغداد –العراق)، ط()، (1370ه/ 1951م).

بروكلمان، كارل، **تاريخ الادب العربي**، جزء، دار المعـــارف، (القـــاهرة – مصـــر)، ب (ط)، (1381 ه/ 1962م).

بلبع، عبد الكريم، **النثر الفني وأثر الجاحظ فيه**، مطبعة الرسالة، (القـــاهرة – مصـــر)، ب.ط، 1374 ه / 1955 م.

جبر، جميل، **الجاحظ في حياته وادبة وفكرة**، دار الكتاب اللبناني، ب (م)، ب (ط)، (1378 ه / 1959 م).

الحاجري، طه، **حياته واثارة**، دار المعارف (القاهرة – مصر)، ب (ط)، (512 ه / 1119 م).

الدوري، عبد العزيز، **تاريخ العراق الاقتصادي في القـــرن الرابـــع الهجـــري**، دار المشـــرق، (بيروت – لبنان)، ط 2، 1394 ه/ 1974 م.

رزيج، فهمية، **ملامح الفكر الاجتماعي عند الجاحظ**، مركز إحياء التراث العربـــي، (بغـــداد – العراق)، ب.ط، ب، ت.

رفاعي، احمد، **عصر المأمون**، 3 مجلدات، دار الكتب المصرية، (القـــاهرة – مصـــر)، ط(4)، (1346ه / 1982م).

الزركلي، خير الدين، **الاعلام**، جزء، دار العلم للملايين، (بيروت – لبنان)، ط(5)، (1400 ه / 1980 م).

زيدان، جرجي، **تاريخ اداب اللغة العربية**، تح (شوقي ضيف)، دار الهلال، (القاهرة – مصر)، ب.ط، ب، ت.

سعد، فاروق، **مع بخلاء الجاحظ**، دار الافاق الجديدة، (بيروت – لبنـــان)، ب (ط)، 1398 ه / 1978 م.

سعد، فهمي، **العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع**، الاهلية للنشر والتوزيع، (بيـــروت – لبنان)، ب (ط)، (1403 ه / 1983 م).

سليمان، فتحية، **المذهب التربوي عند الغزالي**، ب.ن، (القـــاهرة–مصـــر)، ط (2)، 1383 ه / 1964.

الشذر، طيبة، **ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ**، دارقباء، (القاهرة – مصر)، ب.ط، 1418ه / 1998 م.

الصالح، صبحي، **النظم الاسلامية نشأتها وتطورها**، دار العلم للملايين، (بيـــروت – لبنـــان)، ب.ط، 1375ه / 1956 م.

ضيف، شوقي، **العصر العباسي الثاني**، دار المعارف، (القاهرة – مصر)، ط (10)، (1416ه / 1996 م).

الطيباوي، عبد اللطيف، **محاضرات في تاريخ العرب والاسلام**، دار الأندلس، (بيروت – لبنان)، ب (ط)، 1382 ه / 1963 م.

عباس، عرفة حلمي، **سخرية الجاحظ من خـــلال رســـالة الربيـــع والتـــدوير**، مكتبـــة الاداب، (القاهرة–مصر)، ط 1، 1428ه / 2007 م.

العبيدي، صلاح الدين، **الملابس العربية الاسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخيـــة والأثرية**، دار الرشيد للنشر، (بغداد – العراق)، ب (ط)، 1400 ه / 1980 م.

العزي، رفعت، **الجاحظ وآراؤه الاقتصادية في ضوء كتابة التبصر بالتجارة**، (رسالة ماجستير)، جامعة ديالي، (بغداد– العراق)، 1435 ه / 2014 م.

علي، محمد كرد، **أمراء البيان**، دار الافاق العربيـــة، (القـــاهرة – مصـــر)، ب.ط، 1423 ه/ 2003م

العمد، هاني، **صورة البصرة في بخلاء الجاحظ**، دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد – العراق)، ط 1، 1410ه / 1990 م.

قطب، سيد، **في ظلال**، دار احياء التراث العربي، (بيروت– لبنان)، ط 3، ب.ت.

الكروي، ابراهيم، **طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الاول**، مركز الاسكندرية للكتاب، (الاسكندرية – مصر)، ب (ط)، (1409ه/ 1989 م).

اللقاني، رشيدة، **ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ**، مطبعة جامعة الملك سعود، (السعودية، السعودية)، ط 1، 1413ه / 1993 م.

الدوريات

الجاحظ، عمرو، ***ترجمة الجاحظ***، **مجلة المجمع العلمي العربي**، (دمشق – سوريا)، مج(9)، ع(3، 4)، (1347 ه/ 1929 م)، ص 203–217،

الحسيني، عبد الرحمان، ***تطور الأزياء العربية في العصر العباسي***، كلية الامام كاظم للعلوم الإسلامية، ب (م)، **مجلة لارك للفلسفة واللسانيات والعلوم الإجتماعية**، مج (3)، ع(30)، (1439ه / 2018 م)، ص 186 –216.

الدقر، عبد الغني، ***اعتزال الجاحظ***، **مجلة المجمع العلمي العربي**، (دمشق – سوريا)، مج (28)، ع(4)، 1372ه / 1953 م، ص 575– 591.

الصالح، ابراهيم، ***الجاحظ***، **مجلة الوعي الإسلامي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (الكويت – الكويت)، مج (1)، ع(1)، 1384ه/ 1965م، ص 54–59.

شرف الدين، خليل، ***كيف صور الجاحظ طبقات المجتمع***، **مجلة الأديب**، (بغداد – العراق)، 8 أجزاء، 1365 ه / 1947 م.

عبد الستار، سلام، **الجاحظ**، صحيفة دار العلوم، (القاهرة – مصر)، مج4، ع1، (1355 ه / 1937 م)، ص 45–52.

عمر، معن، ***أصالة وعمق التحليل الاجتماعي عند الجاحظ***، مجلة المناهل، (الرباط – المغرب)، ع 17، 1400 ه/ 1980 م، ص 44–50.

الفهري، عبد الحميد، **الجاحظ مصنفاً**، وقائع ندوة قسم اللغـــه العربيـــة بكليـــة الأداب والعلـــوم الإنسانية، (صفاقس – تونس)، (1428ه / 2007م)، ص 209–218.

المجالي، رابعة، ***صورة الأقوام غير العربية في حيوان الجاحظ "صورة الاخـــر "***، **اداب عـــين شمس**، (القاهرة – مصر)، مج(40)، (1433 ه/ 2012 م)، ص 101– 135.

المفجر، جمعة، ***أسلوب الجاحظ في مؤلفاته***، **مجلة فكر وإبداع**، (القاهرة – مصر)، مـــج(94)، (1436ه/ 2015م)، ص 111–126.

منجد، صلاح الدين، ***صور من العصر العباسي***، المجلس الاعلى، (دمشق – ســـوريا)، **مجلـــة الرسالة**، ع(658)، (1346ه / 1946 م)، ص 1–2.

نوفل، سيد، ***ابو عثمان الجاحظ في اسلوب الاديب المجدد والعالم الفيلسوف***، **مجلـــة الهـــلال**، (القاهرة–مصر)، ع 9، 1393ه / 1973 م.

اليافي، عبد الكريم، **كتاب الحيوان لأبي عثمان الجاحظ وعلم الجمال الحيواني**، التراث العربي، اتحاد الكتاب العربي، (دمشق – سوريا)، مـــج (16)، ع (61–64)، (1416ه /1996م)، ص 15 –36.

يوسف، أحلام، ***العامة في العصر العباسي 132– 658 ه / 749– 1258 م***، **مجلـــة الحكمـــة للدراسات التاريخية**، مؤسسة كنوز للنشر والتوزيـــع، ب (م)، ع(9)، (1438ه / 2017 م)، ص 40–57.

يوسف، مي، ***الأطعمة في الأدب العباسي (من القرن الثاني حتى نهاية القرن الرابع الهجري)***، **مجلة البلقاء**، (عمان – الاردن)، مج (6)، ع(1)، (1419ه/ 1999م)، ص 85 –148.

الرسائل الجامعية

محمد، محمد، **العناصر غير العربية في الجيش في العصر العباســـي الأول**، جامعـــة الفيـــوم، (القاهرة – مصر)، ب (ت).

An-Najah National University
Faculty of Granduate Studies

The Social and Economic Conditions in the Abbasid State Through the Writings of Abu Othman Amr Ben Bahr Al-Jaheth (255A.H/869A.D)

By
Renad Sulaiman Naeem Masaeed

Supervised by
Dr. Adnan Melhem

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of History, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.

2021

The Social and Economic Conditions in the Abbasid State Through the Writings of Abu Othman Amr Ben Bahr Al-Jaheth (255A.H/869A.D)

By
Renad Sulaiman Naeem Masaeed
Supervised by
Dr. Adnan Melhem

Abstract

Al-Jaheth Bin Amro Bin Bahr Bin Mahboub Al-Kinani Al-Faqir Al-Laithi died in 255 H/869 AD. He is known as Abu Othman and was born in Al-Basra in 160 H/ 776 AD. He also lived a poor orphan, so his mother took care of him in their difficult situation.

He has been interested in reading sine he was a child that he attended learning circles at mosques. However, he worked as a fish and bread seller in day light and a student in studies councils and poetry councils at night. Furthermore, he is considered one of the Abbasside Era that he has been a well-rounded scholar.

He was taught by many scholars and religious men that he wrote about 360 books including *Al-Haiwan*, *Al-Bukhala'*, *Al-Rasael* and *Al-Bayan wa Al-Tabyeen***.** Also, his council was full of listeners and critiques since he was known for his sense of humor. Furthermore, he had good relationships with the Abbasside Caliphs and their ministers that the head of the letters department in the time of Haron Al-Rashid, who died in 173 H/ 809 AD. Thus, he had a good relationship with Al-Mo'tasem Bel Allah who dies in 227 H/ 842 AD.

In addition, sources indicate that his physical form had a role in his social life that he was short and had a small head, thin neck, small ears and black devilish ears. Still, there was a consensus among scholars that he was smart, intuitive, and honest. Also, he was criticized for his religious disagreements that he wasn't trusted by the scholas of the science *Al-Jarh Wa Al-Ta'del or Knowledge of Men* because he left charity behind.

He embraced Al-Mo'tazila's belief that he became on of its leaders and debaters. Then, he separated from them forming Al-Jahithia group, and then left this belief in the times of Al-Moutawakel returning to the Sunnie doctrine. Furthermore, his sources included specific information about the nature of the Abbasside society as well as its sectors and classes especially the class of Kalifs, minsters, writers, judges, merchants and commoners (Al-Souqa). Commoners were called alsouqa because the Caliph led them as he wished. Also, they were known by the insults, bastards that this class included most of the classes of the state including Arabs, Turks and Kurdish.

Also, Al-Jaheth spoke of the elements of the population including Arabs and non-Arabs who had a great influence on the social environment in the Abbasside state considering the Arabs as the core of the society and their owners. Furthermore, he stood for classifying people according to their people which appeared in early 3 H that they were extremists preferring non-Arabs over them. Besides, he talked about Jews and Christians including their social status that some of them were servants of kings, writers of sultans, doctors of the rich and spice dealers.

Specifically, he introduced the image of the Abbasside Era in terms of habits, traditions, marriage, divorce, food, dress, wine drinking, games, fun councils and musing which was special in the palaces of the Caliphs. Also, he talked about their religious occasions on Fridays, Al-Adha and Nowruz.

Furthermore, he explored social phenomena in that era including stinginess specially in his book “Al-Bukhala’” and theft in “Heyal Al-Losos” but it was missing.

Also, he talked about Al-Ayaboun in Basra society as well as homosexuality, fornication and castration and their influence on the society.

In addition, he talked about the healthy aspects that he tackled the issues of diseases and epidemics, their treatments as well as talking about education. Thus, he talked about all kinds of knowledge and the methods of teachers in facing critiques.

Finally, he explored the economic creed in his books since it was important in the Abbasside society since they took care of agriculture, and classification, watering methods and the most known crops. Also, he talked about metallic agriculture, jewels making and introduced a clear image about other professions such as slaves trading, embroidery, fishing and service professions. To conclude, he tackled the issue of trade in:” Al-Tabsor Fe Al-Tijara” and “Risalat Fe Madh Amal Al-Tojar Wa Tham Amal Al-Sultan as well as his excellence in markets and money deals.